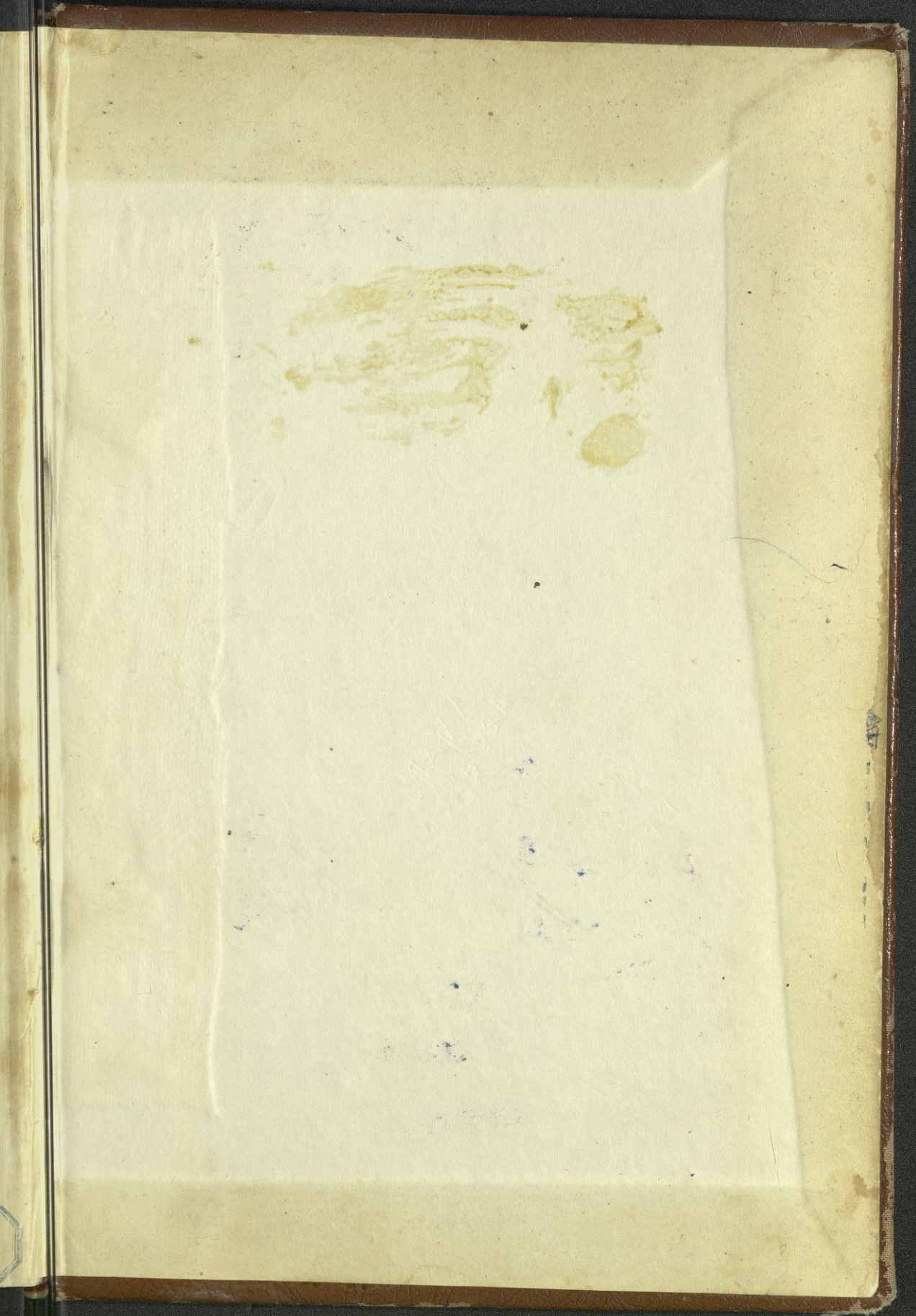


833.08



NO

11

تجلید کتاب
صالح ال

2
+
0
1
1
2

833.08
A982A
C.1

دار اليفظ العربيه للناليف والترجمة والنشر بسورية

فؤاد أيوب

روائع

من

الاحدب الاطمانج

مؤلفه فؤاد سيلار

المؤلفه جريم

هفريخ هسابني

هرمانه سودرمان

✓ توماس مان

✓✓✓✓ ستيفانه زفايج

سلسله نعيمون الادب العالمي

٤

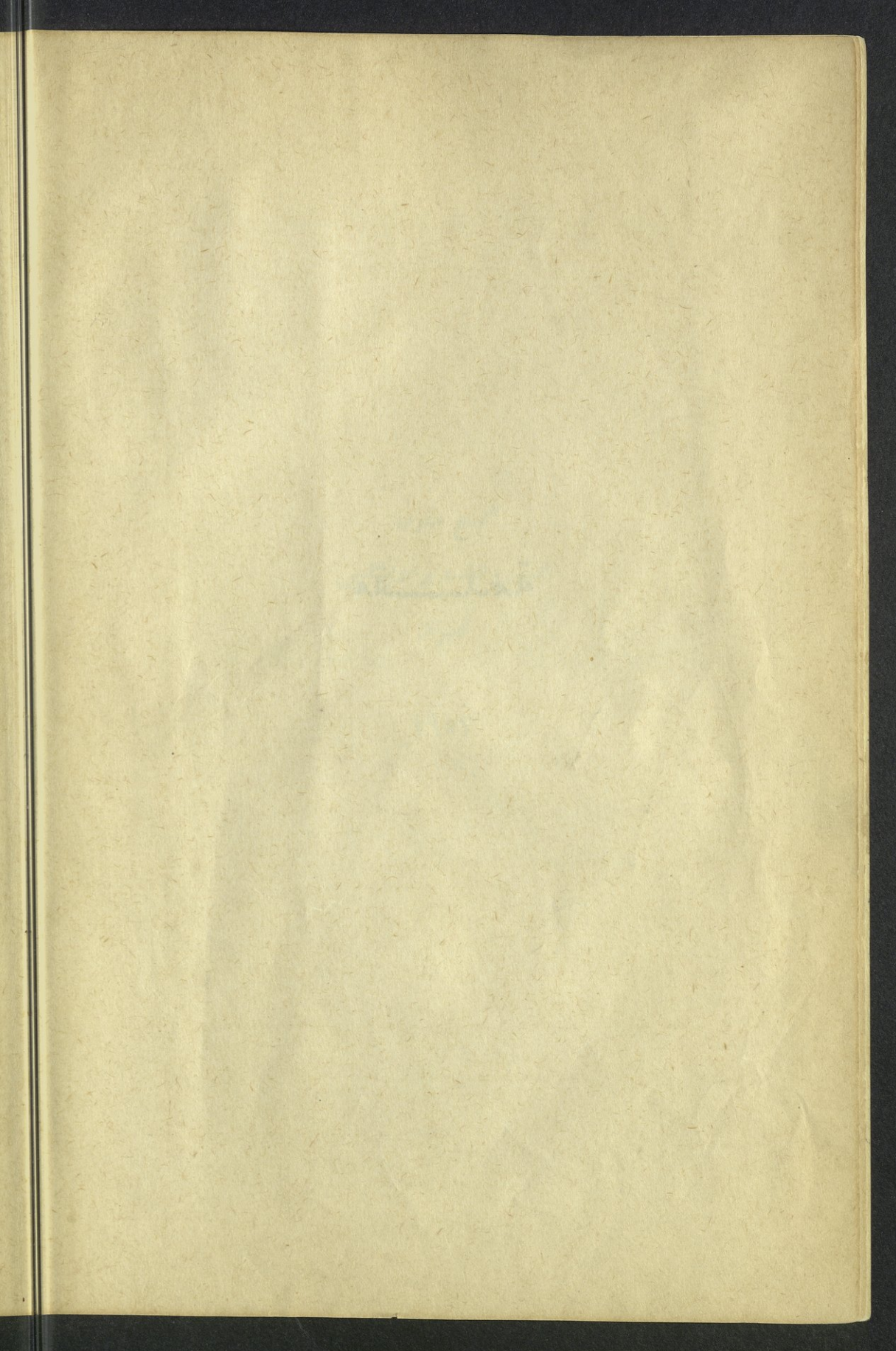
Cat. Apr. 13, 1954



جميع حقوق
النشر والطبع والاقتباس
محفوظة

١٩٥٣

مقدمة



في الأدب الألماني

إن الأدب الألماني يتمتع بأهمية من المرتبة الفكرية في الدرجة الأولى. فالألمانيون لا يعيرون « الشكل » كل ذلك الاهتمام وتلك العناية اللذين يقفهما عليه الكتاب الفرنسيون مثلاً ، بل إن الفكر والحياة عندهم ليتحدان بالغن اتحاداً وثيقاً نابتاً. وهكذا فإن الشعر ، أو المسرحية ، أو الرواية ، تعبر جميعاً عن شخصية مبدع يعيش العمل الذي يخلقه ، وينقب فيه عن مفهوم عن العالم بعمقه ويرتاح في أحضانه ، إنه ينطوي على ذاته ، وبفعل هذا الانطواء نفسه يفصح عنها إلى القارئ ، ويعترف له بكل ما يعتلج في جنباتها . أنه لا يستطيع ، وهو النائه في مجاهل عالم يتخبط في صيرورة دأمة ، إلا أن يطرح مشكلة الوجود على نفسه ، فاذا هو يجابه إذن عدداً لا يحصى من المتناقضات التي تعذبه : الحياة والموت ، الحب والحرية ، الأرض الأم والعالم الذي يشملها ، المسيحية والوثنية ... أنه يعيش في ثنائية دأمة هي التي تغني مؤلفاته وتريدها عمقاً ، مقتربة بها في هذا المضمار من الأدب الروسي إلى حد بعيد .

ولكن يجب ألا نفتش في الأدب الألماني عن تطور مستمر لا انقطاع فيه ، كما هي الحال في الأدب الروسي ، أو الأدب الفرنسي أيضاً ، بل إن « النهضة » التي شملت الآداب الأوروبية عامة بعد القرن الخامس عشر ليقلبها في ألمانيا ، طوال ثلاثة قرون ، هود شامل وشمول عام . فالأدب الذي ابتداءً يتطور في القرن التاسع مع تطور الاقطاعية ، واحتكاك الامراء الألمان بطبقة النبلاء المثقفين في فرنسا وإيطاليا ، هذا الاحتكاك الذي خلق الملاحم الشعبية والفروسية والشعر الغنائي المنسجمة مع نمو الروح القومية ، وبروز جماعة الفرسان ، وازدهار قصور الامراء ، قد بدأ ينحدر ، في القرن الثالث عشر ، الى مستوى الطبقة الاجتماعية التي نمت وتقدمت إلى الصفوف الاولى ، أعني البورجوازية . والحقيقة أن هذا الجمهور الجديد ، المجرد عن الماضي ، الخالي من احساس التذوق ، الساعي وراء الربح فقط ، والذي لا يسمو به أي انطلاق بطولي أو شعري ، ليتطلب ادباً أقرب الى متناول يده وأفهامه . ولقد كان هذا الأدب الجديد يعدم كل اهمية لولا نفخة من الالهام الديني والصوفي بعثت فيه بعض الحياة .

وإذا أضفنا الى عامل تغفل الحياة البورجوازية ، الدور الذي لعبه الإصلاح الديني في الحياة الألمانية ، والانقسام الفكري الذي خلقه ، والحروب الدينية التي أثارها ، ثم حرب الثلاثين عاماً التي أحالت البلاد خراباً

ودماراً ، ادركنا سبب انفصال الحياة الفكرية في هذه البقعة من العالم
إلى عصرين كبيرين ، أولهما عصر ازدهار القرن الثالث عشر الذي أتينا
على ذكره ، والذي لا يشير إلا اهتمام المتدين أو صاحب الاختصاص ، وربما
الفضولي الطلعة ، وثانيها هو عصر النفتح العظيم في القرن الثامن عشر ،
الذي يعتبر أحد المصورات أكثر روعة وجمالاً في تاريخ الفكر البشري .
ويبدأ هذا الازدهار مع تفوق اللغة الألمانية على اللاتينية ، وتغلب
الملكية البروسية البروتستانتية على الامبراطورية النمساوية الكاثوليكية ،
ونمو الشعور عند الكتاب بأنهم يعملون من أجل غاية قومية عظيمة . أضف
إلى ذلك أن بعض ممثلي البورجوازية ، التي اثرت كثيراً في التجارة
والصناعة ، قد تحرروا من حقارة أساليب حياة الطبقة التي ينتمون إليها ،
لكنهم ارتفعوا إلى مستوى روحي وفكري أكثر سموً . وهكذا تمت
بؤر جديدة من الفكر ، وخاصة في محيط البلاد ، تحت التأثير الفرنسي
والانكليزي ، ضد التأثير الذي اطلق شرارة « عصر الأنوار » .

وفي الوقت نفسه نما تيار ديني جديد ، هو مذهب التمسك *piétisme* ،
عاصفة من التمرد على أرثوذكسية الإصلاح الذي انقلب ، بعد أن
كان بدوره تمرداً على أرثوذكسية الكنيسة الكاثوليكية يطالب بحرية
الايمان ، ديناً يريد أن يفرض ايمانه على البشر قسراً وعنوة .

ولكن الثورة الادبية الحقيقية قد انطلقت عام ١٧٧٠ وتكاثرت

بمسرحية لكينغر « العاصفة والانطلاق » التي اعطت اسمها لمجمل تلك الحركة المنطلقة من محيط البلاد لتزدهر في المدن الرئيسية (ستراسبورغ ، فرنكفورت) مع جوته وشيلر . ولعلها كانت الموجة الاولى من تلك المثالية الألمانية التي ستجتاح جرمانيا طوال ثلاثين عاماً ، وتعطي مالا يحصى من المؤلفات الأدبية والفلسفية القيّمة ، وهي في واقع الأمر رد فعل على « فلسفة الأنوار » التي تعطي للعقل المحل الاول ، وان كانت تهدف بدورها الى تحرير الانسان من الجهالة ، لتجمل منه مركز العالم وتقوده نحو الطبيعة والحياة . ولكن هذا لا يجردها في الوقت ذاته عن تأثير جماعة مذهب التقوى الذين يعظمون الشعور ، ويجعلون من الدين امراً ضرورياً . ولا ريب ان هذه الثورية فيها قد قادت الى انتصارات عديدة حققت بواسطتها ما يمكن ان نسميه عبادة الطبيعة والشخصية العبقريّة ، كما أدت الى مفهوم جديد عن الحياة والفن ازدهر بصورة خاصة بين ١٧٧٠ — ١٧٨٥ .

ذلك ان تلاميذ هذه الحركة يتأثرون خطي روسو في محاولته قلب القيم ، وإنكار فضائل المدنية ، والعودة الى الطبيعة التي لم يُنظر اليها حتى ذلك الحين إلا من وجهة النظر العلمية ، والتي جعلت دوماً خاضعة للمدنية والانسان . ومن جهة أخرى فهم يرون في هذه الطبيعة ، مع هرذر ، عضوية مكتملة في صيرورة دائمة . انهم يعيرونها انطلاقتهم

الحيوي ، و يُرضون فيها نهمهم الى المطاق ، فيخلقون بذلك منهم مبوداً
جديداً جسده روح الارض في « فاوست » . واذا كانت هذه الطبيعة
عندهم قوة ديونيزوسية تخلق وتدمر دون انقطاع مجموعات من الاشكال
والكائنات هي تظاهرات الالهية ، فهذا لا يعني ان الحركة الجديدة
« تمثل ديانة مستحدثة يتحقق فيها وعي الله في الطبيعة ، بل بالأحرى
طبيعة استولى الانسان عليها ليكمل منها إلهاً » . وإن « مثالية الطبيعة »
هذه ، هي الاساس فيما دعاه جوبه « الثورة الالمانية الفتية » .

ولكن هذه الطبيعة انما تتظاهر وتتحقق في الشخصية الانسانية التي
ليست هي الانسان المتمدن ، لأن الشعور والخيال هنا يحتلان مقام العقل
ويتفوقان عليه ، بل العبقرى بالأحرى ، والعبقرية هي كل ما في طبيعة
الانسان من شيطاني لانها ليست شرارة من العقل الشامل ، بل عنصراً
« من عناصر الطبيعة ، وقوة خالقة تسيرها الغريزة في المحل الاول » .

ولقد ولد هذا المفهوم نظرية جديدة عن الحياة والفن ، لان
« العاصفة والانطلاق » ليس مدرسة ادبية فحسب ، بل هو مدرسة
حياة ايضاً تفوق الاخلاق فيها على الجمال : يجب على الانسان ألا يطمح
الى السعادة ، كما يريد الفلاسفة ، في تكييف عقلي لوجوده مع العالم
الخارجي ، او في فعالية نفعية خاضعة لقوانين معينة ، بل يجب بكل
بساطة ان يحقق ما يمتلئ فيه من الامكانيات . مثل هذه العبقرية

لا تخضع لأي قانون مطلقاً، بل هي التي تصنع شريعته الخاصة، فتجسّد في ثورة على المجتمع (الاصوص)، والدين (بروميتيه)، وطفانيان الدولة أو الديانة (مؤامرة فييسكا، دون كارلوس)، وسائر التقاليد الاجتماعية التي قد تعيق تطورها وازدهارها (الديسة والحب)، كما تعود إلى الطبيعة حيث تصير ذاتها (فرتر)، أو تلتجئ إلى بساطة حب ساذج كامل (غريشن) .. إنها تصبح إنساناً حقاً.

وسوف يكون الفنان حرّاً في عمله، يغرد مثل المصفور الطليق، ضارباً عرض الحائط «بكل القواعد التي تدمر الشعور الحق والتعبير الحق عن الطبيعة» (فرتر)، ولا يتبع إلا الطبيعة وحدها وأولئك الذين نجحوا في إدراكها أيضاً. وعندئذ يضحى العمل الفني تعبيراً عن الطبيعة بالمعقبة، أو الطبيعة التي صارت عبقرية.

ولكن «العاصفة» مالبثت أن هدأت، و«الانطلاق» ما عمّ أن تخاذل، فاذا بحرّة انطواء وتراجع تتلو الحركة الثورية، وخضوع الفرد لقواعد العقل يتبع ذلك الانفلات الشخصي... إنها الكلاسيكية. ولم يكن القائمون على الكلاسيكية جيلاً جديداً من الأدباء، بل هم رجال «العاصفة والانطلاق» أنفسهم، وقد نموا واكتمل نضجهم، فراحوا يحاولون تحقيق تركيب من عقلية «عصر الأنوار» وفردية «العاصفة والانطلاق». وكانت عودة إلى العالم الأغرقي

انقسمت حسب تعبير نيتمشه إلى اتجاهين: الاتجاه البولوني (وينسلكان ،
ليسنغ ، ويلاند ، جوته ، همبولدت) ، والاتجاه الديونيزوسي (هينس ،
هولدرسن ، هرر در) .

ويعترف السكلاسيكيون بوجود قوانين أبدية وضرورية يخضع لها
عقلهم ، او ما يمكن تسميته « الحرية ضمن القانون » ، ولم يعودوا
يؤمنون « بمثالية الطبيعة » ، بل بالأحرى « بمثالية العقل » . ان تدهور
الانسانية الحالي ليس نهائياً ، بل يتوجب على الانسان ان يعمل كي
يصبح أفضل ، ويرتفع حتى فوق الانسانية التي يحملون بها . انهم
يؤمنون بانتصار الانسانية النهائي عن طريق الثقافة .

وبالإضافة ، فهناك مفهوم جديد عن علاقة الفنان بالطبيعة . وعند
جوته ان المرحلة الاولى من الانتاج الفني هي التمثل بالطبيعة . ومن ثم
يتطور الفنان نحو تشكيل طريقة شخصية في التعبير ، وبعد ذلك يبلغ
الأسلوب ، ومن ثم مجرد الشيء من حقيقة الخاصة ، كي يرتقي به حتى
الحقيقة العامة ، الضرورية والأبدية . وهكذا أصبح دور الطبيعة ان
تقدم الى الفنان الأشياء التي يحيلها عقله المنظم والمبدع آثاراً فنية .

اما الموجة الثالثة من المثالية الالمانية فهي الرومانطيكية التي يلتقي فيها
المذهب العقلي والصوفية معاً ، والتي تشمل الأدب والفن والفلسفة
والدين والموسيقى والعلم ايضاً . هؤلاء يرثون المدارس السابقة لهم

وينكرونها في الوقت ذاته ، ولا يرفضون العقل ، بل يسعون الى بلوغ
وجدان نيّر ، راغبين في نفس الوقت ألا يدمروا ما يدخل في منطقة
اللاشعور . انهم في حاجة الى العقل كي يضيئوا اكثر اعماق النفس ظلمة ،
ويحللوا الشعور بواسطته .

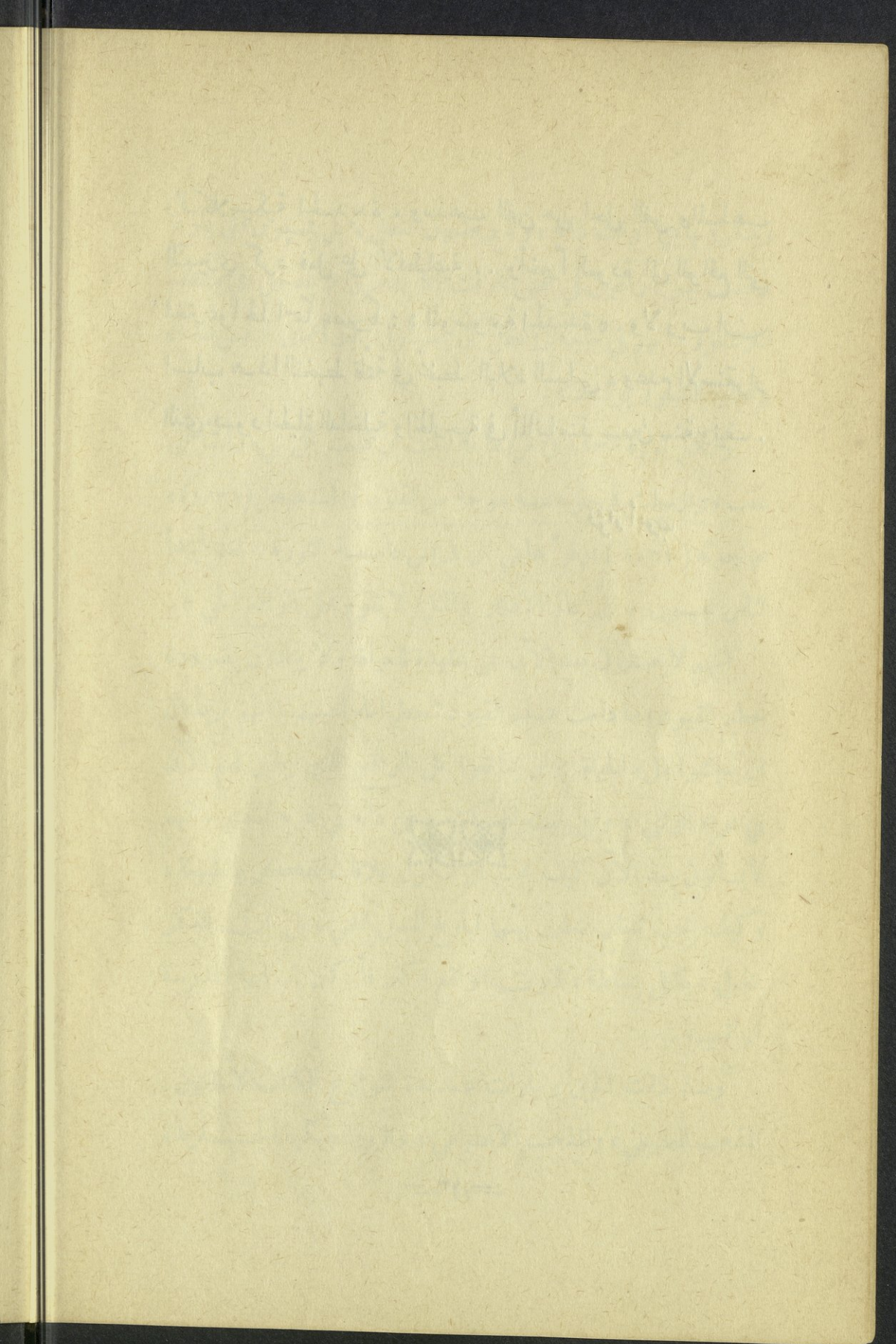
ولكن ثورة ١٨٣٠ في فرنسا ما لبثت ان قلبت كل شيء رأساً على
عقب ، وارسلت في جوته نفسه موجة من القلق . ومات هيجل (١٨٣١) ،
ثم جوته (١٨٣٢) ، وفرّ هايني الى باريس عاصمة الثورة . لقد ابتداءً
الناس يفهمون « ان عالم الافكار والمثل لا يقوم محل الواقع الحي » .
انهم لا يفتشون بعد الآن عن عقيدة للحياة ، ولا ينادون بضرورة
تخليم القيود ، ما دامت هذه القيود تحطم امام اعينهم . انهم يريدون
ان يعيشوا ملء الحياة ، وان يعايقوا كل الواقع الذي يظهر لهم الآن
في عريه الوثني ، ولن يلبث ان يكشف عن ذاته في عريه المادي . انهم
لا يسألون بعد الآن كيف يجب ان تكون علاقات الفكر بالطبيعة ،
وكيف يجب تنظيم التعاون بينهما لبلوغ العمل الفني ، بل ان الفكر
يتقبل ، بكل بساطة ، قانون الواقع اكثر فأكثر ... انها المدرسة
الواقعية .

ومنذ ذلك الحين وتيارات عديدة تتوزع الكتاب الألمانين :
المذهب الطبيعي ، والمذهب الانطباعي ، والرومانطيكية الجديدة

والكلاسيكية الجديدة ، ومذهب الفن من اجل الفن والمذهب
التعميري كرد فعل على الانطباعية .. وأخيراً العودة الى الواقع التي
اخترعوا لها اسماً عصرياً : « الموضوعية الجديدة » . ولا ريب ان
اسباب هذا التخبيط قائمة في تخبيط البلاد السياسي ، وعدم الاستقرار
الذي يسود الحياة الداخلية والخارجية في ألمانيا منذ سبعين سنة ونيف .

فؤاد أيوب





روائع
من
الأدب الألماني

May 1896

May 1896

فصل من الواقع ✓

لهو القدر

جوهان فون شيللر

بسم الله الرحمن الرحيم

عن علي بن موسى

عن الحسن بن علي

جوهان فون شيللر

١٧٥٩ — ١٨٠٥

ابن جراح عسكري اعتزل الخدمة ، وقد اراد في البدء ان ينصرف الى اللاهوت ، ولكن الدوق دي ورتنبورغ جعل منه طالباً في مدرسته العسكرية حيث لحقت به عاهة العرج . وحيث شك من نظام عبودية يصنع دى ويلتج عبيداً ويفرق دون حياء بين ابناء الارستقراطيين وابناء البورجوازيين الصغار — وهذا ما يفسر تمردده فيما بعد على رذائل العصر الاجتماعي والسياسية . وهناك اكتشف هومبروس ، وفرجيل ، وشكسبير ، ومعهم روسو وبولتارك وجوته الفتي ، وهناك نظم اولى قصائده ، في حمة منقطعة النظر . ثم عاد فدرس الطب ، وفي ١٧٨٠ قدم اطروحة عن علاقة طبيعة الانسان الحيوانية بطبيعته الروحية . واصبح عندئذ طبيباً في احدى فرق الجيش في ستوتجارت ، دون ان يحق له حمل شعار الضابط . وقضى سنتين كاتبا جديماً عليه ، ثم فر من فرقته ، وظل طوال شهرين يعيش حياة الشاعر المنشرد ، حتى وضع احد اصدقائه تحت تصرفه منزلاً ريفياً قضى فيه قرابة العام حراً من كل قيد . ثم عاد الى الحياة العامة ، ليعرف المجد والفشل ، والمرض والبؤس ، والحب الفاشل ايضاً . وفي هذه السنوات كتب مآسيه : « اللصوص » وهي مأساة التناقض بين المثل الأعلى والواقع ، و « مؤامرة فيسك » ، وهي مأساة الطموح الفاعل لكن المصروع ، ثم « الدسيمة والحب » ، حيث يصبح الحب البشري مأساة بفعل دسيمة الأهل ، فتضاعف المشكلة الانسانية بذلك مشكلة اجتماعية . ثم كانت « دون كارلوس » ، وهي مأساة عائلة في بيت ملكي . وهكذا ، فان سائر مؤلفات شيللر تجدد جذورها في مشكلة الحرية ، وبذلك تنسب الى الحركة العظيمة التي بدأتها مسرحية كلينغر : « العاصفة والانطلاق » .

1871

1871

1871

طان أوزيوس فون ج .. ابناً موطن يتبوأ مركزاً أعلى قدر من الأهمية في فرقة ... وكان هذا الفتى يتحلى بمواهب عظيمة نادرة أزهرت واينعت اذ سقيت بمياه ثقافة ممتازة واسعة ساعدته على الانخراط ، في سن مبكرة غير معهودة ، في سلك الخدمة العسكرية تحت راية امير مقاطعته . وكان كلا الأمير والفتى في أوار الشباب ولائله ، تسيطر عليها طبيعة نزوعة الى الاندفاع والمغامرة سرعان ما قاربت بينها كثيراً ، فأصبح ج .. محبوباً من اميره كل الحب ، عزيزاً على قلبه حتى درجة بعيدة ، بحيث لم يمض قصير وقت حتى اضحى - وهو الرافل في خلة من الذكاء والفتنة والمجون يتوجها اطلاع واسع ومعرفة عظيمة - زينة بهيمة لسائر الحلقات التي يشترك فيها ، بينما الأمير يتمتع في الوقت ذاته بما يكفي من الحس السليم كي يقدّر هذه الفضائل منه حق قدرها . وعلاوة على ذلك فقد أبدى ج .. روحاً عظيمة من المثابرة والجد والنشاط زادت في قيمتها ، الى جانب سائر ميّزاته الاخرى ، طلعة نضرة فائقة الجمال ، وقوة جبارة يانعة ، وصحة موفورة مزدهرة . وكان يتقن في سلوكه ، كل الاتقان ، التوفيق بين رفعة الروح وعزة النفس الطبيعيتين فيه ، واللّتين يخفف من حدتها شي . كثير من التواضع والبساطة ، حتى لقد سحر الأمير بمزايا رفيقة الجديد الداخلية والخارجية معاً ، فما أسرع ما ترعرت بينهما إلفة ومودة متينتان ، يغذيها تماثل السن ، وتوافق الميول ، وتشابه الاخلاق ؛ فاذا فون ج .. يرتفع سريعاً في المراتب العالية الرفيعة ، وان استمر الأمير يعتقد ، لكثرة ما كان يرى الخير في صديقه ، أن ترقيته سير ببطء شديد للغاية .

وكان ج .. في الثانية والعشرين من سنه بعد عندما صار الى مناصب سامية جداً ، يحسده عليها أكثر رجال الدولة جلالاً وقدرًا بعد ان يبلغوا غاية مطافهم . ولكن روح هذا الفتى الفاعلة لم تك تفقه معنى للسكون والراحة ، او للاكتفاء والرضى ، فراح يهب ذاته في عناد لا يعرف السكل أو الفتور لاكثر المهات والمشاغل خطورة ، هذا بينا الامير مستسلم للذاته وغارق في مبادل تسليته ومرحه .. وما أسرع ما اضحى هذا المحظي الجديد ، مع الزمن ، عظيم الفطنة والنباهة ، فائق المهارة والحدق ، فراح يستثمر مواهبه أكثر فأكثر دون انقطاع حتى غدا اخيراً امين سرّ الامير ووزيره ، ومن ثم مشيره ، بعد ان لم يك فيما مضى الا نديماً له ، وشريكاً للذاته ليس غير ... ولم ينقص وقت قصير حتى أمسى الطريق الوحيدة لنيل رضى الامير أو عطفه : لقد ملك الاشراف على سائر الرتب والوظائف ، كما اصبح حرّ التصرف في توزيع المنح والمكافئات ، على من شاء ، كيفما شاء ...

ولكنه كان ، على اية حال ، كثير الفتوة قليل التجربة ، حمله الحظ بخطي واسعة الى مناصب فائقة الرفة حتى استحال عليه استعمال سلطانه باعتدال وتحفظ . ولقد نفخ فيه ذلك الخضوع المشبع بالاجلال والتذال الذي يديه نحوه كبار نبلاء الأرض - وهم الذين يتجاوزونه جميعاً محتدأ وثروة وشهرة - رماد كبريائه وطغيانه الهاجعة ، فراحت تنزوعه قسوة في الاخلاق لم تفارقه بعد ذلك خلال سائر تقلبات دهره . والحقيقة انه لم تكن ثمة خدمة ، مهما عظم شأنها وعلا قدرها ، إلا ويجرؤ أصدقائه على التماسها منه ، أما اعداؤه فكان لهم وحشاً ضارياً لا يعرف الى الرأفة سبيلاً . ولم يكن قط بالاثراء شخصياً ، بقدر ما عني باغناء عدد من صنائعه ، الذين كان هوى خالص على عمليه اختياره لهم بالاخرى من روح العدل والانصاف . وبالرغم من كل ذلك ، فقد خلع عنه - انزمته واستبداده العظيمين ، وغطرسته في إلقاء اوامره ، وعجرفته

اللامتناهية ، وبمجموع سلوكه وسائر تصرفاته عامة - حتى اولئك المدينين له بكل شيء ، بينما انقلب خصومه ، وجميع اولئك الذين عمّر الحسد قلوبهم ضده ، الى اعداء لا يرحمون ولا يلينون البتة . كان هؤلاء القوم يكذبون المواعيد لادائهم المقبلة ، وهم يراقبون كلاً من أفعاله في غيرة وحسد ، ويرسمون الخطط على مهل في سبيل نسف عظمتهم ، وفي عدادهم نبيل ايطالي من حاشية الأمير ، يدعى الكونت جوزيف مارتينزو ، رشحه ج . . نفسه لهذا المركز ، على اعتباره صنيعة مطبوعة لا تخشى منها ضرر أو أذية . وكانت مهمة هذا الايطالي تنحصر في تأمين رغبات الأمير الذي أصبح الوزير الجديد يحده الآن باعناً على الملل ، بعد ان أمست المهام الكبرى تشغل كل وقته ، وتستعبده أكثر فأكثر يوماً بعد يوم .

كان صاحبنا على يقين تمام - وهو يرى في هذا الرجل صنيعة يديه ، يستطيع في كل لحظة أن يردّه الى تفاهته الأصلية - من اخلاصه الذي لا بد أن يتمسك به خوفاً وامتناناً معاً ؛ وهكذا ، فقد وقع في ذات الخطيئة التي ارتكبها ريشيليو عندما ترك لويس الثالث عشر لرعاية الفتى لوگران . وإذا تركها جانباً عوزه لمقدرة ريشيليو في اصلاح مثل هذه الخطيئة الكبرى ، فقد كان عليه ان يعامل عدواً أكثر مرارة بما لا يقاس من ذلك الذي لقيه الوزير الفرنسي . ذلك ان مارتينزو ، بدلاً من ان يتباهى بحظه السعيد ويفتخر ، أو يبعث في سيد نعمته الشعور بامكانه الاستغناء عن تأييده بعد الآن ، فقد سعى على العكس من ذلك تماماً لاثبات تعلقه بالحسن اليه باستمرار ، وإلى تحكيم او اصر الاتحاد به وتمتينها أكثر فأكثر . . . وفي أثناء ذلك ، لم يدع فرصة واحدة تسنح له بحكم مركزه إلا وتعلق بها كي يتجنب الى الأمير ، حتى اضحى ضرورياً له ضرورة الهواء الذي ليس عنه غناه ، بعد ان كان ذا فائدة فقط في المراحل الأولى من علاقته به . وإن توصل هكذا ،

شيئاً فشيئاً ، الى اكتشاف كل الدروب المؤدية الى ثقة الأمير وحظوته ، لم
 يتوان عن التسلط والسيادة على فكره وتوجيهه حسب رغبته ، ولم يتورع -
 في سبيل بلوغ هدفه - عن اللجوء الى سائر الفنون التي علمت الكبرياء 'والخلق'
 الرفيع 'الوزير' كيف يحتقرها ويزدرئها : لقد كان استهتاره سواء بالنسبة
 للغاية ، وبالنسبة للوسائل الموصلة اليها معاً . كان يعرف تمام المعرفة ان ليس
 من شيء يقود الى الثقة غير المتحفظة كالساهمة في الرذائل المشتركة ، فطفق
 يستخدم هذه المعرفة كي يؤثر على الأمير ، فيثير اهواء كانت هاجمة حتى
 ذلك الحين ، ويوجهها نحو اسوأ الغايات ، ويغرقه فيها أكثر فأكثر ، بضروب مختلفة
 من فنون الاغراء ، في غلو وإفراط لاحدود لهما ، دون ان يشرك احداً في
 ذلك ، او يكشف لكان من كان عن مناوراته ، حتى صار اخيراً مالِكاً
 لمعظم الأسرار واكثرها إدانة وخطورة . وعندئذ انطلق يرفع بناء مكانته
 الخاصة على اساس انحلال اخلاق الأمير ونفسخها ، لأن تلك الأسرار التي
 جعلت منه رجلاً رهيماً مكنته من السيطرة التامة على مشاعر الأمير ، قبل
 ان يخطر في بال ج . . . ان هناك خصماً له ينافسه ويحفر الأرض تحت قدميه .
 ولقد يبدو غريباً ان يغرب عن ذهن الوزير مثل هذا التبدل الهام .
 ولكن حظه العاثر شاء له ان يكن تقديراً واعتباراً عظيمين لقيمتها الخاصة ،
 حتى لا يرتاب لحظة في ان امرأاً مثل مارتينزو قد يجرؤ على منافسته ، بينما كان
 هذا الأخير شديد الحذر من ارتكاب ادنى خطيئة يمكن ان توقيظ سيد نعمته
 من أمنه واطمئنانه . وهكذا فان نفس تلك الثقة العاتية التي قادت الى انهيار
 كثيرين من السابقين له من قمة الخطوة الملكية ، كانت تهيم بسرعة دمار
 الوزير الحاضر . ولم تكن العلاقات الطيبة بين الأمير ومارتينزو تبعث فيه اي
 انزعاج أو قلق على الاطلاق ؛ كان في الواقع سعيداً بالتنازل عن نوع من
 الخطوة يحتقره ، ويزدرئه ، ولا يرضي طموحه البتة . . . فهو لم يقدر صداقة

الأمير ، إلا بمقياس ما كانت تمهد الطريق امامه نحو السلطة ، فلا عجب ان طفق الآن يرمي بعيداً عنه ، في حماقة وجنون ، ذلك السلم الذي رفعه الى بغيته وعظمته .

وما كان مارتينزو ليرضى بأن يلعب دوراً ثانوياً ، فطموحه يحمله ابداً الى الأمام قدماً . وهكذا اخذت آماله تتضاعف كلما تقدم خطوة جديدة في خطوة الأمير ، وطموحه يوزع جذوره في التربة الموانية اعمق فأعمق ، ويزداد تأصلاً وقوة يوماً بعد يوم ، بينما دور التذلل الذي يمثلته تجاه المحسن اليه يثقل عليه اكثر فأكثر بمقدار ارتفاع مكانته ونمو شهرته . أضف الى ذلك ان سلوك الوزير تجاهه ، بدلاً من ان يصير ألبق مع تقدمه في خطوة الأمير ، كان يهدف على العكس الى تذليل كبريائه بما لا يحصى من الاخطارات التي تذكره بارتباطه وتبعيته . وأمسى هذا الطغيان أخيراً يتجاوز طاقة احتمال مارتينزو ، فانطلق يكيّد بكل جرأة لخصمه ، ويقامر على تدميره بصفعة واحدة قاضية . ولقد أنجز مشروعه ، تحت ستار قائم من الخفاء لاسبيل الى النفوذ منه ، وان ظل يتردد في وضعه حين التنفيذ ، خائفاً من المغامرة بالدخول في مباراة مكشوفة مع خصمه ، مدركاً كل الادراك ان اشراق خطوة الأمير اذا اقترب من خاتمته ، فان اقل الظروف شأناً قد ترده الى ما كان عليه من التألق واللمعان ، مادام الأمير يضمّر اعظم الاحترام لرجحان عقله وحسن رأيه ونصائحه ، وما دام الوزير لا يقل اليوم سلطاناً وقوة منه حين كان يتمتع بمعزة الأمير له كصديق ورفيق ، هذه المعزة التي تلاشت الآن ولم يبق منها إلا آثارها فقط .

كان الايطالي يدرك كل ذلك ، ويدرك ايضاً ان الضربة التي ينوي إنزالها بمنافسه يجب ان تتمكّل بالنجاح ، والا ارتدت عليه وكانت قاضية له ، بحيث بقيت الوسائل التي بلغ بها غرضه سرية لا يدري بها إلا القلائل من

الذين تعاونوا معه على تحقيق مشروعه . وهكذا انطلق يروي للأمير انه اكتشف اتصالات مشبوهة يقوم بها الوزير مع بلاط مجاور ، ولكنه لا يستطيع ان يؤكد فيما اذا كانت عروضة قد نالت الموافقة ، أو قوبلت بالرفض . ورأى الأمير ان ج . . لمن أكثر الناس خيانة وعقوقاً وغدراً ، وان جنوحاته ثابتة أكيدة لا تنتظر الا العقاب الصارم الذي تم الاتفاق عليه خفية بين المحظي الجديد وسيده . ولم يشعر ج . . اثناء ذلك ابدأ بتجمع العاصفة واقترابها ، بل استمر مقتدراً في طمأنينته القاتلة حتى اللحظة الأخيرة المفجعة التي ألقت به من علياء امجاده الأميرية الى هاوية الكراهية والازدراء ، وحضيض المذمة والاحتقار .

وفي اليوم المقرر ظهر ج . . في قاعة الاحتفالات كالعادة . انه لم يكن ، قبل عدة سنوات ، الاجندياً بسيطاً ، اما الآن فهو ضابط رفيع الرتبة ، لا بل ان رتبته العسكرية هذه لم تكن في واقع الأمر إلا ستاراً يمارس سلطته السياسية التي تضعه حالياً فوق سائر المتقدمين في البلاد . وكانت قاعة الاحتفالات أشبه بالمنصة التي يشرف منها على مواطنيه ، فهو ههنا يحكم بكبرياء الوالي والراعي معاً ، وهو ههنا يتلقى ولاء صناعته المتدلل الخاضع ، فيكافئ نفسه بذلك على اتعاب النهار وجهده . وكان اتباعه الرئيسيون ، وجميعهم من النبلاء وذوي المراتب الرفيعة ، يتأصصون حوله متلهفين على تقديم الخضوع له ، قلقين مع ذلك من اجل كيفية الاستقبال الذي سيلقاهم به . وكان الأمير نفسه ، إذ يمر من هناك ، يتطلع الى وزيره الاول بعين عطوفة ، في نظرتها شيء من الازعان ايضاً : كان يدرك تماماً ما سينجم عن الاستغناء عن خدمات مثل هذا الانسان من خطر بايخ يفوق ، من دون ادنى ريب ، خطر الاستغناء عن صداقة خصمه . ولقد وقع الاختيار على هذه البقعة بالذات ، حيث كانت ضروب الولاء والعبادة تقدم

الى الوزير فكأنه إله في عليماء سمائه ، اميجري فيها مشهد خزيه وعاره المفجعين .
وما لبث الأمير ان لحق بالايطالي ، وأعطاه الاذن بالشروع في العمل ،
فبينما ج . . يتنقل غير آبه بين اصدقائه الذين يرفعون اليه ، وهم مثله
لا يرتابون لحظة واحدة فيما ينتظره ، ضروب اجلالهم واحترامهم ،
وينتظرون اوامره ورغباته ، اذ يمارتيزنرو يبدو - بغتة - وبرفقته بعض
ضباط الجيش ... انه لم يعد ذلك المستعطف الضعيف ، المتذلل ، المبتسم ابداً ،
بل إن غطرسة ووقاحة العيد الذي رُفع على حين غرة الى مصاف الاسياد
كانتا باديتين في مشيته المتعجرفة ، وعينه المتقدمة الشرسة . سار باستقامة نحو
وزير الأمير ، ووقف امامه وجهاً لوجه ، دون ان يخلع قبعته ، بضع لحظات ،
صامتاً لا ينبس ببنت شفة ، ومن ثم طلب منه سيفه باسم الأمير ، فأعطي له
هذا السيف في شيء كثير من الانفعال والخوف . وعندئذ دفع بذؤابه العارية
في الارض ، ثم حطمه بقدمه شظايا متطايرة تبعثرت عند قدمي ج . .
ولدى ذلك ، امسك الضابطان بهذا الأخير ، واسرع احدهما يرفع عن
صدره وسام الصليب ، والآخر يقتلع اشرطة الكتفين ، وحلية الثياب ،
وحتى الأرياش عن قبعته . ولم تستغرق هذه العملية الوحشية المذلة اكثر
من برهة وجيزة للغاية ، لم يرتفع اثناءها اي صوت بالاستنكار او الاحتجاج ،
بل كان صمت مطبق يخيم على الحشد العظيم بأسره . كان مئات النبلاء
الحاضرين يقفون دون حراك ، وقد شجبت وجناتهم ، وخفقت قلوبهم ،
 واجتاحت وجوههم سماء الدهشة الالهية ، اللهم إلا ج . . نفسه الذي
احتفظ ، طوال هذه المحنة الشديدة ، برصانته وجلده وثباته .

وأخيراً ، سيق بين عديد صفوف المتفرجين حتى خارج القاعة ، حيث
كان في انتظاره عربية مغطاة دُعي الى ركوبها ، بينما التف حول العربية
كوكبة من الفرسان لحراستها . وفي اثناء ذلك ، انتشر الخبر في كل حذب

وصوب ، فاذا النوافذ تفتح على مصاريحها ، والشوارع تغصّ وتموج
بجهاير الفضوليين الذين راخوا يلاحقون العرب ، وهم يطلقون صيحات
الظفر والاحتقار والنقمة ، فتتردد اصداؤها في كل جهة حتى مسافات
شاسعة .

ونجا أخيراً من الضوضاء المرعبة ، ليستقبل محنة أشدّ هلعاً ايضاً ،
فقد انعطفت العرب عن الطريق الرئيسية الى درب ضيقة جانبية غير
مطروقة ، وذهبت في اتجاه ساحة الاعداء ، ومن ثم في طريق عامة ...
وهكذا قضى سبع ساعات من البؤس واللوعة ، عرضة لحرارة الصيف
اللافحة ، جاهلاً اسباب هذه المعاملة القاسية ، محروماً من كل عون او عزاء ،
قبل ان يبلغ وجهته . كان المساء قد تقدم كثيراً عندما توقفت العرب ، فانتزع
ج . . عن مقعده انتزاعاً ، فأقد الوعي ، وقد رضخت قوته العظيمة في
النهاية لاثنتي عشرة ساعة من الركوب . وعندما استردّ وعيه ، وجد نفسه
جديساً في سرداب تحت الأرض ، يضيئه ولا يضيئه القمر المشرق الذي
تتسرب شعاعانه عبر ثغرات قليلة محفورة في اعالي الجدار ، ووجد قريباً منه
قطعة من الخبز الجاف القاسي ، وانا من الماء ، وكومة من القش ليرقد
عليها . واستمرت الحال هكذا ، دون اي صدى دخيل ، حتى ظهر اليوم
التالي ، عندما صافحت سمعه ضوضاء انفتاح احدى النوافذ الحديدية في
مركز البرج ، وتراءت لباصريته يدان تديان اليه سلة شبيهة ، في كل
شيء ، بتلك التي كانت تحوي طعام البارحة . وأحس للمرة الاولى منذ
اعتقاله ميلاً للاستفهام عن الدافع الى هذا الاعتقال ، وعن مصيره في المستقبل
أيضاً . ولكنه لم يلق من فوق اي جواب على سؤاله مطلقاً ، بل اختفت
اليدان ، وأرتج المصراع بكل بساطة . وهكذا عاش دون ان يصافح نظره
وجهاً انسانياً ، او يبلغ سمعه صوت بشري ، ودونما بصيص نور يضيء

مصيره القاتم ، جاهلاً المستقبل والماضي معاً كل الجهالة ، محروماً من دفء الشمس ومن برودة الهواء ، طوال اربعمائة وتسعين يوماً طافحة عذاباً ، تحفظ فيه شعلة الحياة علاوة ضئيلة من الخبز اليابس ليس غير . وكان لابد له ان يشرب كأسه حتى الثمالة ، إذ وقع يوماً على اكتشاف زادي في رؤسه وضاعف من شقائه ... لقد عرف محبسه ، فهو الذي امر ببنائه منذ عهد قريب في عاصفة من الغضب على ضابط فاضل ، شاء له سوء طالعاه ان يسخط عليه وينقم ، لا بل كان هو من اقترح ايضاً الطريقة التي ستجعل هذا السجن اكثر هولاً ورعباً ايضاً . وما زاد الثمالة مرارة وعلقماً أن ذلك الضابط نفسه ، الذي كان مقدراً له ان يفنى ويتلاشى في ذلك الحبس ، قد خلف رئيس القلعة المتوفي حديثاً ، فأصبح بذلك ، بفضل نوع من العدالة المنتقمة ، سيد مصير عدوه السابق الذي 'حرم بذلك حتى العزاء الأخير ، عزاء الرثاء لنفسه والاشفاق عليها ، هذا العزاء الذي يعرف حق المعرفة انه غير جدير به أو أهل له ، مما يشير فيه الشعور بأنه مثار للقرف ومدعاة لاحتقار الذات - وهو أشد ما في الحياة مرارة على الاطلاق - تابع لنبل انسان لم يُبدل هو تجاهة ذرة من النبل قط .

ومن حسن حظ ان كان سجانه رجلاً نبيل الشعور ، أبت عليه كرامته ان يلجأ الى انتقام ضيع من عدوه ، لا بل انه أسف عظيم الأسف لذلك الدور الذي 'عهد اليه بتنفيذه ، إن لم يجد له مبرراً على أية حال ، وهو الجندي القديم والتابع المخلص ، في الابتعاد عن القوانين المتبعة ، ولم يجزؤ على الانحراف عن التعليمات المعطاة له ... ولقد اشفق عليه ، على اية حال ، فعهد به الى احد مساعديه ، وهو واعظ السجن الخنون الذي قرّر ، اذ تأكد من انعدام كل إدانة ضد حبسه ، اللهم الا مجرد الاشاعات ، ان يخفف من آلامه ما استطاع الى ذلك سبيلاً . ولقد اعتقد هذا الرجل الممتاز - الذي افضّل ان

احذف اسمه ههنا - انه يتمم واجبه الديني على أكمل وجه اذا ما خلع
مساعده الروحانية ومؤساته على كائن محروم من اي أمل في
الرحمة والرافة ، وساعده على الخلاص من محنته القاسية .

ولما لم يستطع ان يقال السماح له برؤية السجين من رئيس القلعة نفسها ،
فقد غدا الى العاصمة كي يلتئم موافقة الأمير نفسه على ذلك ، وخرّ جاثياً
على ركبتيه امامه ، مسترحماً بعض التخفيف من عذابات ذلك الرجل البائس .
ولقد اصرّ ، باسم دعوته الدينية ، على السماح له بزيارته متى اراد ، باعتباره
تائباً هو مسؤول عن روحه في الدرجة الأولى . ولقد جعله موضوعه بليغاً
في التماسه ، فما اسرع ما اثر في الأمير الذي رفض طلبه بادى الأمر . ولقد
رجح أخيراً ، لكثرة ما بذل من الجهد ، الاذن بزيارة الأمير الشقي في كل
وقت ، وتأمين كل حاجياته الروحانية له .

وهكذا كان أول وجه انساني يطالع ج .. بعد قرابة ستة عشر شهراً
من اساره ، هو وجه هذا المحسن الجديد اليه . ولقد كان بليغاً في امتنانه
وعرفانه بالجميل لذلك الصديق الوحيد الذي بقي له في العالم بأسره ... ان كل
رفاهيته وعظمته السابقتين لم تربيا له صديقاً واحداً فقط ، اما القسيس فقد
امقلا قلبه فرحاً ودهشة اذ دلف الى تلك الزنانة الرهيبة ، تبحث عيناه
عن الكائن الانساني الملقى فيها ، فلا تصافحان الا هيكلًا عظيمًا ابيض اللون ،
وحشي الصورة ، يزحف في اتجاهه زحفاً ، بطيئاً متهاكاً ، وقد أشبه
مضجعه عرين وحش مفترس بالأخرى من مأوى انسان حقيقي . وكان
يبدو ان سائر امارات الحياة قد غاضت من ملامحه التي حفر اليأس والحزن
فيها الخديد عميقة ، وقد نمت لحية وطالت اظافره حتى درجة مرعبة ، وتهدلت
ثيابه عليه اسماً بالية وخروفاً مهترئة ، اما الهواء الذي يتنفسه فكان ملوثاً
فاسداً لنقص الماء وكل وسائل النظافة الأخرى . وما اسرع ما عاد القسيس

ادراجه ، وقد تملكه ما يشبه الرعب امام الحالة الرهيبة التي وجد الأسير عليها ، وحث الخطى الى مدير القلعة يلتمس منه تخفيفاً جديداً لآلام ذلك الشقي المسكين ، مادام يخشى بدون ذلك ان يكون التنازل الأول عديم الفائدة . ولما كان مطلبه يعارض مع التعليمات الدقيقة الواردة في رسالة الحاكم ، فقد قرّر هذا الراعي الطيب القلب ان يسافر الى العاصمة مرة اخرى ، املاً في الحصول على امتيازات جديدة من الأمير نفسه . وهناك أعلن انه لا يستطيع ان يناول الأسرار المقدسة الى بائس يكاد يتجرد عن كل شبه بالكائن الانساني ، دون ان يدنس الصفة المقدسة لتلك الأسرار . وقد نال مطلبه في النهاية ، فأصبح مصير الأسير منذ ذلك الحين افضل كثيراً مما كان عليه سابقاً .

وعلى اية حال ، فقد ظل ج . . يتفسخ في الاسار عدة سنوات اخرى ، وان امست محنته اقل عذاباً وأخف وطأة مما قاساه قبلاً في المراحل الاولى من اعتقاله ، وخاصة بعد ان انقضت المدة القصيرة التي استلم فيها مارتينزرو مقاليد الحكم ، وخلفه آخرون كانوا إما اكثر انسانية منه ، او برئين من كل دافع الى الانتقام والتشني . ومع ذلك ، فقد مرت عشر سنوات دون اي تنقيب قضائي او اية تبرئة صورية ، حتى اطلق سراحه أخيراً بعد ذلك الزمن الطويل ، وقدمت له حريته على انها هبة اميرية ، وطلب منه في الوقت ذاته ان ينفي نفسه من وطنه الامم . وهنا تبدأ المعلومات المروية بالنقصان والقصور ، بحيث أجدي مضطراً الى غض النظر عن مرحلة متوسطة تبلغ عشرين سنة تقريباً ، انخرط اثناءها من جديد في السلك العسكري ، في خدمة بلاد غربية ، حتى بلغ بحذقه ومثابرته الى نفس المراتب العليا التي توصل اليها قبلاً في بلاده . ولقد فعل الزمن فعله ايضاً ، فانقضت بالنسبة للأمير أيام اللذة والهوى ، واستردت العاطفة الانسانية سلطانها عليه شيئاً فشيئاً ، حتى إذا شاب شعره ، واخذ يرتعش

عند شفا رمسه ، تراهى له صديق شبابه ، وطفقت صورته تهكر صفو راحته
وهناؤه باستمرار . وفي الختام ، دعا الرجل المنفى لزيارة وطنه عساه يصلح ما
استطاع الاساءات التي ألحقها به . ولقد كان ج . . يلهف بالطبع منذ زمن
طويل الى العودة ، ولكن اللقاء كان شاقاً لكليهما ، وإن كان عاطفياً وحاراً في
ظاهر الأمر . ولقد راح الأمير يحدّ النظر في لهفة ، فكأنه يحاول ان يتذكر
تلك الملاح المألوفة لديه كل الالفة ، والغريبة عنه مع ذلك كل الغرابة . وبدأ
كأنه يتذكر تلك الغضون العميقة التي حفرها ، هو نفسه ، في هذه السياه ،
ولكنه لم يستطع ان يتعرف في اي من تقاطيع ذلك الوجه المسن ، المتعب كدأ
وعذاباً ، الى اي من ملاح رفيق صباه وصديق فتوته . وكان الترحاب
ونظرات الثقة المتبادلة مصطنعة من كلا الجانبين . . . فالحياة المشتركة ، والخوف
ايضاً ، قد فصلهما الى الأبد ، وأقاما بينهما هوة يصعب اجتيازها . إن نظرة
وحيدة حملت الى نفس الأمير ادراكاً تاماً بذنبه ، فآلمته وآذته ، اما ج . . .
فأحس انه لا يستطيع بعد اليوم ان يضمير اي ودّ او محبة لذلك الذي صنع
بؤسه وشقاءه .

وسعى الأمير الى التكفير عن ذنوبه ، واكتساب الراحة لضميره ، فردّ
على ضحيته كل المجد والسلطان الذين كان يتمتع بهما سابقاً ، ولكنه لم ينجح قط
في استرداد ذلك الاخلاص وتلك المحبة اللذين كانا يميزان صداقتها القديمة .
ولقد أحزنته فشله للغاية ، حتى وجد قلبه موثقاً في وجه جميع مباهج الحياة ،
الأمر الذي القي ظل الشقاء على آخر ايام حياته .

أما ج . . فتابع حياته المضطربة طوال تسعة عشر أخرى من الأعوام ،
دون ان يخمد الزمن او القدر نار هواه ، او يطفئ لهيب عاطفته ، او يبهما
حيوية خلقه . ولقد ظل ، حتى حين بلغ السبعين من سنه ، يلاحق شبحاً من
السعادة لم يملكه حقاً الا عندما كان في العشرين من عمره فقط . ومات وهو

مدير قلعة يُسجن فيها المجرمون السياميون ، كان الجميع ينتظرون منه ان يعامل
البائسين الحبيسين فيها إنسانية حققة ، ولكنه كان يعاملهم ، على العكس من
ذلك ، بقسوة عظيمة ومزاج سيئ للغاية . وان هو تذكر تعاساته القديمة يوم
كان سجيناً ، فإنه لم يشر الى ذلك ابداً ، لا بالقول ولا بالفعل ، حتى تهاوى في
احدى الزوبات القلبية التي صار عرضة لها أكثر فأكثر يوماً بعد يوم ، فلم
يسترد وعيه منها ، بل مات اخيراً ضحية الاهواء التي دمرت خلقه ، كما
حطمت مجده ...

سندريلا

الأخوان جريم



(٧٨)

٧٣

الأخوان جريم

سندريللا

الأخوان جريم

كثير ما كانت تقرأ في عام ١٧٨٥ وتوفي عام ١٨٠٥ : أما الأخوان
ولم ، فقد عاش بين سنتي ١٧٨٥ - ١٨٠٥ ، وكلاهما وهران بلوزان من
وجود القديسة الرومانية الجديدة في الأدب الألمان إلى ثلاث بعد أن
القديسة توت توتليس ، ومعارضة شغل لألمانيا
التي كانت تسمى : « رومانيا » ، والواقع أن الجبل الجديد لا وقت
معرفة بل من الصبي ، بل طاعت رومانية أهل فرنسا ، وأهل أعاد
هو التماثل الرواسي ، « رومانيا » ، وما يسمى « رومانيا »
القديسة من توتليس ، « تولد كان بين الأخوان جريم توتليس حيث
التعاون يساهم في الترجمة القصوى ، وهكذا جماع الأقسام التي
القديسة في لبنان ، وقد عاينا إلى القراء في ساطعها وسداسها ولكنها القديسة
القديسة ، ثم بعد ذلك هو ترجم الأقسام والقديسة ، وكتب عام
١٨٢٩ : « أسطورة الخرمين القديسة » ، أما جاكوب فأتبع « القديسة »
الألمانية : (١٨٣٥) ، ثم « تولد القديسة الألمانية » ، « رومانيا »
الألمانية : (١٨٤٥)

والقديسة الألمانية : « سندريللا » ، « أهل لاجل من كان لا في كل شعوب
من القديسة الألمانية ، هي من أقدم القديسة القديسة المروية بين الألمان ، كما
أنها تسمى روح كل ذات الجبل الجديد من الكتيبة الرومانية التي التي أنها
أهل ذكره ، « تولد جملها الأخوان جريم توتليس القديسة في سائر أوجه
العلم ، « سندريللا » على الورق ، « وأرسلها إلى القديسة القديسة في كل مكان

کلیں

۱۲

(٧٨)

٧٣

الأخوان جريم

كبيرهما جاكوب ، ولد عام ١٧٨٥ وتوفي عام ١٨٦٣ ؛ اما الآخر ، ولهم ، فقد عاش بين سنتي ١٧٨٦ - ١٨٥٩ ، وكلاهما وجهان بارزان من وجوه المدرسة الرومانطيقية الجديدة في الأدب الألماني التي نشأت بعد ان تفسخت المدرسة الرومانطيقية القديمة بموت نوفاليس ، ومفادرة شليغل لألمانيا الى باريس ، وكذلك تيبك وشليغل آخر . والواقع ان الجيل الجديد لا يؤلف مدرسة بل معنى الصحيح ، بل جماعات رومانطيقية اقل تماسكاً ، واقل انجهاً نحو التأملات الواسعة ، واكثر ميلاً نحو اللاعقلي ، وما يسمونه « بالناحية المظلمة من النفس » . ولقد كان بين الأخوين جريم فروق عديدة جعلت التعاون بينها خصباً للدرجة القصوى ، وهكذا جمعا كل الأفاصيص الشعبية المنتشرة في ألمانيا ، وقدموها الى القراء في بساطتها وسذاجتها ونكهتها الشعبية اللذيذة . ثم اتجه ولهم نحو ترجمة الاغاني والأفاصيص الدانمركية ، وكتب عام ١٨٢٩ « اسطورة الجرمانين البطوية » . أما جاكوب فأنتج « الميثولوجيا الألمانية » (١٨٣٥) ، ثم « قواعد اللغة الألمانية » و « تاريخ اللغة الألمانية » (١٨٤٨) .

والقصة التالية « سندريلا » أهل لاحتلال مكان لائق في كل مجموعة من القصص الألمانية ، فهي من اقدم القصص الشعبية المروية بين الألمان ، كما انها تمثل روح كل ذلك الجيل الجديد من الكتاب الرومانطيكين الذي أتبنا على ذكره آنفاً . ولقد جعلها الاخوان جريم ذائعة الصيت في سائر ارجاء العالم ، عندما سبلاها على الورق ، وارسلها بين ايدي الناس في كل مكان .

في ذلك الزمان ، كان رجل عظيم الثراء توفيت زوجته فخاضت له طفلة
صغيرة السن ، غضة الالهاب ، فائقة الوداعة . وبعد مضي عدة سنوات على
ترملها ، اراد ان يمنحها حذب الأم وحنانها ، فزوج من جديد ، ولكن
زوجته هذه المرة كانت أرملة في حاشيتها ابنتان بالغتان . ولقد كانت هذه
الزوجة الجديدة متكبرة وحسودة ، إلا ان الابنتين كانتا تفوقانها شراً
ورذيلة ، فتمكنا لابتامع والدتهما على تعكير صفو حياة الفتاة الصغيرة ، وتحويلها الى جحيم
من شقاء عظيم ، وتعاسة كبيرة ، وبؤس دائم . وكانت الاختتان تغاران من
شقيقتيهما الصغيرة اشد الغيرة ، فهي تتجلى بحمال فائق يهر الا نظار ، بينما القبح
والدامامة ميزتهما البارزة ، فراحتا تبدلان كل ما في وسعهما لتنعصا عليها الحياة
حتى امسى الوجود بالنسبة اليها مع الزمن - بتأثير غيرتها وحسد هما المتواصلين -
عبئاً ثقيلاً ، وجحيماً لا يطاق . وهكذا دُفع بالفتاة المسكينة الى المطبخ
تقضي أيامها في إنجاز اشق الاعمال وأوسخها . ولما كانت ترتدي دوماً الأسمال
المهترئة ، وتقععد الى جانب النار المتأرئة في الموقف فتمنعكس عليها حمى اللهب
المتوهجة ، فقد اطلقوا عليها لقب سندريللا ، اي الجمرة .
وكان لملك تلك البلاد فتى وحيد بلغ سن الزواج ، فأراد أبوه ان يجد له
عروساً لا تفتة . ولذلك ، فقد أحيا حفلة كبيرة دعا اليها سائر سيدات البلاد
وأوانسها دون تفريق . وانتشر الخبر في كل حذب وصوب ان هذه الحفلة
ستكون رائعة للغاية ، فتدوم طوال ثلاث ليالٍ دون انقطاع ، الأمر الذي

انار في الناس شوقاً لاهباً لحضورها ، وبصورة خاصة عندما عرفوا ان الأمير
القي سيختار عروسه من بين السيدات الحاضرات .

وقد تلقت أختا سندريللا دعوة الى تلك الحفلة العظيمة ، مثلها في ذلك
مثل بقية قريناتهما . ومنذ تلك اللحظة أصبح محور حديثهما الوحيد الثياب التي
سترديانها ، والزينة التي ستتحليان بها . لقد كانت كلّ منهما تأمل في سرّها ان
يختارها الأمير شريكة لحياته ...

وعندما جاء اليوم المنشود أخيراً ، هرعنا الى ارتداء ثيابهما بعد طعام
الافطار مباشرة . وقامت سندريللا بمساعدتها ، فقضت طوال النهار تصفف
لها شعرها ، وتقضي طلباتها ، وترتب هندامها دون تذمر او احتجاج . ولكم
ودّت ، اذ شاهدت ثيابها الجميلة ، ان تصحبها الى الحفلة ، حتى اذا سألتها في
حياء وخجل شديدن إن كانت تستطيع ذلك ، قوبلت بسخرية لاذعة منها ،
إذ أجابها ضاحكتين :

- انت تذهبين الى الحفلة ؟ وماذا تريدن ان تفعلي هناك بثيابك البالية ،
ووجهك القذر المتسخ على هذه الصورة الفظيعة ؟ لا ، لا ياسندريللا ! عودي
الى مقعدك بين الرماد ، فهو المكان اللائق لفتاة مطبخ صغيرة مثلك !
وهكذا غدت الشقيقتان وأمهاتهما في عربة فاخرة الى قصر الملك ، وخلفن
سندريللا وراءهن وحيدة بائسة ... جلست الصغيرة على الأرض امام نار
المطبخ ، واخذت تبكي بهدوء بينها وبين نفسها . انها تحسّ الوحدة والتماسة
بصورة تفوق طاقة احتمالها وتتجاوزها .

وبينما هي قابعة في الظلمة بين الرماد ، ونور اللهب يتراقص امامها ، ووجعها
مدفون بين راحتها ، سمعت صوتاً يهتف بها : « سندريللا ، سندريللا ! » .
فتطلعت مرتاعة لترى من يكون المنادي ... فشاهدت امرأة مسنة تقف قبالتها ،
وهي تنكي . على عصا فارعة . كانت العجوز ترتدي معطفاً طويلاً احمر اللون ،

وحذاء عالي الكعبين ، وقبعة سوداء مرتفعة . ولم تستطع سندريللا ان تفهم من أين جاءت هذه المرأة ، وكيف دخلت ... فهي لم تعبر من الباب بكل تأكيد ، ولا من القافذة ايضاً ، ما دام كلاهما مغلقين .
لقد بلغت الدهشة بسندريللا حداً عظيماً لدى رؤيتها هذه المرأة ، حتى توقفت عن البكاء ، وراحت ترقبها في حيرة وارتباك .

وسألت المرأة العجوز :

— لماذا تبكين ، يا صغيرتي ؟

— لأن والدتي وشقيقي ذهبن الى الحفلة ، وخلفني هنا وحيدة .

فقالت العجوز :

— هل تريدان ان تذهبي الى الحفلة ايضاً ؟

فردت الصغيرة متأوهة :

— بلى ، ولكن لا فائدة من ذلك ! انني لا املك لباساً سوى هذه الاشمال

البالية المرقعة .

فأجابت العجوز :

— حسناً ، حسناً ! كوني فتاة طيبة ولا تبكي . . انا هي جنيّتك ، إذا ما

فعلت ما أطلبه منك فلهلك تذهبن اذن بالرغم من كل شيء . اسرعي الى الحديقة

وجيئي بي قطينة من هناك !

وانطلقت سندريللا تعدو الى الحديقة ، وعادت بأكثر قطينة وجدت

هناك . فقالت الجنية :

— والآن ، أحضري مصيدة الفيران من القبو .

فأسرعت الفتاة تنفذ الطلب . . .

كان في المصيدة ست فيران ، أسرجتها الجنية الى القطينة ، ووضعت

جرذاً كبيراً في المقدمة ليقودها ، وحرباوين في الخلف ، حتى اذا تم لها ذلك

رفعت عصاها السحرية العقيدة فوقها ، فاذا باليعطينة تنقلب على الفور الى
عربة فاخرة مسقوفة ، والفيران الى سعة من الجياد الاصيلة ، والجرد الى
سائق ضخم ، والحرباوان الى خادمين طويلين شعرهما مصفف ولباسهما من
الحزير الخالص .

وقالت الجنية :

— انظري ، هذه هي العربة التي ستحملك الى الحفلة .

فأجابت الفتاة :

— وأأسفاه ! كيف لي ان اذهب الى الحفلة ؟ اني لا أملك لباساً

سوى هذا !

ولست ثوبها الممزق ، فردت الجنية :

— أهذا كل شيء ؟

ومرة اخرى رفعت عصاها السحرية العقدة ، فاستجالت أسمال الفتاة
المهترئة الى اجمل ثوب في العالم ، ثوب يشع بخيوط من الذهب والفضة ، ويتضوأ
بالاحجار الكريمة الرائعة . ولقد توج رأس الجرة كذلك بطوق من اللؤلؤ ،
بينما كسيت قدميها بمخاضين لم يُرَ قط اكثر منها بهجة واناقة وجمالاً ولطفاً .

وقالت العيجوز :

— تقدرين الآن ان تذهبي الى الحفلة ، ولكن تذكرني ان الرجوع واجب

عليك قبل ان تضرب الساعة دقاتها الاثنتي عشرة . فاذا توانيت عن هذا
الوقت ، تلاشي كل هذا البهاء واضمحلت ، وارتدت ثيابك الى ما كانت عليه
من اسمال بالية مرقعة ...

ووعدت سندريلا بأن تكون عند اوامر الجنية ، ثم استقلت العربة
الجميلة التي أغلق الخادام بابها ، في حين ألهب الحوذي بسوطه ظهور الجياد ،
فانطلقت خبيباً نحو القصر .

و حين وصاتته اجتاحت الدهشة سائر الحاضرين . ان احداً لم يرقط
وجهاً بمثل هذا الجمال ، أو ثوباً بمثل هذه النفاسة والروعة ، بحيث
ساد الاعتقاد بأنها ، من دون ادنى ريب ، أميرة قدمت من بلاد اجنبية .
وتفقه سائر اهل البلاط والمدعوين ليفسحوا لها الطريق . ولم يك
الأمير يشاهدها حتى وقع في حبها من النظرة الأولى ، وراح يراقصها طوال
المساء . ولم يراود الشك احداً من القوم في ان اختياره قد وقع عليها لتكون
عروساً له ...

وفي تمام الثانية عشرة إلا ربعا ، تذكرت سندريلا نصيحة جدتها الجنية ،
فودعت الأمير وقفلت راجعة الى الدار التي بلغت والساعة تضرب دقاتها
الاثنتي عشرة تماماً . وعندئذ ، في مثل لمح البصر ، انقلب السائق والخدم الى
جرذ وفئران ، والعربة الى يقطينه .. وحين عادت الأختان بعد قليل ،
وجدتا سندريلا مرتدية اسمائها البالية العتيقة ، وجالسة في مكانها المعتاد
بين الرماد ...

كانت الأختان القبيحتان تغليان غيظاً ، ونفوران نقمة على تلك الأميرة
التي أتت الحفلة على غير انتظار ... ولم تنيا عن الحديث عنها طوال اليوم
الثاني ، دون ان يخطر لها لحظة ان تلك السيدة الجميلة إن هي الا أختها المحترمة
سندريلا ...

وفي العشية ، بعد مغادرتهن الدار الى الحفلة ثانية ، عاودت الجنية الظهور .
ومرة ثانية انطلقت سندريلا الى القصر في عربتها التي تجرها سنة من الجياد
المطهمة ، وهي ترتدي ثوباً أكثر روعة وجمالاً منه في الليلة السابقة . ومرة
ثانية راقصها الأمير طوال السهرة دون انقطاع .

وحدث في ثالث ليلة ان غبطة سندريلا كانت فائقة جداً ، بحيث انستها

تماماً تحذير الجنية لها ، حتى طرقت سمعها فجأة ضربات الساعة معلنة منتصف الليل . وعندئذ تذكرت ان ثيابها الجميلة ستقلب مجدداً الى أسمال مهترئة منذ اللحظة التي تدق الساعة فيها دقتها الأخيرة ... فقفرت مرعاة خائفة ، ثم انطلقت تركض ساعية وراء الهرب ، فاندفع الأمير خلفها يحاول اللحاق بها وإمسكها . ولكن سندريللا ، في ذعرها ، كانت تعدو بسرعة فائقة بحيث خلفت وراءها احد خفيها الزجاجيين الذي سقط من قدمها الصغيرة ، فتوقف الأمير لينقطه ، تاركاً لها بذلك فرصة الهرب . وبينما هي تقطع ساحة القصر ، ضربت الساعة دقتها الأخيرة ، فتلاشى بغية كل بهاء ثيابها ، وعادت الأسمال تغطي جسدها مرة ثانية ... لقد أفلتت في الوقت المناسب ! ...

وعندما بلغ الأمير سلم القصر لم يجد للأميرة اثرأ . وروى له حراس القصر ان احداً لم يمر بهم ، إلا فتاة مطبخ صغيرة بائسة ... وعاد الأمير الى الحفلة معدماً إلا من خفّ زجاجي صغير يذكره بالفتاة الجميلة التي كان حبها يطفئ عليه حتى درجة الجنون .

وارسل الملك ، في اليوم التالي ، المنادين بمرسوم يعلن ان الأمير سيتزوج من السيدة التي يناسب الخفّ قدمها . وبالرغم من ان جميع نساء تلك البلاد جربن الخف ، إلا انه لم يناسب قدم اي منهن ابداً . كانت أقدامهن جميعاً أكبر منه .

وجاء المنادون أخيراً منزل سندريللا ، فحاولت الأخت الكبرى اولاً احتذاء الخف .. لكن ذلك استحال عليها لأن أبهامها كان كبيراً جداً ، وعندئذ أنها أمها ، التي كانت ترقب المشهد في لهفة وقلق عظيمين ، بسكين كبيرة وقالت لها :

— اسرعي واقطعي أبهامك ، فإذا يهيك اذا أصبحت عرجاء ، ما دمت

ستصيرين عروس الأمير ، فلا تتنقلين الا في عربات فاخرة ؟

وهكذا قطعت الأمخت الكبرى أهبامها الكبير ، ولكن عبثاً فعلت ، فالحف
يأبى ان يحتويو القدم الضخمة . ووجدت نفسها أخيراً مضطرة لافساح المجال
لأختها الثانية التي لم يك حظها بأفضل من حظ تلك على الاطلاق . ولقد
نجحت حقاً في وضع اصابعها داخل الحف ، ولكن قدمها كانت طويلة بحيث
ظل عقبها بارزاً خارج الحذاء ، فدفعها والدتها الى اجتنائه وهي تقول :
- ما الضرر من ذلك ما دمت ستصبحين عروس الأمير ، فلا تعودين
تسيرين على قدميك مطلقاً ؟

ولكن الحف ظل بالرغم من اقتطاعها جزءاً من عقبها صغيراً لا يتسع
لقدمها .. فاضطرت أخيراً للكف عن محاولة احتذائه ...

وعندئذ تقدمت سندريللا في خيما من وراء الباب ، حيث كانت تختفي
عن الابصار ، وسألت إن كان بإمكانها تجريب الحف ، فأغضب سؤالها
هذا خالتها وأختها اللواتي هممن بطردها ورحن يصفقنها لو لم يتدخل رسول
الأمير قائلاً :

- ان الادارة السامية تنص على ان تجرب الحف كل امرأة في هذه البلاد
دون تفريق .

وبعد ان طلب الى سندريللا الجلوس ، ركع على ركبتيه ، وحاول إدخال
قدمها الصغيرة في الحف الدقيق ، فاذا به يلائمها تماماً . وبينما سائر الحاضرين
يشخصون بدهشة وعجب وحيرة ، اخرجت سندريللا من جيبتها الحف الآخر
واحتذته ... وما كادت تفعل ذلك حتى تبدلت خروقتها المعزقة الى ثوب
الحفلة الجميل مرة اخرى ، فاذا تلك السيدة الرائعة الحسن ، التي وقع الأمير
في غرامها اثناء الحفلة ، تنتصب بجملها الفاتن وزينتها التي تنهر الانظار ...

وكان فرح الأمير يفوق التصور للقيامها ، فزوج منها بأبهة عظيمة
وسرور كبير ...
اما الاختان الحاتنات فقد مملكتهما الحسرة من شدة الحسد والغيرة . وكانتا
تزدادان ، على مرّ الايام ، بشاعة وقبحاً ، حتى بلغتا اخيراً درجة خيفة من
الدمامة تمنع المرء عن التطلع اليهما طويلاً ؛ بينما سندر يللا تزداد ، يوماً بعد
يوم ، جمالاً وروعة وبهاء ...
واقعد عاشت ، بعد ذلك ، سعيدة في كنف الأمير ، الى الأبد ...



هنر مخ های

آلهة في المنفى

هــنـرخ هـايـني

وكان فرح الأمير فوق التصور للقيام ، فرج منسما بآية عظيمة
ومرور كبير ..

لما الأختان الحاتمان قد ملكتم الحيرة من شدة الحسد والغيرة ، وكانتا
تزدادان ، على مر الأيام ، بشاعة وقبحا ، حتى بلغت أخيرا درجة مخيفة من
الفسادة تمنع المرء من التطمع اليها طويلا ، بينما ستدريلا تزداد يوما بعد
يوم ، جمالا وروعة وبهاء ..

ولقد عاشت ، بعد ذلك ، سعيدة في كنف الأمير ، الى الأبد ..

رفقا في قهوا

بفوله خنسه

٥٩

هنريخ هايني

١٨٥٦ — ١٧٩٧

حمل له « كتاب الأغاني » الشهرة كشاعر كبير وهو في سن الثلاثين بعد ، ولكن ذلك لم يمنعه عن ان يكون كاتباً بديع النثر ايضاً ، إن في الكتب التي وصف فيها رحلاته (١٨٢٦ - ١٧٣٠) ، او في المؤلفات التي اراد ان يكون فيها همزة الوصل بين وطنه الأم المانيا ، ووطنه الفكري فرنسا الذي فر اليه منذ ١٨٣٠ ليشترك في حياته العاصفة . وهايني في الأدب وريث الرومانطيكية ، ولكنه يجردها من كل محتواها المتنافي يائي ، ويتجه بها نحو الواقعية بخطى حثيثة ؛ وهذا التطور باد لديه بكل وضوح حتى في « كتاب الأغاني » . انه بالنسبة للأدب الألماني ، مثل ألفريد دي موسيه بالنسبة الى الأدب الفرنسي ، الابن الرهيب والمرعب ، أو « الرومانطيكى البالي » كايقلب نفسه ايضاً ؛ اما في السياسة ، فهو ليبرالي متمرد ، وان يك أرسقراطياً في الأصل ، معتنق لمذهب سان سيمون الاشتراكي ، صديق لكارل ماركس وفريدريك أنجلز ، حالم بتحقيق ملكوت السموات على الأرض ، تأثر ، دون ان يدري الطريق إلى الحقيقة ، افضل ما يصفه هو ذلك العنوان الذي اعطاه لاحدى قصائده : « الصبي الضال » . لقد عاش ضالاً ، وهكذا مات ايضاً ...

ان اتحدث عما ألمَّ بالهة الاغريق والرومان من استحالة
... واود الى ابالسة شياطين عندما توصلت المسيحية الى تحقيق
 السيطرة المطلقة على العالم أجمع . ان الاساطير الشعبية تعزو الى هؤلاء الآلهة
 وجوداً حقيقياً ، ولكنه وجود أصابته اللعنة ، وحلّت عليه النقمة ، الأمر
 الذي يتفق كل الاتفاق مع تعاليم الكنيسة في هذا الموضوع . والحقيقة ان
 هذه الكنيسة لم تكتفِ بالقول إن الآلهة القدامى انهم إلا مجرد أساطير ، أو
 خلائق كذب وضلال مبين ليس غير ، كما فعل الفلاسفة والمفكرون ، بل
 راحت تدّعي انهم أرواح شريرة تدهورت من قمة سلطانها بانتصار السيد
 المسيح ، وهي ما برحت حتى اليوم تجرّ ذيول وجودها البائس في دكنة
 الهياكل العارية ودياجير الكهوف المسحورة ، ملتجئة الى سائر فنونها الشيطانية ،
 الى الشهوة والشبق والفتنة ، وخاصة الى الرقص والغناء ، كي تغري بالجنود
 والكفر بعض المسيحيين ضعاف الايمان الذين ضلوا طريقهم في مجاهل
 الغابات الكثيفة ...

وبودي ههنا أن أذكر القارىء بأن الخيرة الفائقة والارتباك العظيم اللذين
 وقع فيها هؤلاء الآلهة الاشقياء أيام انتصار المملكة المسيحية النهائي - أي في
 القرن الثالث - ليمثلان بصورة عجيبة حقاً تلك الحوادث المؤسفة التي سبق
 أن وقعت لهم إبّان ألوهيتهم . لقد وجدوا أنفسهم غارقين في ذات الضائقة
 المحزنة التي ألمّت بهم فيما سبق ، في تلك الأزمان البعيدة الغابرة ، ذلك العصر
 الثوري الذي انطلق فيه التيمان العملاقة ، أبناء السماء والارض ، من حبسهم

الذي نفوا إليه في أوركوس ، وتسلفوا الأوبل الرفيع وهم يكندسون
جبل بيليون فوق جبل أوسا . وفي ذلك الحين ، اضطرب الآلهة المساكين الى
الهرب بصورة مهيبة شائنة ، ليختفوا في أرجاء الارض على صور شتى . ولقد
لجأ أكثرهم الى مصر حيث اتخذوا ، كما هو معلوم ، أشكال الحيوانات سعياً
 وراء الأمن والسلامة . وكذلك كانت الحال بالنسبة اليهم عندما غرس سيد
الكون الحقيقي راية الصليب في الأعالي السماوية ، وراح أولئك الغيورون
القسا ، الذين لا يعرفون الرحمة أو الرأفة معنى — أعني بهم عصاة الرهبان
السود — يصطادون الآلهة بالنار واللعنة ، ويمحقون معابدهم وبطمسون
آثارها ، عندئذ اضطرب هؤلاء الآلهة الوثنيون البائسون أن يولوا الادبار من
جديد ، باحثين عن السلامة بأسماء مستعارة ، وأن يختبئوا في أكثر الاماكن نائياً وأمناً .
ولقد اضطرب كثيرون من هؤلاء اللاجئين البؤساء ، المحرومين من المأوى
الدافئ ، والطعام الشهى ، أن يعملوا في شتى الحرف العامة السافلة حتى
يؤمنوا معاشهم ، فأضحى عدد غير منهم في مثل هذه الظروف ، بعد أن
صودرت ذخائرهم ، حطابين أو حارثين للأرض في جرمانيا ، مكرهين على
احتساء الجمرة بدلاً من السلسيل والرخيق . ولقد تبين أن أبولون قد
صار الى مثل هذه الحالة المريعة ، وتدهور الى الدرجات السفلى حتى إنه
قبيل العمل مع رعاة الابقار والقطعان ، ومثلما عني فيما مضى بقطعان
الملك أدميتوس ومواشيه ، راح اليوم أيضاً يعيش راعياً بسيطاً في النمسا
الدنيا ، حيث أثار الارتياح والشك ، على أية حال ، بعدوبة غنائه ورقته
وحلاوته ، حتى اذا عرف فيه أحد الرهبان المثقفين واحداً من أولئك
الآلهة الوثنيين السحرة القدامى ، أسرع فأسلمه الى السلطات الاكليريكية
التي اعترف لها ، تحت وطأة العذاب الاليم ، انه الآلهة أبولون . ولقد

توسّل الى جلالته ، قبل أن ينفذوا فيه حكم الاعدام ، أن يسمحوا له —
المرّة الاخيرة — بالضرب على القيثارة ، والغناء على أنغامها . غير أنه عزف
بصورة فائقة الروعة والتأثير ، وأنشد بصورة عظيمة السحر والعذوبة ،
وكان جميلاً جداً ، رائع الفتنة وجهاً وشكلاً ، حتى إن العبرات انهمرت
غزيرة من عيون النسوة الحاضرات ، لابل ان الكثيرات منهن سقطن مريضات
فيما بعد ، مما دفع الناس إلى اعتبار ذلك الاله وحشاً مستنزفاً للدماء ماصاً
لها ، وتقرير نقل جثمانه من القبر ، ولما يمض على دفنه بعد إلا فترة وجيزة
فقط ، وذلك كي ينصبوه على خازوق حاد على اعتبار ذلك دواء شعبياً
مجرّباً سيشفى النسوة المريضات بكل تأكيد . ولكن القبر كان فارغاً من
كل أثر ، عندما فتحوه ...

وليس لدي إلا القليل من المعلومات عن مصير مارس ، إله الحرب القديم .
ولست بعيداً عن الاعتقاد بأنه قد استفاد ، أثناء العصور الاقطاعية ، من
العقيدة السائدة آنذاك كي ينال التبرير والغفران . وقد التقى لانك شيميلينغ ،
ابن أخي جلال مدينة مونستر ، بمارس مرة في بولونيا ، وتحدث إليه طويلاً ،
وعرف منه انه قد خدم قبل ذلك بزمان قصير فلاحاً في أراضي فرودسبرج ،
وحضر اقتحام روما أيضاً . ولا ريب أن أفكاراً مريبة للغاية قد ملأت
صدره لدى رؤيته مدينته القديمة المفضلة ، والهياكل التي طالما كان فيها مع
اخوته الآلهة موضع الاحرام والاحلال ، وقد طمست معالمها الآن بصورة
مزرية تبعث على الاشفاق والالام ...

ولكن نصيب الاله باخوس ، في هذه الهزيمة العظمى ، كان أفضل من
نصيب زيلييه مارس وأبولون ، فالأساطير تروي عن مصيره القصة التالية :
إن بحيرات كبيرة مترامية الأطراف تنتشر في طول مقاطعة التيرول وعرضها ،

تحفُّ بها اشجار فائقة الروعة والبهاء تنعكس خيالاتها في المياه الزرقاوية
 اللون بصورة لا حدَّ لفتنتها ، وان الاشجار والمياه معا لترسل همساً رقيقاً
 مستمراً لا انقطاع فيه ، بحيث تجتاح قلب المرء مشاعر غريبة من الخشية
 والهيبه اذا ماتجول وحيداً في تلك الاصفقاع الخالية . وكان كوخ صياد فتى
 يقوم على ضفاف احدى هذه البحيرات ، يعميش صاحبه مما تلتقطه شباك
 من صيد كثير أو قليل ، ويرتزق مما يمنّ عليه من أجر المسافرون الراغبون
 في عبور البحيرة الى الجانب الآخر . وكان هذا الصياد يملك زورقاً
 كبيراً يربطه الى جذع شجرة عجوز غير بعيد عن مسكنه ؛ ويعيش هناك ،
 في هذه البقعة النائية من الارض ، معتزلاً البشر والعالم ، وليس من يؤنس
 وحدته أبداً . ولكنه سمع ذات مرة ، حوالي زمن اعتدال الخريف ، وقد
 قارب الليل أن ينتصف ، طرّقاً على نافذته ، حتى اذا فتح الباب شاهد ثلاثة
 رهبان قد حجّبوا وجوههم بقلنسواتهم ، وبدت عليهم دلائل العجولة والاندفاع ،
 أسرع أحدهم يسأله بكلمات متلاحقة ان يتفضّل باعارتهم زورقه ، قاطعاً على
 نفسه عهداً أن يرده اليه خلال ساعات قليلة فقط . لقد كان الرهبان ثلاثة ،
 فليس في استطاعة الصياد اذن ان يتردد في إجابتهم الى طلبهم ، ولذا أسرع
 يحلّ رباط الزورق ، حتى اذا ركبوه وانطلقوا فوق صفحة الماء ، عاد الى
 كوخه واضطجع في فراشه راغباً في النوم ولقد كان شاباً في إبان
 فتوته ، فما أسرع ما استغرق في نومه الذي لم يوقظه منه الا عودة الرهبان بعد
 بضع ساعات من مغادرتهم له . وعندما خرج لملاقبتهم ، دفع أحدهم في راحة
 يده بدينار من الفضة ، ثم حثّ ثلاثتهم الخطى مبتعدين . وانطلق الصياد
 ساعياً الى زورقه ، فألقاه مربوطاً الى جذع الشجرة العجوز . ولدى ذلك
 فقط ارتعش جسده برمته ، لكن هذا الارتعاش لم يكن مسبباً عن الريح

الليلية الباردة أبداً : ان قشعريرة من نوع خاص قد اخترقت أعضائه بأسرها ،
 وخيل اليه ان قلبه قد تجمد تماماً بين ضلوعه عندما لمس الراهب يده وهو
 ينقده القطعة الفضية : لقد كانت أصابعه باردة كالجليد ... وظل الصياد أياماً
 عديدة عاجزاً عن نسيان هذه الحادثة ، ولكن الشباب النابض في عروقه
 سرعان ما نفض عنه المؤثرات الغريبة ، وأغرب عن فكره ذلك الحدث حتى كان
 العام التالي ، اذ طرقت نافذة الكوخ مرة أخرى ، تماماً زمن اعتدال الخريف ،
 والليل قد انتصف او كاد ، ومرة أخرى تراهى الرهبان الثلاثة ، ومرة أخرى سألوا
 استعارة الزورق . ولقد سلمهم الصياد زورقه وهو أقل قلقاً من أجله منه في
 المرة الاولى ؛ ولكنهم عندما عادوا بعد ساعات قليلة ، واسرع أحدهم يدفع
 في يده بقطعة فضية ، ارتجف مرة أخرى لدى ملامسة تلك الاصابع الجليدية
 الباردة ، واجتاحه القشعريرة بدنه بكامله . ولقد ظل هذا الحدث يتكرر كل عام ،
 في الوقت ذاته وعلى الغرار نفسه ، حتى تملك الصياد أخيراً ، عند اقتراب زيارة الرهبان
 السابعة ، رغبة عظيمة في أن يعرف ، بأي ثمن كان ، السر المختفي وراء تلك
 القلائد سنوات الثلاث ... وهكذا ، فقد كدّس كومة من الشباك في جانب
 الزورق ، بحيث يستطيع ان يختبئ وراءها دون ان يحس به أحد ، بعد أن
 يبلغها خفية بينا الرهبان منهمكون في عملية الابحار . ولقد قدم المسافرون
 المنتظرون في الوقت المعتاد ، وسيماء كآبتهم المهوودة تقنع وجوههم . ونجح
 الصياد في الاختباء تحت الشباك دون أن يحس به أحد منهم . ولكنكم كانت
 دهشته عظيمة إذ لم تستغرق السفرة الا زمناً قصيراً جداً ، بينما هو يقضي
 عادة ما ينيف عن ساعة كاملة حتى يبلغ الضفة الثانية من البحيرة . ولكن ذهوله
 وعجبه ما لبثا ان تضاعفا عندما بصر ، في هذه البقعة المألوفة لديه ، ممراً
 عريضاً يخترق الغابة لم تقع عينه عليه من قبل قط ، تفرشه ورود يانعة غريبة

عنه كل الغرابة . . . وكان عدد لا يحصى من المصاييح يتدلى من الاشجار ،
 وأوانٍ مملوءة بشعالات متأججة ترتاح على قواعد مرتفعة من الرخام . لا بل
 ان القمر أيضاً كان يسطع فائق المعان حتى ليستطيع الصبياد أن يرى ، يدسّر
 مطلق ، الى كل ما يجري حواليه ، فكأنما هو في رابعة النهار . وكان هناك بضع
 مئات من الفتيان والفتيات ، جميعهم يتجولون بحال عظيم كذلك الذي يتصوّر
 من الصور ، وان كانت وجوههم جميعاً بيضاً بلون الرخام مما يضفي عليهم -
 بالإضافة إلى كسوتهم المؤلفة من قمصان بيض ، بيض جداً ، تزينها حفاف
 من القرمز ، ويمنطقها زمار من ذات اللون أيضاً -- مظهر تماثيل قادرة على
 الحركة . وكانت النسوة يتوجن رؤوسهن بأكاليل من ورق الكرملة الطبيعية
 والمصنوعة من الذهب والفضة ، اما شعورهن فكانت بعض ضفائرها مجورة
 فوق جباههن مثل تيجان تكلمهن ، والصفائر الأخرى متدلية غداً عريضة
 فوق أعناقهن البضة ، وكذلك كان العتيان يحملون أكاليل من أوراق الكرملة ،
 ويهزون في أيديهم - مثلهم في ذلك مثل النساء - قضباناً مكسوة بورق
 العنب ، وهم يسرعون في مرح وخبور ليرحبوا بالقادمين الجدد . وسرعان
 ما ألقى أحد هؤلاء الثلاثة بقلنسوة جانباً ، كاشفاً بذلك عن رجل في متوسط
 العمر ، سفيه الملامح ، شهواني السيماء ، يبعث وجهه على النفور ، وتشبه أذناه
 أذني ماعز مدببتين ، وبطفح من عينييه شبق فاضح يفوق الوصف والتخيّل .
 وكذلك رعى الراهب الثاني بغطاء رأسه جانباً ، فبان للعيان فتى ضخم البطن ،
 يكاد أن يكون عرباناً ، ما أسرع ما توجت النسوة الشريرات رأسه الاصلع
 بأكاليل من الزهور . وكان وجه الراهبين ، مثلهما في ذلك مثل سائر المحتشدين ،
 أبيض كالثلج ، وناصعاً كالنلج أيضاً كان وجه الراهب الثالث الذي رفع
 القلنسوة عن رأسه ضاحكاً ، وحلّ حزام ثوبه ، وخلع عنه الدثار الديني
 القدر ورماه جانباً بإشارة تدل على الاشتزاز والقرف ، وكذلك قذف بعيداً

الصليب عن صدره ، ووضع الكليل الورد على رأسه . . . وعندئذ - يالله ! - بات
 لعيون الحاضرين فتوة مدهشة الجمال ، متدثرة في قميص براق كاللماس
 الثمين ، متناسقة الاعضاء والشكل ، اللهم إلا بعض الاقنعة البادية في الوركين
 المستديرين والخصر النحيل ، والتي تضاعف منها نوعاً ما تينك الشفتان المقوستان
 بعذوبة ، وتلك الملاح الرقيقة المتحركة في لين وحنان ، الأمر الذي لم يمنع
 وجهه عن ان يطفح في الوقت ذاته ببطولة جريئة لاتعرف للهيبة معنى . . .
 وراحت النسوة يلاطفنه ويمسحن على جسده بحماس وحشي ، وقد توجن
 رأسه باكليل من اللبلاب ، وألقين على كتفيه رداء مصنوعاً من جلد ثبيان
 فائق البهاء . وفي تلك اللحظة ، اقتربت عربية مذهب ذات دولابن تطوي
 بساط الارض بسرعة ظافرة ، يجرها أسدان هائلان ، فاعتلاها الفتى بجلال
 ومهابة ، وعينه تبعثان في الوقت ذاته بنظرة مرحلة تصافح الجموع المحيطة
 به ، وراح يسوق طهمين الضار بين بعنان قرمزي . وانطلق احد صاحبيه
 يحث الخطى عن يمين العربية ، وحركاته الشهوانية وشكله المعيب الشائن
 يرسل البهجة في قلوب المتفرجين - بينما اندفع زميله ، الاصلع الرأس العظيم
 الكرش ، عن اليسار منها ، راكباً حماراً رفعه عليه النسوة المرحات انفسهن ،
 وهو يحمل في يده كساء مذهب يعاد املاؤها بالخمرة دون انقطاع . . .
 وسارت العربية قدماً ، ومن ورائها تدوم حشود الرجال والنساء اللعوبين ،
 الراقصين ، المكللين بالكرمة . . . وفي مقدمة الموكب الظافر كانت الجوقة
 تسير : الفتوة المرحية ، المضرجة الوجنات ، تعزف على المزمار ؛ ومن ثم عرائس
 الماء ، بقمصانهن العالية الحزام ، وهن يضربن الرق الرنان بينانهن الرقيقة ؛
 ومن بعدهن الضاربات على الطبول ، وهن جميعاً متكائفات في الجمال ، يتبعهن
 نفيخو الاوتار المفتولون احذية من جلد الماعز ، بطلمعهم الجميلة لكن المقعمة

دعارة ورذيم ، وهم ينفخون في آلاتهم معتلين صدقات بحرية عجيبة وقرون ذات اشكال خيالية مدهشة . وفي المؤخرة كان يأتي لاعبو الناي ...

ولكن ، يا قارئ العزيز ، لقد نسيت انك مثقف واسع الاطلاع ، ادركت دون ريب منذ فترة طويلة اني اصف عيداً من اعياد باخوس ، ووليمة من ولائم ديونيزوس . ولعلك كثيراً ما رأيت في النحوت القديمة ، او في رسوم بعض المؤلفات الأثرية ، صوراً عن المواقب الظافرة التي يُحتفل بها على شرف الاله باخوس . ومما لا ريب فيه ان شعور الرهبة والذعر ان يرادك ابداً ، وانت الذي تتجلى بالمعرفة الواسعة ، ومحبة الاشياء العتيقة الكلاسيكية ، حتى وان انبثقت امام عينيك في وحشة الليل وظلمته الكثيفة البهيمية ، وانت تعبر غاية مهجورة غير مطروقة ، اشباح مثل هذا الاحتفال الباخوسي بحاشيته النشوانة المعهودة . ولعلك اذن ستحس ، على الاكثر ، ارتعاشاً لذيداً لطيفاً ينفذ في اعضائك ، ان هو في واقع الأمر إلا المهابة التي تملك المرء تجاه عظمة الجبال المتجلي لدى رؤية هذه الجماعة الشاحبة من الأشباح الفاتنة التي نهضت من نعوشها الأثرية او من مخابها بين انقاض الهياكل القديمة ، كي تتمم مرة اخرى قداسها الالهي الفرح القديم ، وتحتفل مرة اخرى ، في الغبطة واللهو ، بالموكب الظافر للمحرر الالهي ومخلص الخواص ، وترقص مرة اخرى رقصة الوثنية المرححة ، رقصة العالم القديم ، ترقصها دون تصنع منافق أو رياء ، ودون خوف من تدخل شرطة المناقب والأخلاق الروحانية ، بل باستسلام الأيام الخوالي الوحشي ، في الصياح ، والنهليل ، والضرب ... ألا فليحيا باخوس ! ...

ولكن وأسفاه ، يا قارئ العزيز ، فذلك الصياد المسكين لم يكن ذا اطلاع في امور الميثولوجيا . كما انه لم يرق يوماً بدراسات أثرية على الاطلاق ، بحيث

ان الرعب والخوف استوليا عليه لدى مشاهدته ذلك الظافر وهو ينبثق مع-
 شريكه العجيبين من تحت ارجلهم الرهبانية ، فراح يرتجف فرقا امام
 حركات الباخوسيات وقفزاتهن العاهرة ، ويرتعش امام منظر آلهة الحقول ،
 امام تلك الكائنات التي لا هي بشر ولا هي ماعز ، بل نصفها الا على بشر ونصفها
 الأسفل ماعز ، والتي بدت له بقرونها وحوافرها شيطانية بكل معنى الكلمة .
 وهكذا طفق ينظر الى الجماعة بأسرها على انها مؤتمر من الأشباح والأبالسة
 الساعية بطقوسها العجيبة الى جلب الدمار على سائر المسيحيين . ولقد قف شعر
 رأسه لدى رؤية اوضاع هاتيك النساء المجنونات اللواتي انتشرت شعورهن ،
 وانعطفت رؤوسهن الى الخلف ، ورحن يتأرجحن في الهواه بصورة عجيبة .
 وخيل اليه ان دماغه نفسه يدور في قفقه ويدور لدى مشاهدة اولئك الخبولين
 الذين يخرجون اجسادهم ، في حماسة مجنونة ، بنصال قصيرة حادة وهم يبحثون
 عن اللذة في الألم والعذاب بالذات . وبدا له ان انغام الموسيقى العذبة ، لكن
 الفائقة الهول في الوقت ذاته ، تخترق روحه اختراقاً مثل لهيب محرق ، مهلك
 ومعذب وقاتل معاً . ولكنه عندما رأى الى ذلك الرمز المصري المشين ذي
 الحجم المبالغ فيه ، المتوج بالورود ، والذي ترفعه امرأة عاهرة فوق صارية
 طويلة جداً ، عندئذ نبذه بصره وسمعه معاً ، فنكص سرياً على اعقابيه في اتجاه
 زورقه ، وزحف تحت الشباك ، واسنانه تصطك واعضائه ترتعش ، فكان
 إبليساً نفسه قد اطبق على قدميه بقوة وعنف . وما اسرع ما عاد الرهبان
 الثلاثة بدورهم ، وانطلقوا بالزورق فوق صفحة المياه الهادئة ، حتى اذا بلغوا
 الشاطئ الآخر ، تدبّر الصياد أمره كي يهرب من خبئه دون ان يحسّ وابه ،
 بحيث حسبوا انه إنما كان يقف خلف اشجار الصفصاف ينتظر إياهم فقط ،
 فضغط احداهم - كالعادة - الاجرة في راحته بأصابعه الباردة الجليدية ، ثم
 طفقوا يبحثون الخطي المتعدين في الاتجاه الذي قدموا منه .

ولقد رأى الصياد من واجبه ، كي يخلص روحه التي لم يشك لحظة في
تهربها لخطر الهلاك الأبدي ، ولكي يحمي المسيحيين الصالحين الآخرين من
المصير المفجع ، ان ينقل خبر ذلك الحديث العجيب غير منقوص الى سلطات
الكنيسة . ولما كان رئيس احدى الأديرة الفرنسية المجاورة مشهوراً
بقدرته العظيمة على طرد الأرواح الشريرة ، فقد حزم الصياد امره على الذهاب
اليه دون تأخير . وهكذا وجدته الشمس المشرقة في طريقه الى الدير حيث
سرعان ما امتثل ، في تواضع جم ، امام صاحب السعادة الرئيس الذي استقبله
جالساً في مقعد مريح في مكتبة الدير ، وقلنسوته تغطي القسم الاكبر من
وجهه ، والذي راح يصفى اليه متأملاً وهو يقص عليه حكايته الرهيبة .
وعندما انتهت الرواية ، رفع الرئيس رأسه ، فسقطت القلنسوة عن وجهه ،
فاذا الصياد يرى - وقد شلّ الرعب كل اعضائه - ان سعادته ليس الا احد
الرهبان الثلاثة الذين يجرون فوق البحيرة كل عام ، وعلى التعيين ذلك الراهب
الذي شاهده في الليلة السابقة شيطاناً وثنياً ممطياً العربية الذهبية التي يجرها
الأسدان المائلان . كان الوجه الأبيض الرخاوي ذاته مائلاً امامه بملاحه
المنسجمة الجميلة عينا ، وبفمه نفسه ذي الشفتين المقوستين الرقيقتين . وكانت
هاتان الشفتان تنفرجان الآن عن ابتسامة لطيفة لتسقط من ذلك الفم هذه
الكلمات الغنائية العذبة :

- « ايها الابن الحبيب في المسيح ، اننا لنصدق تماماً انك قضيت الليل
في صحبة الآلهة باخوس ، وان قصتك الخيالية هذه عن الاشباح لتقدم
برهاناً أكيداً على ذلك . ليس اننا نريد ان نقول شيئاً سيئاً في حق هذا الآلهة ،
فهو يطرد الاحزان والهموم في بعض الاحايين من دون ادنى ريب ، ويفرح
قلب الانسان . ولكنه عظيم الخطر على اولئك الذين يعجزون عن احتمال

الكثير من شرابه ، وأنت فيما يبدو من عدادهم . واننا لننصحك ألا تتناول في المستقبل عصارة الكرمة الذهبية إلا بتقدير عظيم ، فلا تزعج مرة أخرى السلطات الروحية بأوهام دماغ ثمل . اما فيما يخص هذه الرؤية الأخيرة التي شاهدها ، فمن الأفضل ان تحفظ لسانك في جوفك وترده عن الحديث عنها ، وإلا فان الذراع القوية لسلطان الكنسية ستعد لك خمساً وعشرين جلدة غير منقوصة . والآن ، ايها الابن الحبيب في المسيح ، اذهب إلى المطبخ حيث سيقدم لك الأخ الساقى والأخ الطباخ شراباً لطيفاً وغذاء خفيفاً .

وعندئذ ، اعطى الرئيس الجليل البركة للصياد الذي تحامل على نفسه ، مذهولاً مرتبكاً ، حتى المطبخ حيث كاد يسقط ارضاً من الفرق الذي ألمّ به عندما قابل الأخ الساقى والأخ الطباخ وجهاً لوجه . لقد كانا بالضبط ذينك الراهبين اللذين رافقا الرئيس في زمراته الليلية عبر البحيرة ، عرف احدهما من كرشه الضخم ورأسه الأصم ، وعرف الآخر من سياطه الشهوانية وأذنيه الشبيهتين بأذان الماعز . ولكنه امسك لسانه بالرغم من كل شيء ولم يروِ هذه القصة الغريبة إلا بعد انقضاء سنوات عديدة على حدوثها ...

وهناك تواريخ أخرى عديدة تتضمن اساطير مماثلة ، ولكنها تعين مكان هذا الحادث في مدينة سبيير ، على نهر الرين .

ثم إننا نجد تقاليداً مشابهاً على طول شاطئ فريسلاند الشرقي ، نستطيع ان نستبين فيه بوضوح اعظم الفكرة المنتشرة في الأزمان الغابرة عن انتقال الموتى إلى مملكة الجحيم ، هذه الفكرة التي تختفي وراء سائر تلك الاساطير على حد سواء ، وإن لم تأتِ اي منها قط على ذكر شارون ، ملاح المركب ، فكأن هذا الرجل العجوز قد اختفى تماماً من الاقاصيص الشعبية ، فأصبح العنور عليه مستحيلاً إلا في القرايطيس وحدها .

ولكن هناك شخصية خرافية اخرى ، اكثر اعتباراً من شارون الى حد بعيد ، يمكن التعرف عليها في ذلك العميل الذي سبق ان اطلق عليه الاسم المذكور ، وهو المصدر الذي يقوم بالترتيبات الضرورية لنقل الموتى ، ويدفع للمرء كـ بصورة مباشرة المال اللازم تعويضاً عن اجرة النقل في قاربه . اما هذا المراكب فهو يقوم ، بصورة عامة ، بأعباء وظيفة شارون . وفي الحقيقة ان المرء يستطيع بسهولة تامة ان يخمن اسم هذا المصدر ، بالرغم من تنكره الظريف ، بحيث يكفيني ان اروي هنا الاسطورة حسبما بلغني بكل الامانة الممكنة وبدون اي تعليق على الاطلاق .

ان شواطئ فريسلاند التي تتاخم البحر الشمالي تغص بالخلجان الصغيرة التي يستفاد منها كموانئ بحرية ، يقوم في اقصى كل منها ، على الرأس الممتد عميقاً في البحر ، كوخ منعزل يقطنه صياد يعيش في طمأنينة واعتباط مع عائلته . ان الطبيعة ترتدي ههنا مظهرأ حزيناً مكتئباً ، فأنت لاتسمع هناك صدادحاً لعصفور البتة ، بل بالاحرى صراخاً جارحاً يرسله نورس بحري من حين لآخر ، وهو ينطلق من عشه بين أكمات الرمال ، معلناً بذلك عن اقتراب الشتاء العتيد ودنوه ، بينما هدير البحر الرتيب يتناسق حتى درجة بعيدة مع الظلال القائمة المتنقلة التي تلقيها السحب العابرة . لا بل ان المماكن البشرية نفسها لاتغني ههنا ، فلا بطرق اذنك قط ، على هذه الشطآن الكثيبة ، حتى ولا لحن ضال من تلك الأغنيات الشعبية التي يحب الصيادون ان يرددوها عادة اثناء عملهم . إن القوم الذين يعيشون ههنا هم بشر مجتهدون ، ودؤوبون على العمل ، شريفيو الاخلاق ، فخزون بفكرهم الجريء وحريةهم التي ورثوها عن اجدادهم . وطبيعي ان يكون مثل هؤلاء الناس بعيدون عن كل خيال ، غير ميالين الى التأملات الميتافيزيائية ، يعتمدون على الصيد في الدرجة الاولى ، وبالإضافة على

القليل من المال الذي يسبح لهم كأجرة لنقل المسافرين الذين يريدون العبور
الى احدى الجزر المجاورة .

ويقال ان مسافراً يقدم إلى احدى تلك البقع النائية في ذات التاريخ من
كل عام ، عند الظهيرة تماماً ، بينا الصبياد وعائلته يجلسون إلى المائدة يتناولون
طعام الغداء ، فيدخل الكوخ ويسأل سيد الدار ان يمنحه جلسة صغيرة
لا تستغرق أكثر من بضع دقائق كي يتحدث إليه في شؤون تتعلق بعمله .
ويأتي الصبياد طلب الغريب ، بعد ان يدعوه عبثاً إلى مشاركتهم الغداء ،
فيخطو كلاهما جانباً ويجلسان الى مائدة صغيرة يتشاوران . ولن اصف
هنا مظهر الغريب الخارجي في تفاصيله ، على غرار طريقة كتاب القصص
العوبصة ، بل سأكتفي بتعداد قصير لبعض الامور البارزة فيه : انه رجل قصير
القامة ، متقدم في السن ، لكن يتمتع بصحة جيدة بالرغم من ذلك ، حتى لتقول
عنه إنه شاب أشيب اللحية إن صح التعبير ، ممثلي الجسم لكنه ليس بدينياً ،
احمر الوجنتين فكأنهما تفاحتان ، صغير العينين اللتين تطرفان باستمرار في مروح
وحبور كثيرين ، يغطي رأسه المطلي بالمساحيق بقبعة صغيرة مثلثة القرون ،
ويرتدي تحت معطفه الأصفر الوهاج ، بياقانه المتعددة ، لباساً قديماً الذي
لتأجر ألماني ميسور الحال ، كما نراه مرسوماً في الصور القديمة ، يعني رداء
قصيراً من الحرير مخضر اللون ، وقيصاً مطرزاً بالورود ، وصدريّة قصيرة
سوداء ، وجوربين طويلين متعددي الالوان ، وحذاءين مزينين بالابرجم . وكان
هذان الحذاءان مصقولين بصورة لامعة جداً ، حتى ليمسح على المرء ان يفهم
كيف يستطيع حاملها ان يذب خطوة واحدة خلال الطين اللزج الذي يغمر
الشاطئ . ويحتفظ بهما نظيفين بالرغم من ذلك . واما صوته فسبحرانو رفيع ،
رَبَوِيّ اللحن ، يميل أحياناً نحو ان يكون بكاءً .

ولكن حديث الرجل الصغير وسلوكه كانا رزينين وموزونين كما يليق بتاجر ألماني، وان تكن تلك الرزانة تبدو مصطنعة أكثر منها طبيعية، تتناقض بصورة بينة مع نظرات العين المنقبية، الباحثة، التأهية، السريعة اللحظات، ومع تامل الساقين والذراعين المكبوح بصورة سيئة فاشلة. ولم يكن مظهر الغريب وحده يثبت كونه تاجراً ألمانياً، بل كذلك دقته وحذره التجاريان اللذان أبداهما وهو يبذل جهده كي تكون الصفقة التي سيعقدها ملائمة لعملائه ما أمكن. ولقد قال انه عميل مصدّر، عهد اليه بعض اصداقائه التجار مهمة نقل عدد من النفوس بمقدار ما يتسع لها قارب عادي، من شاطئ فريسلاند الشرقي حتى الجزيرة البيضاء، وانه يريد ان يعرف، كي ينفذ مهمته على خير وجه ممكن، اذا كان الصياد مستعداً ان يشحن البضاعة المذكورة في قاربه هذه الليلة بالذات إلى الجزيرة المذكورة آنفاً، وانه قد فوّض في مثل هذه الحال ان يدفع اجرة الشحن سلفاً، آملاً في سره ان الصياد سيجعل تلك الأجرة، في إنصاف مسيحي، معتدلة قدر الامكان. وقد قدم التاجر الألماني (والحقيقة ان هذه الصفقة حشو فارغ، مادام كل ألماني هو تاجر في آخر تحليل) ذلك الاقتراح في عدم مبالاة مطلقة، وكأن الصفقة تتعلق بشحنة من الجبن ليس غير، وليس بنفوس الموتى من الناس. ولقد انتفض الصياد لدى كلمة «النفوس»، وزحفت قشعريرة سوداء على طول ظهره، لانه ادرك مباشرة ان المعني ههنا هي نفوس الاموات، وان الغريب ليس سوى ذلك الألماني الشبح الذي سبق ان عهد الى العديد من زملائه الصيادين بأمر نقل نفوس الموتى، ودفع لهم أجراً طيباً أيضاً في سبيل ذلك.

ان هؤلاء الفريسلانديين الشرقيين، كما سبق فأشرت آنفاً، قوم شجعان ممتلئو الصحة، وعمالون بالاضافة، يعوزهم ذلك الخيال المرضي الذي يجعلنا

شديدي التأثير من أمور الاشباح وكل ما هو فوق طبيعي بصورة عامة، وهكذا
فان زعر صيادنا المستهجن لم يطل اكثر من برهة وجيزة، فما اسرع ماتمالك
نفسه من جديد، متغلباً على ذلك الاحساس المغلوط الذي راح يستولي عليه
خلسة، واتخذ مظهر اللامبالاة المطلقة، وفي نيته ان يؤمن اكبر مبلغ ممكن
من المال أجراً له. وسرعان ما توصل الطرفان، بعد مساومة قصيرة، الى التفاهم
أخيراً، وتصارفاً كي يمهر الصفقة المعقودة فيما بينهما، ومن ثم تناول الالمانى
محفظة جلدية وسخة من جيبه، مليئة بدراهم فضية صغيرة مصكوكة في
هولندا، وعدّ منها قيمة الصفقة كاملة، ومن ثم استأذن من العائلة بأسرها
للانصراف بعد ان اعطى الصياد كامل التعليمات عن وجوب استعداده بقاربه
في المكان المعين حوالي منتصف الليل، عندما يصبح القمر مرئياً، ورفض
دعواتهم المتكررة الى مشاركتهم الطعام، وابتعد أخيراً رزين المحيما شاخ
الأنف أكثر منه في اي وقت آخر.

وفي الموعد المتفق عليه ظهر الصياد في المكان المعين. وكان القارب في
البداية يتأرجح الى الأمام والخلف بفعل الأمواج، ولكن عندما ارتفع البدر
تماماً فوق الأفق لاحظ الصياد ان قاربه اصبح يتأرجح بصعوبة أكبر من
ذي قبل، وانه قد أخذ يغطس اعماق فأعماق في التيار حتى ارتفعت المياه أخيراً
إلى بعد قليل من حافته، لا يتجاوز عرض راحة اليد. ولقد أعلن له ذلك
أن المسافرين معه، النفوس، قد ركبوا قاربه جميعاً، فأبحر مبتعداً عن الشاطئ
إلى عرض البحر بشحنته هذه.

وبالرغم من انه اجهد عينيه حتى الدرجة القصوى، فانه لم يستطع ان يميز
إلا بعض الخيوط البخارية التي كانت تتأرجح هنا وهناك امام ناظره،
وتختلط ببعضها البعض دون ان تتخذ قط شكلاً معيناً، كما أرهف اذنيه

بجهد ، ولكنه لم يسمع شيئاً ، اللهم إلا بعض الحفيف الضعيف جداً الذي تكاد الأذن ألا تميزه ابداً . وكان احد طيور النورس يحلق فوق رأسه ، من حين لآخر ، وهو يرسل صراخاً حاداً في اذنيه ؛ أو سمكة تقفز قريباً منه خارج التيار ، وتروح تصرو اليه برهة وجيزة بنظرة فارغة . وكانت رياح الليل تنهد ، وأنسام البحر تزداد برودة ، وفي اي مكان فيما حوله لا يوجد إلا الماء ، ونور القمر ، والسكون ! ولقد كان الصياد ، هو الآخر ، ساكناً مثل كل ما يحيط به ، حتى بلغ الجزيرة البيضاء أخيراً ورسا بقاربه على شاطئها . لم يجد أحداً على الساحل ، ولكنه سمع صوتاً مرتجفاً ، رَ بَويًا اخن وبكتاء ، عرف فيه صوت الرجل الاثمالي . كان يبدو ان هذا الأخير يقرأ قائمة من اسماء العالم بلحن خاص ، رتيب بشكل غريب ، وكأنه يتلو امثلة قد سبق وحفظها عن ظهر قلب . وكانت بعض الاسماء معروفة من الصياد ، لأن اصحابها اناس قد توفوا في بحر ذلك العام نفسه . وكان حمل القارب ينحف ، بصورة تدريجية طبعاً ، خلال قراءة الاسماء ، حتى اذا تردد النداء بالاسم الأخير ، ارتفع القارب على حين غرة ، وسبح حراً طليقاً ، بالرغم من انه كان فارقاً عميقاً في الرمال قبل لحظة واحدة فقط . وكان ذلك اشارة تعلم الصياد ان شحنته قد افرغت على خير وجه ، فجدف عائداً في هدوء وطأنينة الى زوجته وابنته ، الى بيته المحبوب في المرفأ ..

... ولقد تخمنت هوية تلك الشخصية الاسطورية الهامة التي وردت في هذا التقليد ، بالرغم من تنكرها الحفيف . انها ليست سوى الالهة عطار ، رمز بسميكوبومبوس ، المرشد السابق للموتى إلى الجحيم .. وفي الحقيقة انه اكثر آلهة الوثنية فتوة وكألاً ، ابن مائيا المكثار المحتال ، يختفي تحت ذلك المعطف الاصفه القذر ، ووراء وجه هذا التاجر العافه . ولم يكن يرى على

قبعته المثلثة القرون أي أثر الأرياس يمكن ان يذكرنا بحامل القبة المنحطة ، كما ان الحداثين المزيين بالابزيم المعدني كانا اعجز عن ان يوحيا بأقل شبه بالصندين المنحنيين ايضاً . ان هذا الرصاص الألماني الثقيل الخطير المظهر يختلف كل الاختلاف عن ذلك الزئبق الفرار المتحرك الذي اشتق الاله اسمه منه . ولكن التناقض كان بارزاً بصورة شديدة للغاية بحيث فضح غاية هذا الاله التي تقوم في إخفاء هويته . ولعل الاختيار لم يقع على هذا القناع بفعل الهوى وحده ، لأن عطارده كان ، كما تعلمون ، الاله الحامي للصمصام والعجار ، ومما لا ريب فيه انه أخذ بعين الاعتبار ، عندما اراد ان يختار لثاماً يخفيه ، ومهنة يربح منها خبزه ، مواليهه وسوابقه جميعاً ...

... وهكذا حدث ان أذكي الآلهة وأخبثهم قد صار تاجراً ، وكي يكيف نفسه بصورة تامة مع دوره ، اصبح التاجر الذي لا يمكن التفوق عليه - تاجراً ألمانياً . وإن ممارسته الطويلة في الأزمات الغابرة ، باعتباره بسميكو بومبوس ، او شاحن الأموات الى مملكة الجحيم ، قد جعلته متأهباً بصورة خاصة للإشراف على نقل نفوس الأموات الى الجزيرة البيضاء ، على الطريقة التي سبق وصفها آنفاً .

وان الجزيرة البيضاء لتدعى ايضاً في بعض الأحيان برياء ، او بريطانيا . لعل لذلك علاقة بالمرتفعات الحوارية القائمة على الساحل الانكليزي ؟ تلك تكون اذن فكرة مقعمة بالدعابة ، اذ تجعل من انكلترا بلد الأموات ، مملكة بلوتو ، أو الجحيم بكلام آخر . والحقيقة ان انكلترا قد بدت هكذا في أعين عدد غفير من الغرباء .

ولقد ناقشت بصورة مفصلة ، في دراستي عن فاوست ، الخرافة الشعبية المتعلقة ببلوتو ومملكة ، وبيّنت فيها كيف انقلبت مملكة الأشباح جحيماً ، وكيف

تفاقت الأُخلاق الشيطانية لحاكمها المعجوز الصفر اوي المزاج أكثر فأكثر على
مرّ الأيام . ذلك ان بلوتو ، إله المناطق الدنيا ، ونبتون إله البحر ، لم يهاجرا
مثل بقية الالهة ، بل بقيا في اراضيها ، حتي بعد انتصار الممساكة المسيحية ،
بقيا في عناصرها الخاصة . ان بلوتو ليجلس الى جانب بروسريان ، مها ابتدعوا
من خرافات خبيثة بمخوضه في الأرض عالياً ، دافئاً مطمئناً في العالم
الأسفل ، مرتاحاً في أحضانة .

اما نبتون فقد قاسى من النيمة والافتراء الدينيين أقل مما قاساه اخوه
بلوتو ، فلم يستطع طنين اجراس الكنائس ، ولا سائر جهود الأرغانات ،
ان تسمي الى اذنية في اعماق المحيط القديم حيث يقعد في سلام وطمأنينة إلى
جانب زوجته الناصعة الصدر ، السيدة أمفيترايت ، المحاطة ببلاتها المؤلف من
بنات البحر وأغواله . ومن حين لآخر فقط ، حين يهبر ملاح مبتدى خط
الاستواء ، فان بلوتو ينبثق اذن من اعماق المياه المالحة ، وهو يلوح في يده
بالصولجان المثلث الشعب ، وقد توجت حشائش البحر رأسه ، وراحت لحيته
البيضاء الفضية تتدفق ممتدة حتى سرته . وعندئذ ، فانه يهب ذلك المبتدى ،
معمودية ماء البحر الرهيبة ، مصاحباً إياها بنخطاب طويل ثقیل الوطأة تغخلله
دعابات البحارة الفظة ، بينما الملاحون المرحون يتهيجون بكل ذلك ويطربون
له طرباً فائقاً .

وكان نبتون يقطع خطابه بين الفينة والفينة ببصقات من كتل معطرة
من التبغ الممضوغ يعثرها فيما حوله بسخاء وحرية عظيمتين . وقد أكد
لي الصديق الذي زودني بمثل هذا الوصف الدقيق عن الطريقة التي بتحقيقها
مثل هذه المعجزة البحرية ، ان الملاحين انفسهم الذين يضحكون من صميم
قلوبهم لنبتون الظربف لم يرتابوا لحظة واحدة بوجود مثل هذا الإله ،

بل كانوا يرفعون اليه صلواتهم ، في بعض الأحيان ، عندما تحرق
بهم الاخطار أثناء إبحارهم .

لقد بقي نبتون إذن ، كما رأينا ، سيداً على المملكة المائية ، بينما استمر
بلوتو ، بالرغم من تحوله إلى إبليس رجيم ، اميراً على المناطق الدنيا من العالم .
وهكذا كان نصيبها افضل من نصيب أخيها جوبتر الذي أصبح بعد سقوط
ابيهم المشترك ، زحل ، حاكم السماء ، وأقام في الاولمب على اعتباره سيد الكون
بأسره ، وهناك استمر يحكم بالفرح والسعادة العاطرين ، محاطاً بفيلقه المؤلفة
من الآلهة ، والالاهات ، وعرائس الماء المشرقة . ولكن عندما وقعت
الكارثة الكبرى - عندما أعلن حكم الصليب ، هذا الرمز الابدي للعذاب -
هرب هؤلاء الآلهة العظام جميعاً وولو الادبار ، وتلاشوا في قلب الاضطراب
والضوضاء اللذين أنارتهما هجرة الأجناس المختلفة وفرارها . ولقد ضاع كل
أثر عنه ، بحيث اني راجعت دون طائل سائر التواريخ التي تحفظها العجائز ، ولم
أظفر بشيء منها ابداً : إن اية منهن لم تستطع ان تعطيني معلومات ذات ادنى فائدة
تتعلق بمصيره . وكذلك نقبت عبثاً ، يحدوني الهدف نفسه ، مختلف المكتبات
حيث أروني الوصايا الرائعة المزينة بالذهب والحجارة الكريمة ، والتي هي
أشبه ما تكون بجوارح حقيقة في حريم العلم : واني اتقدم ههنا بالشكر
المألوف إلى العلماء العريقين في المعرفة الذين فتحوا لي تلك الكنوز المتلازمة
في لطف عظيم . ليبدو انه لا يوجد اي تقاليد شعبي عن جوبتر عاش في القرون
الوسطى ، وكل ما استعطت ان أجمعه عنه ينحصر في قصة رواها صديق لي
يُدعى نيلز أندرسون .

... إن الحوادث التي سأرويها الآن - قال ذلك نيلز أندرسون موجهاً
حديثه إليّ - قد جرت في جزيرة لا استطيع أن أعين موقعها بالضبط ، لأن

أحداً لم يستطع أن يصل إليها من جديد منذ اكتشافها ، يمنع الناس عن ذلك كتل الجليد الجبارة التي تتعالى مثل جدار حصين حول الجزيرة ، وتمنع بكل تأكيد الاقتراب منها كثيراً ، إلا فيما ندر جداً من الأحياء ، بحيث لم يستطع أن يدوس أرض تلك الجزيرة إلا بحجارة مركب شرعي روسي طرده العاصفة بعيداً جداً نحو الشمال ، الحادثة التي انقضت عليها حتى الآن مائة ونيف من الأعوام .

وعندما هبط الملاحون أرض الجزيرة ، بواسطة قارب صغير ، وجدوا الجزيرة متوحشة بائسة : لم يكن هناك إلا قليل من الأعشاب الناحلة تنمو على أكات الرمال ، وقليل من اشجار النوب الممسوخة والجذوع الجذباء قد نبتت هنا وهناك متباعدة جافة . وقد شاهدوا عدداً من الأرانب البرية تنطلق من مختلف الأرجاء بين الفينة والفينة ، الأمر الذي دعاهم إلى تسمية المكان « بجزيرة الأرانب » ، ولم يكن هناك إلا كرخ حقير يوحي الى الدهن بأن كائناً بشرياً يقطن هذه الأرض ، حين دخلوه وجدوا رجلاً عجوزاً ، عجوزاً جداً ، ملتفماً بصورة بائسة بلباس مصنوع من جلد الأرانب التي خيطت الى بعضها البعض بصورة سيئة للغاية ، جالساً في مقعد حجري قبالة المصطلى ، يحاول ان يدفىء يديه الناحلتين وركبتيه المرتجفتين بلميب النار التي اشعلها من أغصان مقتطفة من تلك الأشجار المجذبة بكل تأكيد .

وكان يقف عن يمينه طير عظيم ، هو نسر من دون ادنى ريب ، قد اقتلعت سائر أرياشه ، اللهم الا قوادم أجنحته المتنفسة ، الأمر الذي أضفى عليه هيئة غريبة في الحقيقة ، لكن قبيحة للغاية في الوقت ذاته . وكان عن يسار الرجل الشيخ عنزة ضخمة بصورة غير مألوفة ، مجردة عن الشعر ، قد تربعت على الأرض ، وسائر مظاهرها تشير الى تقدمها في السن كثيراً هي الأخرى ، وإن

كان يتدلى من بطنها ثديان مفعمان لبناً ، قد احمرّت حامتها وأنتبجت كثيراً .
وكان هناك عدد من اليونانيين بين البحارة ، توجه أحدهم بالخطاب الى زميل
له ، قائلاً في لغته الاصلمية ، دون ان يخطر له لحظة واحدة ان الرجل العجوز
الذي يسكن الكوخ سوف يفهم كلامه : « ان هذا الشيخ شبح أو شيطان
شرير » . ولكن الرجل المسن هب بغنة من مقعده لدى سماعه هذه الكلمات ،
فاذا أعين البحارة تشاهد - لدهشتهم العظيمة - قامة منتصبة قد ارتفعت في
استقامة بالرغم من سنها المتقدمة ، وراحت عينان امرتان تشعان في محياها
باعتراز أشبه ما يكون باعتراز الملوك ، بينما كاد الرأس ان يبلغ سقف الكوخ
لشدة ارتفاعه . وكانت ملامح الوجه 'نظير' بالرغم من إعياها وقسوة
الطقس عليها ، آثاراً من جمال أصيل ، يطفح منها النبل والتناسق معاً .
وسقطت بعض خصل فضية على جبينه الذي احتفرت الكبرياء والسن جميعاً
بأخاديد عميقة ، تطل من العينين تحته نظرة قاتمة ثابتة ، ت برق أحياناً بلهيب
قاس ، بينما سقطت من شفثيه ، باللغة الاغريقية القديمة الجميلة الوقع والطنين ،
هذه الكلمات : « انك مخطئ » ، أيها الفتى ، فأنا لست شبحاً ولا شيطناً شريراً ؛
أنا إنسان عجوز شقي عرف فيما مضى أياماً أفضل . ولكن ،
من عساكم نكونون ؟ » .

أطلعه الملاحون على الحادث الذي وقع لهم ، ومن ثم راحوا يستفهمون
منه عن الجزيرة ، لكن لم ينالوا منه إلا معلومات طفيفة للغاية ، فقد روى
لهم ذلك العجوز أنه يقطن هذه الجزيرة منذ أزمان سحيقة ، تفيده حصونها
الجليدة كملجأ أمين ضد أعدائه الألداء الذين لا يرجحون ولا يعرفون إلى الشفقة
سبيلاً ، وأنه يقيم أوده باصطياد الارانب البرية في المحل الأول ، ويبيع
جلودها لبعض القبائل من المتوحشين الذين يؤمّون الجزيرة على نقالات

خشبية في كل عام ، عندما يذوب الجليد ، ويتلقى منهم بدلاً منها أشياء مختلفة لاغناء عنها بالنسبة اليه ، وان الحيتان التي تسبح أحياناً حتى شواطئ الجزيرة هي أفضل اصحابه وأقربهم الى قلبه ... ولكنه سعيد جداً الآن إذ يسمع من جديد لغته الأصلية ، لأنه يوناني التبعة هو الآخر ، ولذا فهو يرجو من مواطنيه أن يحدثوه بالتفصيل عن أحوال اليونان الحاضرة . ويبدو ان العجوز قد سُـرَّ كثيراً وابتهج عندما علم أن الصليب قد نُـزِعَ عن مباني المدن اليونانية ، ولكنه لم يشعر بأدنى سرور على أية حال عندما علم أن الهلال قد رُفِعَ هناك بدلاً من الصليب . والأمر الذي يدعو الى الاستغراب حقاً أن أحداً من البحارة لم يعرف أسماء المدن التي كان الرجل الشيخ يسأل عن أخبارها ، والتي كان ازدهارها عظيماً في أيامه كما أكّد لهم مراراً وتكراراً . وكذلك فإن أسماء المدن والقرى اليونانية الراهنة التي أتى الملاحون على ذكرها كانت مجهولة منه ، فهو يهز رأسه في كآبة لدى سماعها ، بينما البحارة يتطلعون الى بعضهم البعض في حيرة وارتباك . ولقد لاحظوا انه يعرف تمام المعرفة مختلف مناطق اليونان وجميع خصائصها الجغرافية ، وأنه يصف بصورة دقيقة حية سائر الخلجان ، والرؤوس ، وسلاسل الجبال ، بل حتى أبسط الروابي وأتفه المرتفعات الصخرية وأقلها شأنًا ، بحيث أن جهله بتلك المناطق التي ذكروها له يبعث على الدهشة والعجب حقاً . ولقد سألهم في شيء من الاهتمام الخاص ، بل في شيء من القلق ايضاً ، عن هيكل قديم كان في أيامه ، كما أكّد لهم ، أزوع الأشياء في الأرض اليونانية وأكثرها جمالاً ، وإن لم يعرف أحد من المستمعين الاسم المذكور الذي لفظه في حنان كثير وحب فائق . ولكن ملاحاً فتى تعرف أخيراً على المكان الذي يصفه هذا الرجل الغريب عندما عاد فوصف موقع الهيكل

في تفصيل كثير . قال ذلك الملاح ان القرية التي ولد فيها تقع غير بعيد عن ذلك المكان ، وأنه كثيراً ما رعى خنازير والده ، عندما كان صبياً بعد ، في ذات المكان بالضبط الذي وجدت فيه أنقاض بناء عتيق تدل على عظمة رائعة جداً من مخلفات الماضي . أما الآن فلم يبقَ من تلك العظمة إلا عدد قليل من الأعمدة الضخمة المنتصبة ، بعضها مسطح غير مزخرف ، وبعضها الآخر يعلوه هرم حجارته مربعة الشكل . وكانت عرائش الياسمين البري المزدهرة ، وأزهار الجرس الأحمر تتدلى نحو الأرض من شقوق الحجارة ، بينما كانت أعمدة أخرى - بعضها مصنوعة من الرخام ذي اللون الزهري - تتبعثر على الأرض هنا وهناك ، وقد اجتاحت الأعشاب وأغصان العليق رؤوسها الرخامية الثمينة ، المزينة بنقوش جميلة تمثل أوراقاً وأزهاراً مختلفة الأنواع . وكانت كتل ضخمة من الرخام مرتمة على الأرض ، نصف غارقة في التربة ، بعضها مربعة الشكل ، وبعضها الآخر شبيهة بتلك التي تستعمل لبناء الجدران ، والبعض الآخر أيضاً مثانة القرون كتلك التي تستعمل في تزيين السقوف . وكانت شجرة تين كبيرة تمتد فوقها ، وقد نمت من خلال تلك الأنقاض وتطاوت عالياً في الفضاء .

وتابع الفتى يقول انه قضى الساعات الطوال في ظل تلك الشجرة ، وهو يفتحص الرسوم الغريبة المحفورة في الكتل الرخامية ، والتي تمثل فيما يبدو مختلف أنواع الرياضات والقتال ، تبهج النظر كثيراً ، سوى ان الزمن - وبالأسف الشديد - قد أساء اليها كل الاساءة ، بينما غمرها الطحلب ونبات العليق من كل حذب وصوب . واقد حدثه ابوه ، عندما سأله عن المعنى العجيب لهذه الأعمدة والنقوش ، ان هذه الأشياء هي بقايا هيكل وثني قديم ، وانها كانت في يوم من الأيام مسكناً لآلهة وثني شرير قد تقلب ههنا في احضان فجور شهواني دنيء ،

واستسلم للفساد والدعارة ، ومختلف الآثام غير الطبيعية . ولكن الوثنيين
الجاهليين كانوا يذبحون على شرفه في كل عام ، بالرغم من كل ذلك ، مائة
ثوراً دفعة واحدة ، وكملة الرغام المحوفة التي كانت دماء الذبائح تجمع فيها
ما برحت موجودة حتى الآن ، وهي بالضبط ذلك الجرن الذي اعتادوا أن
يستعملوه كأناء تجمع فيه الفضلات التي تغذى الخنازير بها .

هكذا تحدث البحار الفتي ... اما الرجل الشيخ فقد صعد زفرة حرى
فضحت ما يحسه من ألم شديد للغاية ، ومن ثم سقط في مقعده الحجري ، وهو
يترنح ويتطوَّح ، وغطى وجهه بيديه ، وراح يبكي مثل طفل صغير . وعندئذ
صفق الطير الكبير الناحل بجناحيه ، وهو يرسل صراخاً حاداً مرتفعاً ، وهدد
الغرباء بمنقاره ومخالبه ، بينما راحت العنزة العجوز تلعق يدي سيدها ، وتثاغي
في اكتئاب وكأنها تريد ان تعزيه .

واجتاح رعب شديد البحارة لدى هذا المشهد الغريب ، فأسرعوا يغادرون
الكوخ ، وأحسوا الارتياح والسرور عندما انقطعت أصوات بكاء الشيخ
وصياح الطير وثغاء العنزة عن البلوغ اليهم . وعندما صعدوا إلى ظهر مركبهم
بأمان ، حدثوا رفاقهم بمغامرتهم ، فأعلن روسي منقف من عداد الركاب ، -
وقد كان استاذاً للفلسفة في جامعة قازان - ان تلك قضية ذات أهمية قصوى ،
وراح يؤكد للبحارة ، وقد وضع سبابته على جانب أنفه ، متخذاً هيئة العارف
العليم ، ان رجل الجزيرة العجوز هو من دون أدنى ريب الاله القديم جوبتر ،
ابن زحل وريا ، وان الطير الواقف الى جانبه هو بكل تأكيد النسر الذي حمل
الصواعق بمخالبه مرة ، وان العنزة العجوز هي ، كما تشير سائر الدلائل ،
ألتيا بالضبط ، مربية جوبتر الشبيخة ، التي أرضعته في جزيرة كريت ، وهي
ما برحت حتى الآن تغذيه أيضاً بحليبها في منفاه الاجباري .

هذه هي القصة كما رواها لي نيلز أندرسون . ولا بد لي من الاعتراف بأنها
قد ملأت قلبي بكآبة عظيمة . ان الانحطاط ليجتاح كل ما هو عظيم في هذا الكون ،
والآلهة انفسهم سوف يسقطون أخيراً تحت وطأة المصير البائس نفسه ،
فقييد القضاء يريد ذلك ، ولا بد أن حتى لا أعظم الخالدين من أن يطأطأ رأسه
في خضوع امام تلك الارادة الحديدية . ان الذي غناه هو ميروس ، والذي نحيته
فيدياس بالذهب والعاج ، ذلك الذي كانت الارض ترتجف لدى مرآه ،
والذي كان عاشقاً لليدا ، وألكمينا ، وسيمليا ، ودانايا ، وكالستو ، وإيو ،
وليتو ، واوروبا ... إلخ ، المضطر هو الآخر ان ينجي نفسه خلف حصون
القطب الشمالي الجليدية ، وأن يتاجر ببيع جلود الأرانب ، مثل أحد سكان
السافوا البائسين ، كي يمد في وجوده التمس ويظل منه ...!

ولست أرتاب ان هناك قوماً سيحصّلون سروراً خبيثاً من مثل هذا المشهد .
لعلمهم سلالة اولئك الخنازير السيئي الحظ الذين كانوا يذبجون ، في الاضاحي
القديمة ، على مذبح جوبتر . ألا فافرحوا إذن ! إن دم أجدادكم — هؤلاء
الشهداء المساكين للخرافات — قد نال ثأره . أما نحن ، البريثين من حقــد
موروث يسمّم كياننا ويثقل فيه ، فإن مشهد العظمة الساقطة يؤثر فينا ، فلا
نستطيع أن نمنع أقدس عواطفنا عن التظاهر — التعبير عن ذاتها بكل حرية
وانطلاق ...



اعترافات رأس السنة الجديدة

هرمان سودرمان

قيد الجاهل انسا من التفتا

قاله من قاله



هرمان سودرمان

١٨٥٧ — ١٩٢٨

نالت روايته الأولى : « المرأة المتشحة بالسواد » (١٧٨٧) شهرة عظيمة ونجاحاً باهراً ، وكذلك مسرحيته الأولى « الشرف » (١٨٨٨) ، وبذلك بعث بعض الآمال في جو ألمانيا الأدبي الكئيب ، وان لم يستطع ، مع العدد الضئيل جداً من زملائه الكتاب ، ان يبدد شعور الانهيار الأدبي المثقل على ألمانيا والذي قاد نيتشه الى التساؤل عما اذا كان نصر جرمانيا العسكري (١٨٧٠) الذي لم تشاهد السنوات العشر التالية له ظهور اي مؤلف أدبي جديد « لن يتحول الى هزيمة ، لا بل الى اجتثاث الفكر الألماني على حساب الامبراطورية الألمانية » . ولقد كان احساس القلق هذا عمومياً شاملاً حتى ان الشبهة المنضوية تحت راية « ألمانيا الفتاة » قد راحت تطالب « بمصافة وانطلاق » جديد ، فارتدت الى الطبيعة مجدداً متمثلة في ذلك بالحركة الأدبية التي سبقتها بقرن كامل والتي تكلت بكتاب كينغر « العاصفة والانطلاق » (١٧٧٧) ، وبذلك خلقت مدرسة طبيعية جديدة متأثرة بالقصة الفرنسية من جهة والمسرحية السكندنافية من جهة اخرى ، هذه المدرسة التي يمثل سودرمان أحد وجوهها البارزة .

أواه يا سيدتي العزيزة ! ما أحيلى ان يكون المرء ههنا ، الى جانبك من جديد ، جلوساً في سلام فائق على هذا المقعد المدافىء المريح ، مستعداً لسمير لذيذ ، مقبلاً عليه ! ألا شكراً لك الف الف مرة ، فهذه ضوضاء العيد قد انقضت ، وجلبتة قد تلاشت ، فأصبحت تهجدن بعض الفراغ من جديد لتنجيني إياه .

إيه ، يا موسم عيد الميلاد ! ليخيل اليّ ان الشيطان قد اختلقه خصيصاً ليزعجنا نحن العازبين ، ويضاعف في كآبة حياتنا البائسة التي يعوزها البيت العائلي . ان ما هو ينبوع غبطة وسعادة للآخرين لمصدر عذاب وشقاء لنا . طبعاً ، طبعاً ، نحن لا نحيا جميعاً في الوحدة القاتلة والعزلة البهيمية ، بل ان البهجة المنبعثة عن هبة الفرح والسرور تزدهر لعدد عظيم منا أيضاً . ولكن اللذة الخالصة التي ينالها المرء من اقتسام اللذة مع الآخرين لينقصها كثير من انتقاد الذات الساخر من جهة ، ويعكر صفوها من جهة أخرى تلك اللفظة المريرة التي اودّ ان ادعوها داء الزواج ، بدلاً من داء البيت العائلي كما اعتاد الناس ان يسمّوها .

تسأليني لم لم آت فافتح لك قلبي ، مهرقاً امامك كل ما يعتلج فيه ويضطرم في جوفه ؟ انت يا ايها النفس الحنون التي تهب العزاء في كرم عظيم وأريحية كبيرة ، بينما لا تبعث اكثر بنات جنسك في النفس الا الغل الحقيق ، والضعينة المقيتة . أواه ، يا سيدتي ! ولكنك ترين جيداً ، من دون شك ، ان القضية ليست على شيء كثير من البساطة . أليست تعرفين ما يقول سبيدل في حديثه

الساحر عن « المصافير الوحيدة » ، هذا الكتاب الذي بعث به اليّ في اليوم الثالث من العيد ، وقد خمنت ، بصورة إلهية حقاً ، الحال التي أتولّى فيها والمشاعر التي تطفئ على نفسي ؟ انه يقول : « ليس عند العازب الاّ صيل إرادة العزاء ، فهو اذا ما اضحى بائساً مرة ، سعى - راغباً - ان ينغمس في شقائه أكثر فأكثر » .

والى جانب عصفور سيدل الوحيد ، يوجد نوع من العازبين الشيوخ القنوعين بما قسم الله لهم ، هؤلاء هم اصدقاء العائلات وخلاتها . انا لا اعني اولئك الذين امتهنوا تدمير كيان العائلة وتحطيمه ، الذين يتسللون في رياء ونفاق ونية مفهمة عدواناً وشرّاً الى المأوى الزوجي الذي يرحّب بهم في بساطة وسذاجة ، فيرتاحون في أحضانها البريئة ويعيثون فساداً في جنباتها وأرضه الطيبة ، بل اعني ذلك العمّ العجوز الطيب القلب ، رفيق الأب على مقاعد الدراسة فيما غير من الزمان ، الذي يداعب الطفل المعتلي ركبتيه ويلطفه ، بينما يقرأ للأم ، بكل إجلال واحترام ، القصة المنشورة في صحيفة المساء ، ضارباً الصفح عمّا يرد فيها من المقاطع الشائنة .

اني اعرف رجالاً كثيرين وقفوا كل حياتهم على خدمة عائلات ارتبطوا معها بصلات الصداقة الطاهرة ، رجالاً يقضون ايام وجودهم ، دون ان تراودهم ادنى رغبة او شهوة على الاطلاق ، الى جانب امرأة جميلة يعبدونها في سرّهم مثلاً يعبدون الاله ، دون ان يفصحوا عن ذلك قط .

أترتابين في ذلك ؟ آه ، انت تعترضين على قلبي : « دون ان تراودهم ادنى رغبة او شهوة » ا بلى ، لربما كنت على صواب ! لمن المحتمل ان رغبة وحشية تكمن حتى في اعماق اكثر القلوب إلفةً وانساً ، ولكنها على اية حال - وهذا واضح كل الوضوح - رغبة مكتومة مكبوحة الجماح .

وإني لأحب ان اعطيك مثلاً على ذلك ، فأروي لك حديثاً تبادلته
سيدان معقمان في السن ، في رأس السنة الجديدة هذه بالذات . اما كيف
بلغني هذا الحديث فهذا ما يجدر بك ألا تسألي عنه ، كما يجدر بك ألا ترويه
لأي انسان آخر . أيمكنني ان ابدأ ؟

أما فيما يتعلق بالمشهد ، فتصوري غرفة عالية السقف ، مؤثثة على الطراز
القديم ، يكاد المصباح المعلق في وسطها ، والصقيل الجنبات حتى ليند عنه
بريق قلمي المعان ، والمستور بغطاء اخضر اللون يزهر به ويتضوأ ، والشبيه
الى حد بعيد بتلك المصابيح التي كان آباؤنا يستعملونها قبل عصر البترول
المكرّر ، يكاد هذا المصباح اذن الا يضيئها مطلقاً . ولقد كان نوره الضئيل
يسقط على مائدة مستديرة تتوسط الغرفة ، مكسوة برداء ابيض ، وقد
استقرت عليها المواد التي يتركب منها شراب السنة الجديدة ، ولوئت مركزها
بعض قطرات من الزيت تنتشر في صفحة الغطاء الناصع ببطة شديد .

كان صاحباي الشيخان قائدين في النور المعتم الذي يلقيه الظل الأخضر ،
خرائب عفنة تشهد عن زمان غنى الدهر عليه ، وكل منها قد انطوى على
نفسه مرتعش الأوصال ، وكل منها يشخص في الفراغ بعيني الشيخوخة
المظلمتين ، ونظرة الهرم الخائبة . كان احدهما ، وهو رب الدار ، رجلاً
عسكرياً كما يتضح من النظرة الاولى الى جذعه المنتصب باستقامة تامة ،
وشاربه المدبب الطرفين ، الحليق تحت النهايتين الرفيعتين ، وحاجبيه المعقودين
في تقطعية حربية . وكان يجلس متراكماً في مقعد هزاز ، مطبقاً على مسند
الذراعين مبه بكتفا يديه بشدة وعنف . ولم يكن شيء يتحرك فيه ، اللهم إلا
فكه الأسفل الذي يصعد ويهبط دون انقطاع في حركة ماضغة . اما الآخر
الجالس على الأريكة الى جانبه ، فكان طويلاً ناعلاً ، ضيق الكتفين ، ذا

رأس حاد الزوايا ، عريض الجبهة ، كثير الشبه برأس المفكرين ، ينفخ سحياً
قائمة من الدخان من غليون طويل على وشك الانطفاء . وكانت لفائف من
الشعر الأبيض كالثلج تؤلف إطاراً حول وجهه ، وابتسامة هادئة عذبة
تستقر في آلاف الخطوط الرقيقة التي تحفر جلده الأملس الجاف ، ابتسامة
لا يمكن ان يطبعها على ذلك الوجه الشيخ إلا السلام الذي يبعثه في النفس
رفض الانسان لهذا العالم ، وعزوفه عنه .

كانا يجلسان صامتين دون ان ينبسا ببنت شفة على الاطلاق ، بحيث
كنت تسمع طبعين ان تسمعي في ذلك السكون صدى التهاب الزيت مختلطاً بأنين
التبغ المحترق في خفوت . ومن ثم علا أزيز الساعة المعلقة في الجدار القاتم
الجاني قبل ان تضرب دقائقها الاحدى عشرة .

قال الضيف بصوت تردد في ارجاء الغرفة عذبا ينتابه بعض الارتعاش :
— هذه الساعة التي كنتما تصنعان فيها شرا بكا قد اقتربت .

فأضاف الآخر ، وكانت لهجته قاسية جافة ، فكأن صدى الأوامر التي
يهتف بها في ساحة القتال يتردد الآن في صوته :
— بلى ، هذه هي الساعة .

فعاد الضيف يقول :

— اني لم أظن قط أن الحياة بدونها ستكون كشيبة حتى هذه الدرجة .
فهز المضيف رأسه ، واشتدت حركته فكاه الماضغة قوة ، ولم يقل شيئاً .
— لقد صنعت لنا شراب رأس السنة الجديدة أربعاً وأربعين مرة .

فقال الجندي القديم :

— بلى ، فمذ ذلك الحين وانا اعيش ههنا في برلين ، وانت تقدم لزيارتنا
دون انقطاع .

وتابع رجل الفكر حديثه قائلاً :

— في مثل هذا الوقت من العام الماضي كنا ثلاثتنا لما نزل سوية ، مخفّ بنا السعادة من كل جانب . ولقد كانت تجلس هناك ، في هذا المقعد المريح ، تصنع جوربين من الصوف لأ كبير أبناء بولس ، وتسرع في ذلك ما استطاعت الى العجلة سبيلاً ، وهي تقول : يجب إنجازها قبل حلول منتصف الليل .. وهكذا كان ... ومن ثم جرعنا الشراب ، ورحنا نتجادل في امور الموت بكل اطمئنان وثقة . ولم يفتض شهران على ذلك ، حتى حملت الى المقبرة . انت تدري اني كتبت مجلداً ضخماً عن خلود الفكرة ، ولكنك لم تستطع قط الاستماع اليه ، وانا ايضاً لم اعد قادراً على ذلك منذ توفيت زوجك . والواقع الذي لا جدال فيه اني لا آبه بعد الآن لأية افكار كانت اكثر مما آبه لقشرة بصل ملقاة على قارعة الطريق .

فقال زوج المتوفاة :

— بلى ، لقد كانت امرأة صالحة . ولطالما عنتني ، وأحاطتني برعايتها ، وغمرتني بحبها وحنانها . وعندما كنت اضطر للنهوض في تمام الساعة الخامسة صباحاً كي اغدو الى الخدمة ، كانت تنهض قبلي دوماً ، وتعمل على ان اتناول قدحاً لذيذاً من القهوة قبل خروجي . ولقد كانت لها اخطاءها ايضاً .. عندما كانت تستغرق في التفلسف معك مثلاً ... يا لطيف !

فقال الضيف :

— انك ، بكل بساطة ، لم تفهمها !

وارتعش في زاويتي فمه شيء أشبه بمحمد دفين ونقمة مكبوتة ، وان كانت النظرة التي أراحها طويلاً على وجه صديقه حزينة ووديعة معاً ، فكان نفسه تحمل في احشائها وعياً مكتوماً لخطيئة عظمى .

وابتداً يقول ، بعد فترة من الصمت :

— إسمع يا فرانز ، لا بد لي من ان احكي لك شيئاً .. شيئاً يتأكلني منذ
زمن طويل كالسوس اذ ينخر العظم ، ولن استطيع قط نواه في قبري وانا
احمله ، بل لا بد لي من رفعه عن كاهلي والخلاص منه .
فقال فرانز ، وهو يتناول الغليون الطويل الملقى بالقرب منه ، ويحشوه
تبغاً :

— هيا اذن ، ما دام الأمر كذلك .

— ذات مرة . . جرى شيء . . بيني وبين . . زوجتك .

فقال فرانز :

— رجاء لا تهزل ، يادكتور .

— بل انا جاد كل الجد ، يا فرانز . ولقد حملت هذا السرّ معي طوال
اربعة سنين حتى الآن ، ولقد حان الوقت اليوم كي اخلص منه .

فصاح الجندي القديم حانقاً :

— أتعني ان زوجتي قد خدعتني ؟

فقال الفيلسوف بابتسامته الكئيبة الانيسة :

— ألا فاحجل ، يا فرانز !

فقدمم فرانز برهة ، وتمتم شيئاً ما من بين اسنانه ، ثم اشعل غليونه ، بينما

تابع الفيلسوف حديثه قائلاً :

— كلا ، لقد كانت طاهرة مثل ملك كريم . ولكننا ، انت وانا ،

مجرمان أثبان . استمع اليّ جيداً . لقد كان ذلك قبل ثلاثة واربعين عاماً ،

وانت قد نقلت إلى رلين حديثاً بعد ان بلغت رتبة رئيس في الجيش ، اما انا

فقد كنت ألقى دروساً في الجامعة . انك لم تنسَ اي فتى متوحش كنت يوماً ذلك .

— هم! هم! —

همهم فرائز بذاك ثم رفع يده المرتجفة كي يقتل شاربيه الرفيعين المدبيين .
... كانت هناك ممثلة فاتنة ذات عيون سوداوين كبيرتين ، وأسنان صغيرة

بيض . أتذكر ذلك ؟

— اني لأذكر ذلك جيداً . لقد كان اسمها بلانكا . ولقد كانت تعرف
كيف تعض .. صدقني انها كانت تعرف كيف تعض ..
ومرت ابتسامة هزيلة على محيا الرجل العجوز المجعد كالجلد المحروق ،
حيث انطبعت بوضوح تام علامات الحياة القاسية العجولة .

— لقد خنت زوجتك ، فارتابت هي في ذلك ، ولكنها لم تقل شيئاً قط ،
بل تحملمته في صمت وسكينة . وانت لم تلاحظ ذلك ، اما انا فلاحظته .
وكانت هي المرأة الاولى التي اعرفها بعد وفاة امي ، جاءت حياني مثل كوكب
براق مشع ، فرفعت اليها ابصاري كما ارفعها الى كوكب مشع ... واخيراً
جمعت قواي ، واستدعيت كل شجاعتي كي اسألها عما يزعجها ويضايقها ،
فابتسمت وقالت انها تحس وعكة لما تبرأ منها جيداً بعد . ولقد كان ذلك ،
كما تذكر ، قبل ولادة بولس فتاك بوقت قصير . ومن ثم جاء عيد رأس
السنة الجديدة .. ثلاثاً واربعين سنة بالضبط قبل هذه الليلة — فقدمت منزلك
حوالي الساعة الثامنة كما هي عادتي . وجلست هي تطرز بعض الأقمشة ،
بينما رحت انا اقرأ لها في بعض الكتب بانتظار اياك ، ولكن الساعات مرت ،
الواحدة تلو الأخرى ، وانت ولم تأت . ولقد رأيت الاضطراب الذي انتابها ،
وكيف راحت ترتعش كالريشة في مهبّ الريح ، فرحت ارتجف واياها ...
كنت اعلم ما الذي يشغلك ومجزلك بعيداً ، وكنت خائفاً لئلا تنسى الساعة
الثانية عشرة وانت بين ذراعي تلك المرأة . وكانت تلك الساعة تقترب سريعاً ،

فتوقفت عن التطير ، وتوقفت بدوري عن القراءة ، وخيم علينا سكون
مقيت للغاية . واخيراً صافحت عيناى عسيرة تزحف ببطء بين اهدابها ، ثم
تسقط على القماش بين يديها ، فقفزت على قدمي وبغيتي الخروج كي أعود بك
الى الدار : كنت اشعر بأني املك القدرة على انتراك بالقوة من احضان تلك
المرأة . ولكن زوجتك هبت ناهضة كذلك في اللحظة ذاتها ، وكانت من
قبل تجلس على هذا المقعد نفسه الذي أقعده انا الآن ، وصاحت بي : « إلى أين
انت ذاهب ؟ » . كان يحياها يطفح بخوف لا يمكن وصفه او التعبير عنه
قط . قلت : « اني ذاهب افتش عن فرانس » . فزعقت لدى سماعها ذلك هاتفة
بي : « من اجل السماء ابق معي . على الأقل ابق انت معي ، ولا تتركني
لوحدي » .

وألقت بنفسها علي ، واحاطت عنقي بذراعيها ، واخفت وجهها الندي في
صدري ، وعندئذ ارتجف جسدي برمتة ابدأ لم تقترب مني امرأة على
هذه الصورة من قبل . ولكنني تماسكت ، وتمالكت نفسي ، ورحت اتحدث
اليها مواسياً مطمئناً لقد كانت بحاجة قصوى الى المؤاساة ، وسرعان ما
رجعت انت ، ولكنك لم تلاحظ اضطراري . لقد كانت وجنتك مضرجة ، وعيناك
تحملان نظرة طافحة باعياء الحب الثمل

والقد احدث في رأس السنة ذاك تغييراً ملائني رعباً وخشية ، ذلك أنني
منذ احسست بذراعيها الناعمتين تحيطان عنقي ، وبعطّر شعرها العذب يملأ
خيشومي ، تهاوى الكوكب من عالياى سمائه ، وقامت « المرأة » مسكان
الكوكب ، المرأة الجميلة التي تتنفس الحب وتزفره مع كل من انفاسها . وكنت
اعرف ان الجميلة والنار يتأثران في نظراتي ، فوحت اثم نفسي بالغدر والخيانة ،
واسعى الى التفريق بينك وبين خليلتك كي اكفر عن ذنبي بعض التكفير ،
وأحمل الى ضميري بعض الراحة . ومن حسن الحظ اني كنت املك بعض
المال الذي ورثته ، فعرضت على تلك الممثلة مبلغاً رضيت به

فقاطعه الجندي العجوز صائحاً :

- وحقّ الآلهة ، اذن فأنت هو المسؤول عن كتاب الوداع المؤثر الذي بعثت به بلانكا اليّ ، والذي تحدثني فيه بأنها انما تهجر جي بقلب محطم مكسور ؟

- نعم ، انا هو المسؤول عن ذلك . ولكن اسمع . لقد كنت انتظر ان انال السلام بالمال الذي أعطيتها اياه ، ولكني كنت مخطئاً ، فقد ظلت تلك الأفكار المتوحشة تدوم وتدوم في دماغي وهي تعفاقم اكثر فأكثر ، فحاولت ان اهرب منها بأن ادفن ذاتي في اعمالتي ومؤلفاتي ، وفي ذلك الحين كوّنت فكريّ المركّزة عن كتابي : « خلود الفكرة » . ولكن عبثاً حاولت ، فالسلام لم يأت عن تلك الطريق .

وهكذا انقضت سنة كاملة ، وجاء عيد رأس السنة التالية ، وجلست بالقرب منها على هذا المقعد مرة اخرى . وكنت انت في الدار هذه المرة ، ولكنك كنت ترقد على الأريكة في الغرفة المجاورة متعباً من فترة المحوّن والمرح التي قضيتها في النادي قبيل إيابك الى الدار . وبينما انا اجلس ههنا ، قريباً منها ، أنظر الى وجهها الشاحب ، عادت اليّ ذكرى رأس السنة المنصرمة واجتاحني بعنفوان لم استطع له مقاومة او صموداً على الاطلاق . أواه ! لو احسّ رأسها على عنقي مرة اخرى ، لو أقبلها مرة اخرى فقط ، ثم فليمكن كل ما يمكن ان يكون ! والتقت نظراتنا برهة ، فخيل اليّ ان فيها شيئاً قد اشرق في عينيها ، فلم استطع ان ضبط نفسي اكثر مما فعلت ، فرحت جانياً عند قدميها ، ودفنت وجهي الملتهب في حضنها .

وبقيت هناك هكذا ، دون حراك ، حوالي الثمانتين تقريباً ، عندما احسست يدها الباردة تمسح على رأسي ، وسمعت صوتها العذب يقول في رقة

ولطف عظيمين : « يجب ان تكون جيداً » .

بلى ، يجب ان اكون جيداً ، يجب ألا أخون الرجل الراقد في الغرفة المجاورة في ثقة راطمئنان ، فقفزت ناهضاً ، ونظلت حوالي متبلاً حائراً لاملِك شيئاً من زمام نفسي . اما هي فالتقطت كتاباً عن المائدة وناولتني اياه ، ففهمت ما تعني بذلك ، وفتحت الكتاب دون تعيين وشرعت اقرأ بصوت مرتفع . وشرعت الأحرف تتراقص امام عيني ، ولكن العاصفة هدأت شيئاً فشيئاً ، حتى اذا دقت الساعة الاثنتي عشرة ، وجئت انت من الغرفة المجاورة تمنى لنا سنة سعيدة . بعينين ناعمتين ، احسست ان تلك اللحظة من الخطيئة قد اصبحت بعيدة جداً ، بعيدة الى الورا ، فيمكنها جيل مضى وانقضى من عهد طويل .

ومنذ ذلك الحين اصبحت اكثر هدوءاً . كنت اعرف انها لا تبادلي ذلك الحب ، واني لا استطيع ان انتظر منها اكثر من الرثاء والشفقة . ومرت السفن ، وكبر ابناؤك وتزوجوا ، وهرمنا نحن الثلاثة ايضاً ، وطلقت انت الانهالك في الشهوات ، ووقفت حياتك على تلك المرأة وحدها ، مثلي انا الذي لم اكف عن محبتها ابداً . كلا ، كان ذلك مستحيلاً ، ولكن حي ارتدى اشكالاً اخرى ، فقد طرح عنه الرغبات الأرضية ، وانقلب الى مشاركة روحية خالصة . كنت غالباً ما اضحك منا عندما نسمعنا ننفلسف ، ولكن هل خمنت مرة مبلغ الوحدة التي امتزجت بها نفسي ونفسها معاً ؟ لو فعلت لثارت في قلبك اذن غير عظيمة مهلكة . اما الآن فلقد توفيت ، ولعلنا سنتبعها قبل حلول رأس سنة جديدة ، ولهذا فقد حان لي ان ارفع عن كاھلي ثقل سري هذا ، وان اقول لك : « لقد أخطأت تجاهلك مرة يافراز ، فاصفح عني ! »

ومدّ يده نحو صديقه متوسلاً، ولكن فرانس اجاب بلمهجة غاضبة :
- ايه ، ياللعشو الفارغ والهراء ! وما اعظم الخطيئة كي نصفح عنها !
ان اخبارك هذه التي سميتها اعترافاً لعتيقة مبتدلة بالية . فأنا على معرفة بها منذ
اجيال ، اذ حدثتني هي نفسها بها قبل اربعين عاماً . وانا الآن استطيع
ان اقرّ لك بالسبب الذي كان يدفعني الى الركض وراء النساء الاخريات ، كما
ظلت حالي حتى هربت واصبحت عجوزاً ... ذلك انها اعترفت لي ، عندما
قصت عليّ حديث تلك الحادثة ، انك الرجل الوحيد الذي أحبته طوال
حياتها ...

فأسفّ ضيفه النظر إليه في سكون وصمت ... وفي تلك اللحظة ، ارتفع
أزيز الساعة المعلقة في الجدار ، ثم ضربت دقائقها الاثنتي عشرة ، معلنة بدء
العام الجديد ...



الدرب الى المقبرة

توماس مان

قبطا رما ب سدا

سدا رما

توماس مان

١٨٧٥ — ١٩٥٥ (رحمه الله)

يعتبر مع أخيه هنريخ الممثلين الكبارين لقصة الألمانية المعاصرة ؛ اما توماس ، وهو اكثرهما فناً وأعظمها نفوذاً الى النفس الانسانية ، فليس بين الأدباء من ينازعه إعجاب الألمانين به كروائي عظيم . وان بعض النقاد يعتبرون قصته : « الموت في البندقية » (١٩١٣) « اجمل ما كتب في الآداب العالمية من القصص القصيرة الطويلة » . ولكنه اشتهر ، بصورة خاصة ، برواياته الثلاث الكبرى : « آل بودنبرغ » (١٩٠١) التي تستوحى موضوعها من بلزاك وزولا مباشرة ، والتي يحاول الكاتب فيها ان يصف عظمة عائلة بورجوازية واتحادها المتأقنين ، و « الجبل السحري » (١٩٢٤) وهي قصة عن الحياة في المصححات وعن الديتومة البرغسونية ، ثم سلسلة « يوسف واخوته » (١٩٣٤ — ١٩٤٣) التي تكاد ألا تنتهي . اما كتابه الاخير « الدكتور فوستوس » او « حياة الموسيقي الألماني ادريان ليفركوهن » (١٩٤٧) ، فعودة الى العالم الألماني في الدرجة الأولى .

ولقد ترك توماس مان ألمانيا عندما استولى النازيون على الحكم . وعاش طوال تلك الفترة في اميركا ، ثم عاد بعد الحرب الى موطنه ، حيث حاول الغربيون ان يحتكروه . ولكنه تجدد ادعاءهم ، ومر الى المنطقة الشرقية حيث نفي فترة من الزمن ، معلناً ان الشعب الألماني لا يمكن ان يكون الا واحداً دوماً . وان كتاباته السياسية التي طلعت على العالم في المدة الأخيرة لذات قيمة وأهمية عظيمة ، اما القصة التي نقدمها هنا فقد كتبها وهو في السادسة والعشرين من عمره .

كانت الدرب الى المقبرة تمتد الى جانب الطريق الرئيسية ، تمتد الى جانبها على طول المسافة حتى النهاية ، يعني حتى المقبرة . وعلى الجانب الآخر منها كانت تقوم بيوت كثيرة لا حصر لها ، بيوت حديثة منعزلة ، لم ينته بعد بناء عدد وفير منها . ومن بعد هذه المنازل ، كانت الحقول الشاسعة المترامية الاطراف تستلقي في تراخ وكسل على مدى البصر حتى الافق البعيد البعيد . وكانت الطريق الرئيسية مجنحة بالاشجار ، اشجار باسقة من خشب الزان العجوز الطاعن كثيراً في السن . وكانت نصفها مرصوفة بالحجارة ، اما النصف الآخر فلم تنله يد التعميد من قريب او بعيد قط . ولكن الدرب الى المقبرة كانت مكسوة برذاذ من الرمال الدقيقة اشبهها بممر لطيف خطته الاقدام على الارض المهجورة . وكان اخدود ضيق جاف يمتد بين الطريق الرئيسية وهذا الممر ، طافحاً بالعشب الأخضر والازهار البرية .

وكان الربيع في اوج ازدهاره ، يكاد ان يكون صيفاً فائظ الحرارة . وكانت الدنيا تبسم بفرح ، وسما الله الزرقاء مليئة لا بشيء ، إلا بقطع من السحب ، قطع صغيرة مستديرة ، كثيفة متراكمة . . . كانت السماء مكسوّة ، من اقصاها الى اقصاها ، بعناقيد من كتل لطيفة ناصعة البياض كالثلج النقي الطاهر . وكانت العصافير تغرد في اشجار الزان معنقة بين اغصانها ، وريح رقيقة حنون تهب عبر الحقول نسيماً عليلاً عذباً .

وكانت عربة قادمة من القرية المجاورة في اتجاه المدينة ، تعبر الطريق

الرئيسية ، يسير نصفها فوق القسم المرصوف من الدرب ، والنصف الآخر فوق القسم غير المرصوف منه . وكانت رجلا السائق متدليتين على جانبي العريش تتأرجحان في غير تناسق أو انسجام ، وهو يصفر من بين شفثيه لحناً مألوفاً . وفي مؤخرة العربة كان يقبع كلب صغير ، اصفر اللون ، مدبب البوز ، ادار ظهره للسائق ، وراح يشخص ، بطريقة رزينة مهمة ، تتجاوز الوصف حقاً ، الى الطريق التي اتي منها . كان كلباً صغيراً مذهشاً عظيم الفتنة في الحقيقة ، جيداً مثل الذهب الخالص ، يحمل تأمله اللذة والانشراح الى النفس ، والغبطة والسرور الى القلب . ولكن لا ، فهذا الكلب لا شأن له بالقصة التي نحن بصدددها الآن ، فلنتركه جانباً الآن ونعجازه .

هذه جماعة من الجنود تقترب على طول الطريق ، قادمة من النكبات القريبة من ذلك المكان . كانوا يحثون الخطى في قلب الغبار الذي يثيرونه بأقدامهم ، وهم ينشدون الأغاني في الوقت ذاته . وهذه عربة اخرى تعبر الطريق ، ولكنها — على خلاف تلك — واردة من المدينة وساعية الى القرية المجاورة . وكان سائق العربة يبخس في نومه ، ولم يكن فيها اي كلب على الاطلاق ، فهي عديمة النفع اذن ، غير اهل لأي اهتمام ابدأ . وكان يقبعها مسافران راجلان ، احدهما عملاق ضخيم الجثة ، اما الآخر فأحجب مقووس الظهر . كانا يسيران حافيين ، لأنها كانا يحملان احذيتيها على ظهرهما ، عندما صاوبا العربة ألقيا تحية طيبة مرححة على السائق المستغرق في النوم ، ثم تابعا طريقهما في هدوء وسكينة . بلى ، لم يكن هذا إلا معبر تجارة بسيطة متواضعة ، تلاحق اهدافها دون حوادث مؤسفة ، أو مشاكل معقدة ، أو عواقب سيئة وخيمة .

اما الممر الذي يُفضي الى المقبرة فكان يعبره شخص وحيد ، ينقل خطاه

بيطه عظيم ، محني الظهر ، معتمداً على عصا سوداء ضخمة . وكان هذا الرجل يدعى بيبسام ، شكر الله بيبسام على وجه التحقيق ، وليس اي اسم آخر مطلقاً . واني اذكر هذا كله ههنا عن قصد ، بسبب سلوك هذا الرجل اللاحق الغريب حقاً .

كان يرتدي ثياباً سوداً ، لانه في سبيله الى زيارة قبور أحبائه . وكان يغطي رأسه بقبعة عالية من الفرو ، ذات حفاف عريضة للغاية ، ويلبس فراكاً جرب لونه لكثرة ما أكل الدهر عليه وشرب ، وسراويل ضيقة كثيراً وقصيرة جداً في وقت واحد ، وقفازين اسودين من جلد الماعز ، قد فاض منها كل بريقها وزونقها . وكان عنقه ، هذا العنق الطويل المتغضن الذي برزت تفاحة آدم فيه ضخمة عملاقة ، ينهض من ياقة مهترئة مقلوبة .. بلى ، ان هذه الياقة المقلوبة قد تهدأت زواياها وتآكلت منذ زمن طويل . وكان هذا الرجل يرفع نظره من حين لآخر ليرى كم تبعد المقبرة عنه بعد ، فاذا ما فعل ذلك استطعت أن تخطف نظرة سريعة إلى وجه غريب ، وجه لا ريب أنك لن تنساه بسرعة قط اذا ما رأيته مرة واحدة .

كان حليق الوجه شاحب اللون ، ولكن أنفاً ضخماً كثير البروز كان يندفع مزهواً بين الوجنتين الغائرتين الصفراوين . وكان هذا الأنف يشع بحمرة غير متناهية وغير مألوفة ، ويزدحم بحشد عظيم من البثور الصغيرة ، والدامل الكريهة التي تضفي عليه مظهراً غريباً ، وترهقه بوعورة فائقة التشويه . وكان لمعان الأنف الشديد يتناقض كثيراً مع شحوب الوجه ، فيخيل إلى الناظر إليه أنه أنف مصطنع غير حقيقي ، فكأن صاحبه قد لصقه هناك في وسط محياه كما يفعل الناس في الأعياد الاحتفالية التذكيرية ، وارتداه هكذا على اعتباره نكتة مأتمية كثيفة . وكان فيه واسعاً ، مهتل الزاويتين ،

لما دفعه إلى إطباق فكيه بهنف وشدة . وكان حاجباه أسودين فأحمرين ، ملطخين
بشعرات بيض قليلة العدد ، يرفعها كلها رفع ابصاره عن الأرض
ليطلع أمامه ، حتى يختفيا تحت حافة قبعته ، بحيث تستطيع أن ترى بوضوح
نাম إلى عينيه اللتين ألهمها المرض وخطط حواشيها بالحمرة القانية ... وبكلمة
مختصرة ، فقد كان ذلك وجهاً يدعو كل شيء فيه إلى الرثاء ، مشيراً
الشقيقة في الناظر إليه .

ولم يكن مظهر شكر الله ببسام باعثاً على الانتعاش أو الابتهاج
مطلقاً ، بل لم يكن يتلائم أبداً مع تلك العشية الرائعة الجميلة . كان يبدو
كثير اليأس والانحطاط ، حتى بالنسبة إلى رجل يزور قبور أحيائه المتوفين .
ولكنك لو استطعت النظر إلى باطنه فقط ، لوجدت أن إنسانه الداخلي
يرر في الواقع كل التعبير حاله الخارجية ... بلى ، لقد كان يائساً بعض
اليأس ، شقيماً بعض الشقاء ، أسيت معاملته بعض الشيء ... أنه ليصعب عليكم ،
أنتم الناس السعداء ، أن تنفذوا إلى نفسه وتفهموا مشاعره . والحقيقة
هي أن الأمور لم تكن سيئة قليلاً بالنسبة إليه فحسب ، بل كانت سيئة حتى
درجة بعيدة قصوى .

إنه يسكر في المحل الأول ، ولكننا سنعود إلى هذه القصة فيما بعد .
ولقد كان أرملاً ، مهملاً ومهجوراً من سائر الناس ، وليس من نفس على
وجه هذه الأرض تحبه أو تحب عليه . ولقد أخذت منه زوجته ، واسم
عائلتها ليبرزت ، قبل ستة شهور عندما وضعت له طفلاً ذكراً . كان الطفل
الثالث ، ولقد ولد ميتاً ، وكذلك توفي الاثنان الآخزان ، أحدهما بالديفترى ،
والآخر من لاشيء على وجه التعيين ، اللهم إلا من الحرمان العام ... لكأن كل
هذا لم يكن كافياً ، بل كان لا بد له من أن يفقد عمله أيضاً ، فحرم بذلك ،

في عار واستيحاء عظيمين ، من مركزه وخبره اليومي معاً . وذلك كله نتيجة عيبه بالطبع ، هذا العيب الذي كان دوماً أقوى من ببسام نفسه .

ولقد وجد القدرة ، ذات مرة ، على مقاومتها حتى درجة ما ، وان كان يستسلم إليه خاضعاً لسلطانها من حين لآخر . ولكن عندما انتزع منه امرأته وطفله ، وعندما فقد العمل والمركز على حد سواء ، ولم يعد لديه ما يعتمد عليه ويستند إليه ، وعندما وقف وحيداً في هذا العالم دون عضد او معين ، عندئذ أخذ ضعفه يتغلب عليه شيئاً فشيئاً . لقد كان كاتباً في جمعية للاخسان ، وكانت وظيفته في هذه الجمعية ان ينسخ ما لا يحصى من الأوراق مقابل مرتب لا يزيد عن تسعين ماركاً في الشهر . ولكنه كان سكيراً مزماً ، ومهملًا لواجباته ، ولذلك طرد من عمله بعد عدد كبير من الانذارات والاضطرابات التي لم تنفعه شيئاً ، ولم تستطع لردّه عن غيّه سبيلاً .

ومن المؤكد أن كل هذا لم يصلح ذرة من حال ببسام الاخلاقية والمعنوية ، بل إنه راح يستسلم أكثر فأكثر لسقوطه وانهيائه دون أدنى مقاومة على الاطلاق . وفي الحقيقة إن البؤس والتعاسة يدمران كرامتنا الانسانية واحترامنا لذاتنا تدميراً تاماً - ولا بأس علينا ههنا من تفهم هذه الأمور تفهماً بسيطاً ، لأن فيها كثيراً من الغرابة حقاً ، هذا إذا لم نرد أن نقول من الاثارة والرعب . إن الانسان لا يستفيد شيئاً قط إذا ما تآزر على الاحتجاج مدعياً براءته من كل ذنب وجرم ، لأنه إنما يحتقر نفسه ويزدرئها في أكثر الأحيان بسبب شقائه بالذات . وإن ازدراء الذات والسلوك السيء لقائمان في أكثر العلاقات المتبادلة هولاً ، يغنيان بعضها بعضاً ، ويلعبان بين يدي بعضها البعض في أسلوب تبعث مشاهدته على النفور والاشمئزاز . وهكذا كانت الحال مع ببسام . لقد كان يسكر لأن كل احترام ذاتي قد

انعدم لديه ، وكان فاقداً لكل احترام ذاتي لأن انهيار نواياه الحسنة المستمر كان يبتلع ذلك الاحترام ابتلاءً . وكان يحتفظ في دولاب ثيابه في الدار بزجاجة تحتوي على سائل سامّ ملوّن سامتغ هنا عن تسميته . واقعد سقط شكر الله مرة جائئياً على ركبتيه أمام هذا الدولار بالذات ، وفي صراعه مع نفسه عضّ بأسنانه على لسانه حتى أدماه ... وبالرغم من كل ذلك فقد اتي سلاحه في النهاية . اني لا أحب أن أذكر مثل هذه الاشياء ، ولكنها ذات فائدة خلاصية على كل حال ، ويمكن أن يستخرج الانسان منها عبراً عديدة . وهذا هو الآن يسلك طريقه إلى المقبرة ، وهو يضرب الأرض أمامه بعصاه السوداء كلما تقدم نحو هدفه ... وكان النسيم العليل يتلاعب حول أنفه أيضاً ، ولكنه لم يشعر به ابداً . كان يحدّ البصر إلى الامام منه باستقامة ، هو الكائن الانساني الضائع الذي يغمره شقاء عظيم ، وتعاسة لا حدود لها ؛ ويرفع حاجبيه عالياً أثناء ذلك دون أن يرى شيئاً ... وعلى حين غرة ، سمع ضوضاء إلى الورا منه ، فأصاخ بسمعه ... إنه صدى حفيف لطيف يأتي من المدى البعيد سرها لا يلوي على شيء ، فاستدار وقد توقف عن المسير ... هذه دراجة تقرب بأقصى سرعة ممكنة ، ودولابها الهوائي ان يسحقان الرمال الدقيقة تحت وطأتها سحقاً ، ثم تخفض من سرعتها ، لأن ببسام يقف مباشرة في قارعة الطريق يعترض سبيلها ...

كان شاب في مقتبل العمر يمطي المرحج ، فتى في ريعان الصبا يسوق دراجته في ابتهاج عظيم ولا مبالاة كثيرة . مما لا ريب فيه أنه لا يدعي الانتساب إلى عظماء هذه الأرض وأسيادها المتفوقين في القوة ... آه ، كلا يا إلهي ، ليس شيء من هذا على الإطلاق . كان يركب دراجة رخيصة ، متواضعة للغاية لم تعرف ، دون ادنى شك ، معنى العناية مطلقاً . ربما كانت

تساوي ، على أكثر تقدير ، مائتين من الماركات . إنه يركبها وينطلق بها في هذا العالم ، قادماً من المدينة وأشعة الشمس تنعكس بامعان عظيم على دواسيها ، وهي تحمله في سبل الله العريضة الواسعة ... مرحى ، ألف مرة مرحى ! وكان يرتدي سراويل ملونة ، وسترة رمادية ، وأقطة حول ساقيه ، وأكثر قبعات هذه الدنيا وقاحة وصفاقة ، قبعة كرنفالية لا مرأه فيها ، ذات نقوش غبراء ، وزر يعلو قممها في مباهاة وفخار . ومن تحت تلك القبعة كانت حزمة نخينة من الشعر الاثغر تتدلى على جبينه ، أما عيناه فكانتا زرقاوين لامعتين مضببتين . ها هو ذا آت ، مثل الحياة ذاتها ، يدق جرسه ، ولكن ببسام لم يترشح عن طريقه قيد أنملة ، بل وقف هناك لا حراك به ، ينظر الى الحياة في جمود وغباء ...

ورمته الحياة بنظرة غضبي وتجاوزه ... وعندئذ ابتداء ببسام بدوره يسير قدماً . وعندما صاقيه الحياة قال ببطء ، وهو يشد على المقاطع في نقمة وهياج :

— الرقم تسعة آلاف وسبع مائة وسبعة ...
وأطبق شفتيه باحكام وعنف ، وتطلع الى الأرض دون أن يحفل او يرتعش ، وهو يحس عين الحياة الغاضبة مثبتة فيه .

كانت الحياة قد استدارت ، وامسكت بالسرج من خلفها بيد واحدة ، وهي تتابع المسير بتمهل ...

سألت الحياة :

— ماذا قلت ؟

فردد ببسام مرة أخرى :

— الرقم تسعة آلاف وسبع مائة وسبعة... أوه ، لا شيء أبداً ، إني سأبلغ عنك فقط .

فسألت الحياة ، وقد استدارت أكثر من ذي قبل ، وتمهلت في ركوبها أكثر من ذي قبل أيضاً ، بحيث اضطرت الى بذل شيء من الجهد كي تحتفظ بتوازنها :

— سوف تبلغ عني ؟

فأجاب ببسامة بعد خمس أو ست خطوات :

— بكل تأكيد .

فسألت الحياة ، وهي تكفّ عن الركوب :

— وله ؟

ووقفت هناك في وضع تحفز وانتظار...

قال ببسامة :

— أنت تعرف ذلك جيداً .

— كلا ، أنا لا أعرف .

— يجب أن تعرف !

فقالت الحياة :

— كلا ، أنا لا أعرف . وبالإضافة ، أصدقك القول ان ذلك لا يهمني

في كثير او قليل .

واستدارت الى دراجتها تريد اعتلائها من جديد .. ان في جوف الحياة

لساناً يعرف النطق بكل تأكيد !

قال ببسامة :

— سوف ابخ عنك لأنك تركب ههنا ، في هذا الممر الى المقبرة ، بدلاً

من الركوب على الطريق الرئيسية هناك .

فقلت الحياة ، وهي تستدير إلى مخاطبتها مرة أخرى ، وترسل ضحكة قصيرة تدلّ على نفاذ صبرها :

— ولكن ياسيدي العزيز ، انظر إلى علامات الدراجات على طول هذا الدرب . إن الجميع يستعملون هذا الممر .

فأجاب ببسام :

— سواء بالنسبة إليّ ، فسوف أبلغ عنك على أية حال .

فقلت الحياة ، وهي تركب دراجتها :

— كما تشاء ...

وفي الواقع اعتلت إحدى الدواستين ، وبدفعة واحدة من قدمها استقرت في مكانها على السرج ، ثم انحنت وهي تجتهد في الانطلاق بالسرعة التي يتطلبها طبعها ومزاجها .

وعاد ببسام يقول ، وقد علا صوته وارتعش :

— حسناً ، إذا ما ظلت تسير في هذا الممر المخصص للراجلين ، فسوف أبلغ عنك بكل تأكيد .

ولكن الحياة لم تعره أدنى اهتمام أو انتباه ، بل تابعت طريقها لا تلوي على شيء ، وهي تجمع السرعة وتكديسها أكثر فأكثر .

ولو أن امرءاً شاهد وجهه شكر الله ببسام في تلك اللحظة ، لارتدّ مشدوهاً من شدة الصدمة التي سيلقاها إذن ... لقد أطبق شفطيه بعنف شديد حتى تشوهت وجنتاه ، وتبدلت حدود أنفه الأحمر وتغير شكله أيضاً ، وارتفع حاجباه على قدر ما يستطيعان الارتفاع ، بينما راحت نظرائه تلاحق الدراجة المنطلقة وفيها دلائل الجنون والخليل . وفجأة ، انطلق إلى الأمام بعزم ، وطوى ركضاً المسافة التي تفصل بينه وبين الحياة ، وأمسك بالحقيمية

الجلدية الصغيرة المعلقة خلف السرج بكلتا يديه كي يمنع الدراجة عن متابعة الحركة .. أطبق عليها يشدُّ بها الى الخلف بكل قواه ، هي التي تأتي الجمود بل تقابع الدوران ، وقد انسحبت شفتاه حتى فقدتا كل سيماء انسانية ، واتسعت عيناه بصورة وحشية ، وأخرس الغضب لسانه فهو لا ينطق ببنت شفة على الاطلاق . وكان يصعب على المرء للوهلة الأولى ان يعرف على وجه التأكيد ما اذا كان ببسام يسعى في خبث ، وعن سابق إصرار وعمد ، لا يقف الدراجة ؛ ام انه يريد فقط ، وقد دأبته هذه الفكرة على حين غرة ، ان يركب وراء الحياة وينطلق في سبيل الله العريضة الواسعة بدواستين تبرقان تحت شعاع الشمس اللامع . ألا مرحى ، ألف الف مرحى ؛ ولكن الدراجة ، اية دراجة ، لم تستطع احتمال الثقل الواقع عليها ، فتوقفت ، ومات على احد الجانبين ، ثم تهاوت .

ولكن الحياة ، الآن ، قد تملكها الغضب والهياج . اضطرت الى الوقوف ورجاها الواحدة تعتمد على الأرض ، ومدت الى الامام ذراعها اليمنى ، ووجهت الى الهر ببسام دفعة شديدة في صدره أجبرته على التقهقر الى الخلف عدة خطوات وهو يترنح فاقدًا توازنه ، ثم قالت وصوتها يرتفع شيئاً فشيئاً كي يصبح وعيداً بيئناً لا ريب فيه :

- انك نمل من دون شك يا صاح ، ولكن اذا تابعت محاولتك لا يقاها ايها الفقي الظريف ، فلسوف أحطمك إرباً إرباً بكل بساطة ... هل تفهم ؟ اسوف أسحق سائر اعضائك وأفصلها عن بعضها البعض ، فتفضّل بتقبّل ما أقوله في ذهنك .

ثم ادارت الحياة ظهرها للهر ببسام ، ودفعت بقبعتها فوق جبينها في

ثورة ، ومن جديد صعدت على الدراجة . بلى ، لمن المؤكد ان للحياة
لساناً في جوفها يحيد النطق والكلام ! ولقد اعتلت الدراجة بنخلة وإنقان
مثلها في المرة الأولى ، أي دفعة واحدة ، واستقرت على السرج ، وماكنت
قياد الآلة الجامدة مباشرة . واستطاع ببسام ان يرى الى ظهرها وهو يبتعد
بسرعة تزايد باستمرار ...

وقف هناك لاهثاً منقطع الانفاس ، يشحذ البصر وراء الحياة المبتعدة .
ولكن الحياة لم تسقط عن دراجتها ، ولم تنزل بها أية كارثة ، ولم ينفجر اي
من دولابها ، ولا قام في طريقها حاجر يعترض سبيلها . كانت تبتعد على
دولابها المطاطيين غير آبهة لأي شيء على الاطلاق . عندئذ شرع ببسام
يصيح ويزعق ، ولم يعد صوته بعد الآن كثيباً ، بل كنت تستطيع بكل
سهولة ان تسميه زجاجة وحشية .

هتف :

— لا يحق لك ان تتابع الممير ، عليك ان تتركب على الطريق الرئيسية
هناك ، وليس ههنا على الدرب الى المقبرة ... هل تسمع ؟ اخرج ، اخرج ترواً !
لسوف ابليغ عنك ، لسوف ارفع دعوى عليك . آه يارب ، آه يا إلهي ! هلا
وقعت ! لو انك تقع فقط ، انت ايها الحشرة الحقيرة ! اسوف ادوسك ،
لسوف ادوس وجهك بحذائي ، ايها الوغد اللئيم ، أيها ...

ابدأ لم تقع عين على مثل هذا المشهد ، مشهد رجل يهذي ويحج على قارعة الدرب
إلى المقبرة ، رجل انتفخ وجهه لكثرة الزجاجة ، رجل يرقص غضباً وثورة ،
ويقفز في خبل ، ويلوح بذراعيه في كل اتجاه ، وقد فقد زمام نفسه تماماً .
وكانت الدراجة أثناء ذلك قد اختفت عن الانظار ، ولكن ببسام ما برح
واقفاً حيث كان يزعق ويسب ويشتم .

- أوقفوه ، أوقفوه ! أيقظ له ان يركب على الدرب إلى المقبرة ؟ أيها
 السفهه ، أيها الجرو المشين ، أيها الحمار اللعين ! لأود ان اسلخ جلدك عن
 لحمك وأنت حي ، أنت يا ذا العينين الزرقاوين ، أيها الكلب الأخرق ، أيها
 الحشرة الحقيرة ، أيها الأبله المعتوه ، أيها العبيط الجاهل ! هيا واخرج ،
 اخرج هذه اللحظة بالذات ! أفليس هناك من يرمي به في الأقدار ؟ إذن فانت
 تركب ، ما ؟ على الدرب إلى المقبرة ! اطرحوه أرضاً ، هذا الجرو اللعين ! ...
 أواه ، لو أمسك بك فقط ! ما الذي كنت لأفعله إذن ؟ الا فليقطع الشيطان
 عينيكم من محجريها ، أيها الجاهل ، أيها الجاهل ، أيها الأبله الجاهل !
 وانتقل ببسامة من هذه الأقوال إلى استعمال ألفاظ لا يمكن الاتيان على
 ذكرها ههنا ، إذ راح يتفوه ، والزبد يعلو فاه ، بأكثر الشتائم بذاءة ، بينما
 راح صوته يتكسر في حلقة ، وهو يتلوى على نفسه بصورة تزداد غرابة وبعداً
 عن الخيال . واقرب منه بعض الأولاد الصغار ، قادمين من الطريق الرئيسية ،
 وهم يحملون كلباً صغيراً وسلّة كبيرة ، وتسلقوا الأخدود المحفور على جانب
 الدرب ، وأحاطوا بالرجل المتفجر صياحاً وزعيقاً من كل جانب ، وراحوا
 يسترقون النظر إلى وجهه الملتوي . ورأى بعض الفلاحين العاملين في المنازل
 الجديدة ، وهم على أهبة الاستعداد للاستمتاع بفرصة الظهيرة ، أن شيئاً ما غير
 طبيعي يجري هناك ، فانضموا إلى الجماعة المتحلقة ... كانوا خليطاً من
 الرجال والنساء معاً ، ولكن ببسامة استمر في صياحه ، لا بل ان حميته قد
 نمت وتضاعفت وازدادت سوءاً على سوء . كان يهزّ قبضته ، وقد أعماه
 الغضب ، في اتجاه زوايا السماء الأربع ، ويدومّ حول نفسه دون انقطاع ،
 وهو يثب عن الأرض آناً او يطوي ركبتيه آناً آخر ، ليعود فيقفز من
 جديد بأقصى ما يستطيع من القوة مرسلًا زعيقه أشد ارتفاعاً مما سبق ، بقدر

ما تسمح له الجهود التي يبذلها في سبيل ذلك . ولم يسترح قط لالتقاط أنفاسه ، بحيث كان المصدر الذي تنطلق منه سائر كلماته المتلاحقة هذه مثاراً للعجب والدهشة . كان وجهه حالياً منتفخاً بصورة خفيفة ، وقبعته المرتفعة ترتاح على مؤخرة عنقه ، وقيصره يتدلى من فوق حزام سراويله . ولقد انتقل الآن من الخاص إلى العام ، فشرع يبدي ملاحظات ليست على شيء من العلاقات بالوضع الراهن ، فهو يتحدث عن أسلوبه الرديء في الحياة ، وينطق بتجربيات دينية كانت أصداؤها تتردد غريبة في مثل ذلك الصوت ، وهي تبرز بما لا يحصى من الشوائب البذيئة .

كان يجار قائلاً :

— تعالوا ، تعالوا أأنتم جميعاً ، ليس أنت وأنت وأنت فحسب ، بل جميعكم دون تفريق بأعينكم الزرق المضيفة ، وقبعاتكم الصغيرة ذات الأزرار . ولسوف أزق بالحقيقة في أذانكم ، وهذه الحقيقة ستملأكم رعباً أبدياً لا يزول . . . وهكذا فأنتم تكشرون وتهجهمون ؟ وهكذا فأنتم تهزون أكتافكم ؟ أنا أسكر . . حسناً ، بلى ، بالطبع أنا أسكر ! لا بل إني لعرييد إن شئت أن تعرفوا ذلك . ولكن ماذا يعني هذا ؟ هذا ليس باليوم الأخير بعد ، ولكن اليوم سيأتي ، يا أيها الهوام العديمة النفع ، الذي يزنا الله فيه بميزانه جميعاً . . . اواه ، إن ابن الإنسان سيأتي على السحب ، أيها الدنسون ، وعد الله ليست من هذا العالم ! ولسوف يقذف بكم في الظلمات الخارجية ، أنتم جميعاً أيها الذرية البلهاء ، وهناك سوف يكون البكاء . . .

كان حشد كبير يحيط به الآن ، والناس يسخرون منه ، وقليلون منهم يعجبون ويقطبون وجوههم . وجاء عدد آخر من حملة الحجارة والفلاحين ، رجالاً ونساء ، قادمين من الأبنية التي لم يكتمل بناؤها بعد . وهبط سائق

من عربته ، وقفز فوق الأُخدود وهو بلوح بسوطه في يده ، وأمسك أحد الرجال ببسام من ذراعية يهزه ، ولكن شيئاً لم يفتح عن ذلك كله . واقترب من الحشد جماعة من الجنود ونجاوزه ، وهم يستديرون لينظروا الى القوم المزدحمين ويضحكون منهم . ولم يستطع الكلب تمالك نفسه اكثر مما فعل ، فرفع طرفيه الأماميين وراح يعوي في وجه ببسام وذنبه يهتز بين قائميه الخلفيتين .

وعندئذ صرخ شكر الله ببسام مرة اخرى بكل قواه :

— اخرج ، اخرج ، حالاً ايها الأحمق الجاهل !

ورسم بذراعه الواحدة نصف دائرة كبيرة .. ومن ثم تهاوى على الأرض . ورقد فوق التراب ، وقد استكان صوته بغتة ، اشبه بكومة سوداء محاطة بحشد فضولي 'طلّعة' . وأفلتت من رأسه قبعته العريضة الخفاف ، ودارت فوق الأرض دورة قصيرة ، ثم استقرت غير بعيد عن صاحبها .

وانحنى عاملان فوق ببسام الذي فارقتهم كل حركة ، وتبادلا الرأي في أمره بتلك اللهجة البسيطة العاقلة التي يتصف بها الشعب العامل . ومن ثم نهض احدهما على قدميه ، وابتعد راكضاً ، اما الآخر فراح يجري لطريح الأرض الفاقد الوعي بعض الاسعافات ، إذ رماه بقليل من الماء من إناء يحمله ، وصب قليلاً من البراندي في راحة يده وراح يفرك صدغيه به ، ولكن النجاح لم يتوّج أياً من أفعاله .

وانقضت برهة وجيزة من الزمن ، ثم علا صوت عربة قادمة على طول الطريق . كانت عربة اسعاف يزين صليب أحمر كبير كلا جانبيها ، ويجريها جوادان صغيران فائقان . وهبط من العربة رجلان في ثياب أنيقة ، ذهب أحدهما إلى مؤخرتها ، وفتح الباب ، وجر من خلاله نقالة متينة الصنع ، اما

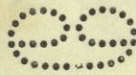
الآخر فأسرع إلى الممر الضيق ، ودفع الفضوليين المحتشدين حول الرجل
الطريح ، وحمل بمساعدة احدهم الهر يبسام من الدرب حتى الطريق الرئيسية ،
حيث مدداه على النقالة ، ودفعها به إلى العربة مثاماً يدفع رغيف من الخبز إلى
جوف الفرن . وارتج الباب ، ومن ثم تسلق الرجالن العربة من جديد .
جرى كل ذلك بكفاءة عظيمة ، وبقليل فقط من الحركات المجربة ، فكانه
مشهد من مسرحية في قيد التمثيل . ومن ثم سيق شكر الله يبسام بهيماً ...

لاعب الشطرنج

ستيفان زفايج

أو

كهنات حقيق دافني



من اعطاه بالبحر زينة فخلوا زينة البحر وحدهم وبقوا قليلا من الزمان
 الرقيقين في عالم يقين بالانقياد بين يديهم وولسوا بها في صلاتهم وعبادتهم وخرجوا من ذلك
 من عالم الخلق الى عالم سقيفة يوقدوا فيه نيرانها بطايرهم يعفون وبقوا قليلا من الزمان
 الزمان حتى يخلصوا من عالم النار الى عالم رقيق في كنوعه وبقوا قليلا من الزمان
 في عالم رقيق لا يخلو من ملحقه رقيقه وبقوا قليلا من الزمان في عالم رقيق لا يخلو
 الخلق انبياءه ولسيدنا محمد رقيب في كنوعه . رايتم عالمية رايتم سره نه باوشه
 وعندئذ صرخ شكر الله بيسام مرة اخرى بكل قواه :

- اخرج ، اخرج ، حالا ايها الاحمق الجاهل !

ورقم بذراع الواحد نصف دائرة كبيرة .. ومن ثم تهاوى على الارض .
 ورقد فوق التراب ، وقد استكانت صوته بقعة ، شبه بكومة سوداء محاطة
 بحشد فضولي 'طلعت' . وانقلت من رأسه قبعة العريضة الحفاف ، ودارت
 فوق الارض دورة قصيرة ، ثم استقرت غير بعيد عن صاحبها .

وانحنى عاملان فوق بيسام الذي يارتجى كل حركة ، وتبادلا الرأي في
 أمره بتلك اللهجة البسيطة العاقلة التي يتكلم بها الشعب العامل . ومن ثم نهض
 احدهما على قدميه ، وابعد راكضا ، اما الآخر فراح يجري اطروح الارض
 القاعد الوعي بعض الاسعافات ، إذ رماه بقليل من الماء من إناء يحمل به ، وحسب
 قليلا من الزمان في راحة يده وراح بفرك صدغيه به ، ولكن التراجع لم
 ينجح أيا من أفعاله .

وانقضت برهة وجيزة من الزمن ، ثم علا صوت عربة قادمة على طول
 الطريق . كانت عربة اسعاف بزن صليب أحمر كبير كلا جانبيها ، ويجرها
 جوادان صغيران فاتتان . وهبط من العربة رجلان في ثياب أليفة ، ذهب
 أحدهما إلى مؤخرتها ، وفتح الباب ، وجاز من خلاله نقالة متينة الصنع ، اما

لاعب الشطرنج

ستیفات زفایج

او

کنوان، حقیق و ارضائی.

في الحشا بعدا

جاءت من القيد

ع

بالتكوا، بفتح الكاء، ان لم يفتح

ستيفان زفايج

الكتاب لفظي

١٨٨١ - ١٩٤٢

كان يرى ان « الأدب ليس هو الحياة » ، بل لا يعدو كونه « وسيلة للسمو بها ، وسيلة لإدراك مأساتها بصورة أكثر وضوحاً وتفهماً » ، وإذا فقد كان يطمح إلى السفر ، كي « يعطي وجوده السعة ، والكمال ، والقوة ، والمعرفة ، ويربطه في الوقت ذاته بجوهر الأشياء وأعماقها » . وهكذا فقد تنقل في شتى الأقطار ، الأوروبية ، والأميركية ، والآسيوية ، وتعرف الى مختلف الرجال وسائر المدنات ، مستمداً من معيها دوماً ما يضيف على كتاباته العمق والقوة اللذين جعلاه منه ، على حد تعبير الكاتب الفرنسي جول رومانس الذي كان صديقاً جليماً له ، « أحد المفكرين السبعة الأكثر عمقاً في أوروبا بأسرها » . وكان إنتاجه غزيراً جداً ، فقد ترجم إلى اللغة الألمانية مؤلفات فراهيرن الكاملة ، وما لا يحصى من أشعار فرلين ، وبودليز ، ورامبو ، وسوياريس ، ساعياً من وراء ذلك إلى تتين أوامر المعرفة الفكرية بين مختلف الأوطان الأوروبية التي كان يرى فيها جميعاً موطنه الفكري الوحيد ، وكتب عدداً كبيراً من القصص ، والقصة الألمانية تساوي دوماً رواية كاملة ، وكثيراً من الدراسات عن أدباء أو شعراء (بلزاك ، تولستوي ، دستوفسكي ، نيتشه ، رومان رولان ، فراهيرن ...) والتاريخية (فوشيه ، ماري انطوانيت ، ماري استيوارت ، ماجلان ...) ، تعتبر جميعاً من أفضل ما كتب عن هذه الشخصيات جميعاً التي وجدت فيه مترجماً جديراً بها كل الجدارة .

ولقد كان بأسه شديداً للغاية ، عندما رأى أوروبا تمزق أوصالها بينها ، وشعوبها تتناحر « كالثيران الهاشجة فوق الهوة التي ستتردى جميعاً فيها » كي نستعير تعبير رومان رولان ، بحيث فضل أن يضع حداً لحياته ، ولقد فعل ذلك في ٢٢ شباط عام ١٩٤٢ ، في البرازيل حيث التجأ ، وكان له من العمر إحدى وستون سنة .

فيها . وهذا هو الآن في طريقه إلى الأرجنتين يقتطف أكاليل جديدة .
وعندئذ فقط تذكرت ذلك البطل الشاب ، وتذكرت كذلك بعض تفاصيل
حياته الغريبة . ولكن صديقي كمثل - وهو الذي يقرأ الصحف أكثر مني -
ذكر يائي هذه بعدد كبير من النوادر التي رواها لي .

لقد أصبح جنتوفنك ، قبل عام واحد فقط ، وبصورة مفاجئة لم تكن
في الحسبان ، نداءً لأشهر أسياذ رقعة الشطرنج ، ولم يعد لأجيشين ، وكابابلانكا ،
وتارناكومير ، ولاسكر ، وبوغولجوبوف ما يهملونه إياه . إن العالم لم يعرف ،
منذ تفوق الطفل الصغير المعجزة ، رجيسيو سكي ، البالغ من العمر سبع سنوات ،
في جولة نيويورك عام ١٩٢٢ ، شخصاً فامضاً يلفت انتباه البشر أجمعين ، بمثل
هذا البريق ، إلى أخوية لاعبي الشطرنج الشهيرة . ذلك إن إمكانيات جنتوفيك
الفكرية لم تكن تسمح في حال من الأحوال بالتنبؤ له بمستقبل متألق على
الاطلاق . وقد كانت الاشاعات تروج في كل مكان ، مدعية أن هذا البطل
أعجز من أن يكتب جملة واحدة ، حتى في لغته الأم ، دون أن يرتكب
أخطاء فادحة في الاملاء ، وإن « عدم ثقافته عمومية شاملة » بكل تأكيد ،
حسب تعبير أحد زملائه الساخطين .



طان جنتوفيك ابن فلاح سلافي بائس يعمل على نهر الدانوب ، غرق قاربه ذات ليلة داجمة عندما اصطدم به مركب بخاري محمل بالقمح . وكان في الثانية عشرة من العمر عندما وافت المنية أباه ، فأخذه كاهن القرية إلى بيته ، وراح يجهد ، بدافع من طيبة قلبه الفائقة ، وبكل إخلاص وتفاني ، أن يحمل ذلك الصبي البليد ، الصموت أبداً ، على تكرار الأمثولات التي لم يستطع أبداً أن يتعلمها في المدرسة .

ولكن محاولاته ذهبت جميعاً أدراج الرياح ... إن ميركو يحني جبينه فوق أحرف الكتابة التي أوضحت له رموزها حتى الآن مائه مرة أو يزيد ، ويروح يصرو إليها بعين فارغة جامدة ، يعجز دماغه عن الاحتفاظ حتى بأبسط المفاهيم وأكثرها سهولة ويسراً . وحين بلغ الرابعة عشرة لم يكن يستطيع بعد أن يعدّ إلا إذا استعان بأصابعه ، فإذا طلب منه أن يقرأ صحيفة أو كتاباً لم يقدر على ذلك إلا بعد أن يتكبد أعظم الجهود وأكثرها إرهاقاً . ولم يكن أحد يستطيع ، على أية حال ، أن يهتمه بتعمد ذلك عن سابق عزم وإصرار ، فهو ينفذ في خضوع واستسلام تامين كل ما يؤمر به ، فيستقي الماء ، ويكسر الحطب ، ويحرث الحقل ، وينظف المطبخ دون أن يتدبر قط أو يشكو ، وباختصار ، فقد كان ينجح كل الخدمات التي تطلب منه بأمانة وإخلاص ، ولكن ببطء ، يحمل في الحقيقة على شيء كثير من اليأس والألم .

ولكن شيئاً كان يحزُّ في نفس الكليريكي الصالح أكثر من كل شيء .
آخر ، ألا وهو اللامبالاة المطابقة التي يديها ذلك اليتيم الغريب نحو مختلف
الأمور على حد سواء ، فهو لا يبادر إلى أي عمل من تلقاء نفسه ، ولا يطرح
الأسئلة مطلقاً . ولا يلعب أقرانه ويتسلى وإياهم ، بل لا يكاد ينهي من العمل
الذي أسند إليه حتى تجده معتصماً في إحدى زوايا الغرفة شاردأً عن كل ما يحيط
به ، سواه أشبه ما تكون بسماء تلك الخراف التي ترعى العشب في المسافات
الشاسعة ، لا يلقي أدنى اهتمام إلى كل ما يجري حوله من أهوار وأحداث .
وكان الكاهن يشعل غايونه إذا ما هبط المساء ، ومن ثم يلعب مع الرقيب
في سلاح الخيالة أسواط الشطرنج الثلاثة اليومية المعتادة ، فيقترب المراهق
عندئذ ، بشعره الأسنقر الكثيف المشعث ، من المائدة ، وروح يرمق في صمت
رقعة الشطرنج بعينين يحالهما المرء نائميتين تحت أجفانهما الثقيلة .

وفي ذات مساء ، في ملء الشتاء ، بينا اللاعبين غارقان في لعبهما ، إذا رنين
أجراس عربية منطلقة في الشارع بأقصى سرعتها يطرق سمعها ، ومن ثم يندفع
فلاح إلى داخل المنزل تبدو عليه امارات العجلة والاضطراب ، وروح يسأل
الكاهن ، وقبعته مكسوة بالثلج المتساقط بغزارة خارج الأبواب ، أن يرافقه
كي يتناول الأسرار المقدسة لوالدته التي تلفظ أنفاسها الأخيرة . ولم يتوان
الكاهن لحظة عن اللحاق به ، بينما أشعل الرقيب - الذي لم يكن قد افرغ بعد
قدح الجمعة الذي يهب منه - غايونه ، وأخذ باحتذاء جزمته الثقيلة استعداداً
للرحيل ، حين لاحظ على حين غرة أن انظار ميركو لا تبرح معاقبة في عناد
بشوط الشطرنج الذي لم ينته .

قال مازحاً ، لأنه كان واثقاً كل الثقة من أن ذلك الناعس الصغير لا عاجز
من أن يحرك بندقاً واحداً على رقعة الشطرنج بصورة صحيحة :

- ايه ! حسناً ! أتريد أن نكمل الشوط معاً ؟
فرقع الصبي رأسه في استحياء عظيم وأشار به أن نعم ، ومن ثم اتخذ
مكان الكاهن . وهذا الرقيب مغلوب على أمره بعد أربع عشرة حركة
فقط ، ومجبر على الاعتراف أيضاً بأنه لا يدين بهزيمته إلى إهال من جانبه .
ولم يكن حظه في الشوط الثاني بأسعد منه في ذلك الشوط الأول الناقص .
صاح الاكليريكي مذهولاً ، عندما عاد من الواجب الديني الذي استدعاه :

- ولكن ، هذا وربي حمار للغاية !
وراح يوضح للرقيب ، وهو أقل رسوخاً منه في أمور الكتب المقدسة ،
كيف حدثت مثل هذه المعجزة قبل ألفين من السنوات قد خلت وانقضت ،
حين لفظ مخلوق آخر أبكم ، بصورة مفاجئة ، كلمات ملأى بالحكمة والفهم .
ولم يستطع الأب الطيب ، بالرغم من تقدم الليل ، أن يقاوم الرغبة في
منازلة الصغير الذي يعيش في حماه ، ولكن ميركو ألحق الهزيمة به في
سهولة ويسر عظيمين . كان يلعب في بطة وعناد ، ثابت الجنان ، لا يرفع
جبينه العريض مطلقاً عن رقعة الشطرنج التي يتيحني عليها ، لكن سلامة
تكتيكه وثباته كانا أمرين لا يتطرق الشك إليهما البتة ، بحيث لم يستطع
الرقيب ولا الكاهن ، طوال الأيام اللاحقة ، أن يربحاه منه شوطاً واحداً أبداً .
وتملك الراهب ، وهو الذي يعرف أكثر من أي إنسان آخر تأخر تلميذه في
عدد كبير من الميادين الأخرى ، فضول عظيم في أن يعرف إلى أية درجة
تذهب هذه الموهبة الفريدة به ، فقاد ميركو إلى حلاق القرية ، وقص تلك
الكتلة من الشعر التبي اللون التي تكلل رأسه كي يجعله أكثر لياقة في أعين
الناس ، وانطلق به في الزحافة إلى المدينة المجاورة الصغيرة حيث كان يعرف
عدداً كبيراً من لاعبي الشطرنج المتحمسين ، الذين يتفوقون عليه في فنون

هذه اللعبة، والذين يحملون دوماً إحدى الموائد في زاوية من مقهى الساحة العامة.
وعندما دخل، دافعاً إلى الأمام منه هذا الصبي البالغ الخامسة عشرة،
الشاحب الشعر، المضرج الخدين، المكسوة الكتفين بجلد خروف مقلوب،
راح سائر المقيمين في المقهى يحملقون فيه بأعين كبيرة متسائلة. وظل الفتى
مسمراً في مكانه، مطرق البصر في خجل شديد، حتى دعي أخيراً إلى
إحدى الموائد. ولكنه خسر الشوط الأول، لأنه لم يرَ من قبل قط مربيه
الطيب، ولا الرقيب في الخيالة خصمه، يمارسان ما يدعى بالافتتاح الصقلي.
وفي الشوط الثاني خرج متعادلاً من مباراته مع أفضل لاعب في ذلك المقهى،
بينما تغلب في الجولة الثانية على سائر اللاعبين، الواحد تلو الآخر، دون أن
يستطيع أي منهم الصمود في وجهه.

وهكذا كانت مدينة يوغوسلافية صغيرة مسرح حدث خفقت له القلوب،
وكان أهلها شهوداً على انتصارات هذا البطل القروي الأولي. وقرَّ عزم
الجميع، بالاجماع، أن يبقوا هذا الفتى المعجزة حتى الغد، كي يستطيعوا إعلام
بقية أعضاء النادي بوجوده، وبصوره خاصة الكونت العجوز سيمبجيك،
لاعب الشطرنج المهووس. ولم يكن الراهب، الذي راح يرى إلى تلميذه باعتزاز
جديد، يستطيع أن يهمل واجباته الرعوية، ولكنه أعلن عن استعداد له لبقاء
ميركو في رعاية هؤلاء السادة، كي يتمتعوه بصورة أفضل، بحيث يستقر
جنتوفيك الصغير في فندق المدينة، على حساب اللاعبين، فشاهد في ذلك المساء،
للمرة الأولى في حياته، غرفة قد ألحق بها حمام خاص...

وظل الصبي جالساً بعد ظهر يوم الأحد، في قاعة غاصة بالحضور، أمام
رقعة الشطرنج طوال أربع ساعات تاهراً سائر خصومه على الإطلاق دون
أن يتحرك من مكانه قط، أو يتفوه طوال ذلك الوقت بكلمة

واحدة ، أو يرفع عينيه عن الرقعة مرة واحدة . واقتراح أحد الحضور شوطاً مشتركاً ، فوافق اللاعبون ، ولكنهم لم يستطيعوا إلا ببجد عظيم أن يفهموا ذلك الفلاح اللفظ أنهم يريدون منه أن ينازل ، وحيداً ، عدة خصوم دفعة واحدة . ولكنه لم يكن يفهم ما يعنون ، حتى انصاع لهم دون إبطاء ، وراح يتنل ببطة من طاولة الى أخرى ، وحذاءه يقرع الأرض قرعاً غليظاً ، وريح في الختام سبعة أشواط من أصل الأشواط الثمانية التي لعبها .

وعندئذ ابتدأت مشاورات طويلة ، إذ بالرغم من أن البطل الجديد لم يكن من مواطني المدينة بكل معنى الكلمة ، فإن روح العصبية المحلية قد استيقظت في قلوب الحاضرين . من بدري اذا كانت هذه المحلة الصغيرة التي يكاد وجودها ألا يجد له مكاناً على الخارطة ، لن نحظى بالشهرة والمجد إذ تمنح العالم رجلاً شهيراً ؟ وتقدم مدير مسرح يدعى كيلر ، كان يعهد بتزويد مقهى حامية المدينة بالآفاني والمغنيات ، وأخذ على عاتقه أن يقود هذا الفتى العجيب الى فيينا ، عند استاذ ملحوظ سوف يكمل تلقينه مبادئ هذا الفن ، حسب تعبيره . ولكن لم يكن بد في سبيل ذلك من أن يتبرع بعض الناس بتكاليف إقامة سنة كاملة في العاصمة ، فأسرع الكونت سيميجيك ، الذي لم يلاق طوال ستين سنة من الممارسة اليومية مثل هذا الصبي العجيب خصماً باعثاً على الدهشة ، يوقع شيكاً في التو واللحظة . هكذا كانت ادائل الشهرة الغريبة التي حظي بها ابن الملاح هذا .

وتعلم ميركو خلال ستة شهور أسرار تكنيك لعبة الشطرنج . كانت معارفه ، في الحقيقة ، محدودة جداً ، يلاحظ الناس ذلك ، فيضجكون منه في أغلب الأحيان في الحلقات التي انضم إليها فيما بعد . ذلك أن جنفوك لم يتدرق قط أن يلعب شوطاً واحداً بصورة مجردة ، أو عمياء كما يقولون ، بل هو عاجز كل

العجز عن تصور رقعة الشطرنج في الفراغ ، يحتاج بالأحرى أبداً الى أن يشاهد البيوت الأربع والستين السود والبيض ، وقطع اللعب الاثنتين والثلاثين ، حية ومموسة أمام عينيهِ . وحتى عندما طبقت شهرته آفاق العالم بأسره ، فقد كان يحمل معه دوماً رقعة شطرنج في جيبه ، كي يستطيع أن يدرك بصورة أفضل مراكز البنادق اذا ما اراد ان يحل احدى المشاكل ، او يراجع الاشواط التي لعبها سيد سابق من سادة الشطرنج .

وكان هذا العيب ، الذي يمكن التغاضي عنه في حد ذاته ، يكشف فيه بصورة واضحة نقص الخيال الذي يعيبه ، فيكثرُ الناس الذين يحيطون به التعليق على هذه الناحية ، كما يفعلون بين الموسيقيين بعازف شهر او رئيس اوركسترا لا يستطيع ان يعزف أو يدير العزف ما لم تكن دفاتر الموسيقى مفتوحة أمام عينيهِ .

ولكن هذه الخاصة لم تعق أبداً تقدم ميركو المدهش ، فهو قد فاز بعشر من الجوائز ولما يتجاوز السابعة عشرة ، كما أصبح بطل هنغاريا في الثامنة عشرة ، وبطل العالم أجمع في العشرين . ولم يستطع أكثر اللاعبين اقداما ، هؤلاء الذين كانوا يتفوقون على جنتوفيك ان بالدكاه ، أو بالخيال ، أو بالجرأة ، بمالا يقاس ، أن يقاوموا منطقة البارد الذي لا يعرف معنى الشفقة أبداً . لقد وجدوا أنفسهم أمامه أشبه بنا بليون تجاه كوتوزوف الثقيل ، أو هانديال في وجه فابوس كونكنا تور الذي يروي تيت ليف عنه ان امارات البلاهة كانت بادية عليه بكل وضوح في مطلع عمره .

كان معرض أساندة الشطرنج يضم ، حتى ذلك الحين ، أكثر نماذج الذكاء تنوعاً ، من الفلاسفة حتى سادة الرياضيات ، وهم جميعاً يتحلون بأدمغة تمتاز بقوة الخيال ، وبقوة الابداع في كثير من الأحيان . ولكن شخصاً غربياً

عن عالم الفكر قد اتخذ مكانه في ذلك المعرض منذ ذلك الحين ، في سماء هذا الفلاح
الفظ الصامت الذي لم يستطع اخذق الصحفيين أن يسترخوا منه قط أية كلمة
تنفعهم في كتابة مقالاتهم .

وصحيح انهم كانوا يعرضون عن ذلك جيداً برواية ما لا يحصى من
النوادر عنه ، لأن جنتوفيك كان يصبح ، منذ اللحظة التي يغادر فيها رقعة
الشطرنج حيث تنجلي سيطرته بصورة لا تقبل الجدل او الريبة ، امرأاً
مضحكاً ، يكاد ان يكون هزأة بالرغم من رداءه الاسود الاحتمالي ، ومن
ربطات عنقه التي تزينها ماسة ضخمة بصورة تدل على الثراء والابهة . كان
ما برح يحتفظ في الحقيقة ، بالرغم من يديه النظيفتين بأظافرهما المصقولة
بهناية تامة ، بعادات الفلاح المحدود التفكير وسلوكه ، هذا الذي كان يكس
فيما مضى غرفة الراهب الذي اخذه في رعايته .

وكان لا يفكر ، في وقاحة خرقاء لا تعرف معنى الحياء او الخجل ، وقاحة
كان زملائه يجدون فيها باعثاً على الضحك تارة ، وحاملاً على القضيحة تارة
اخرى ، الا في كسب اقصى ما يمكن من موهبته وشهرته جميعاً . ولم يك
جشعه يتراجع امام اية حقارة مطلقاً ، فهو يتنقل كثيراً ، ولكن لا يهبط
دوماً الا في فنادق الدرجة الثالثة ، ويقبل باللعب حتى في النوادي المغمورة
التي لا يدرى الناس بوجودها ، بشرط ان يتقاضى اجوره على ذلك . ولقد
شوهه على اعلان ملصق بالجدران يقوم بالدعاية لنوع من الصابون ، كما باع
توقيعه ، دون ان يأبه للساحرين الذين يعرفون حق المعرفة عجزه عن كتابة
جملة صحيحة واحدة ، ناشر يطبع « فلسفة لعبة الشطرنج » ، هذا المؤلف الذي كتبه
في الحقيقة لهذا الناشر ، وهو رجل الاعمال الخادق من دون ريب ، طالب

جاليسي معدم يسعى وراء الرزق وكسب حياته .

ولم يكن جنتوفيك ، شأنه في ذلك شأن سائر الذي ركبهم العناد ، يفقه معنى للسخرية والامور التي تبث عليها . كان يحسب نفسه ، منذ أصبح بطل العالم ، أكثر شخصيات الانسانية أهمية ، فاذا وعيه للانتصارات التي يسجلها على أناس أذكىاء ، ومحدثين لامعين ، وأساطين القلم والكتابة ، وبصورة خاصة كونه يكسب من المال أكثر مما يكسبون ، يميلان خجله الفطري زهواً بارداً ينشره في فظاظة تامة على سائر الناس .

واختتم صديقي حديثه قائلاً ، بعد أن روى لي بعض الخصائص المميزة لاعتداد جنتوفيك بنفسه ، هذا الاعتداد المخوف بكثير من الأخطار :

« ولكن كيف يمكن لمثل هذا النجاح السريع ألا يسكر نخيحاً بمثل هذا الفراغ ؟ كيف تريد من فلاح صغير من بانات ، يبلغ الحادية والعشرين من العمر ، ألا يسكر غروراً عندما يرى انه يكفيه أن يدفع بعض القطع الخشبية على لوحة ذات مربعات كي يربح في اسبوع واحد أكثر مما يربح سائر سكان قريته في سنة كاملة من الاحتطاب وبقية الأعمال المرهقة المائلة ؟ ثم أليس من السهل بصورة شيطانية حقاً أن يظن المرء نفسه إنساناً عظيماً عندما يكون جاهلاً كل الجمل بأن رابرانت ، أو بهوفن ، أو دانتي ، أو نابليون ، قد وجدوا في فترة من الزمان على وجه هذه البسيطة ؟ إن هذا الفتي لا يعرف إلا شيئاً واحداً وراء جبينه المقل ، ألا وهو أنه لم يخسر شوطاً واحداً من الشطرنج منذ أشهر عديدة . ولما كان وانقاً كل الثقة من أنه لا يوجد في الكون قيم أخرى سوى الشطرنج والمال ، فإن له الحق في أن يكون مسروراً من نفسه هكذا ، راضياً عنها حتى الدرجة القصوى .

وأثارت هذه الأحاديث التي قصتها صاحبي علي فضولي وأرسلته ،
فالناس الذين تملك عليهم فكرة واحدة سائر مشاعرهم قد شغلوا بالي دوماً ، إذ
كلما ضاقت الحدود بفكر ما ، كلما اقترب من اللانهاية من جهة أخرى . ان
هؤلاء القوم الذين يعيشون في وحدة حسب الظواهر يننون ، بموادهم الخاصة ،
وعلى غرار دود الأشجار ، عوالم مصغرة ذات طابع متميز تماماً . وهكذا فقد
أبدت عزمي على مراقبة هذا النموذج الغريب من النمو الفكري الوحيد
الجانب ، وملاحقته عن قرب ، والاستفادة جيداً في سبيل ذلك من الايام
الاثني عشر التي تفصل بيننا وبين مدينة الريو .
حذرني صاحبي قائلاً :

— ان حظك في الوصول الى غاياتك سوف يكون ضئيلاً جداً ، فليس
انسان قد نجح ، فيما أعلم ، في استدرار اي استقراء نفسي من جنتوفيك . ان
هذا الفلاح ليمتع بما يكفي من الحب ، فيما وراء بلاهته التي لا يسبر غورها ،
كي لا يخون نفسه قط . وان طريقته في ذلك بسيطة للغاية ، فهو يعجنب كل
حوار ، اللهم الا محادثة مواطنيه الذين يماثلونه في كل شيء ، والذين يلقاهم في
بعض الفنادق التي يرئادها . ولكنه لا يكاد يستشم رائحة رجل مثقف ، حتى
يعود الى قوقعته ، بحيث لا يستطيع أي انسان ان يفاخر بأنه قد سمعه ينطق
بحماسة ما ، أو بأنه توصل الى قياس اتساع جهله العميق .

ولقد أثبتت التجربة صدق هذه الكلمات ، فلقد اضطرت إلى الاعتراف ،
في الأيام الأولى من الرحلة ، باستحالة الاقتراب من جنتوفيك مطلقاً ، اللهم
إلا إذا أبدى المرء تطفلاً فظاً لم يكن يروق لي ، كما أنه لم يكن من عادتي .
كان كثيراً ما يتنزه على سطح المركب ، ولكنه كان يفعل ذلك دوماً في
استغراق ، وفي كثير من التوحش أيضاً ؛ وقد صالبا يديه وراء ظهره على
طريقة نابليون كما تمثله لوحة شهيرة . أضف إلى ذلك انه كان يغادر المكان
دوماً في كثير من المباغلة والعجلة ، بحيث كنت تضطر إلى اللحاق به
خبياً كي تستطيع أن توجه الحديث إليه . ولم نكن نراه لا في المقصف ، ولا
في غرفة التدخين ، ولا في الصالونات ، بل هو يقضي جل وقته - كما اعترف
لي الخادم المكلف بالإشراف على غرف الركاب - في غرفته يتمرن امام رقعة
شطرنج واسعة الأبعاد .

وكانت ثلاثة أيام كافية لاقتناعي بأن تكتيكه الدفاعي أقوى كثيراً من
ارادتي في الاقتراب منه ، الأمر الذي ضايقني جداً في الحقيقة . ان أية معرفة
شخصية لم تسبق لي ببطل في لعبة الشطرنج ، وكنت كلما حاولت ان أتمثل
هذا البطل ، كلما ابتعدت عن غايي . كيف السبيل إلى تصور دماغ مشغول
طوال الحياة بمسألة من أربعة وستين بيتاً مختلفة اللون بين السواد
والبياض فقط ؟ مما لا ريب فيه أنني كنت أعرف بالتجربة ما في هذه
« اللعبة الملكية » من جاذبية ، وهي من بين سائر الألعاب الوحيدة التي تغفلت
من طغيان الصدفية ، الوحيدة التي يدين المرء فيها بنصره لذكائه وحده ، أو
بالأحرى لنوع خاص من الذكاء .

والكن ، أفليس في تسميتها لعبة شيء من التحديد الذي يتضمن معنى
الاهانة بالنسبة إليها ؟ أفليست هي في الوقت ذاته علماً ، وفناً ، أو شيئاً ما

معلقاً بين هذا وذاك ، مثل تلك الصخرة المحمدية المعلقة بين الأرض والسماء ؟
 إن أصول لعبة الشطرنج تضيق في ليل الأزمان ، ولكنها جديدة دوماً
 بالرغم من ذلك ؛ ومسيرها ميكانيكي ، ولكنها لا تنتهي الى أية نتيجة الا
 بفضل خيال اللاعب وقوة تصوره ؛ وهي محدودة بصورة ضيقة في مساحتها
 الهندسية الثابتة ، ولكن تراكيبها لا تنتهي بالرغم من ذلك ؛ وهي تتابع
 تطوراً مستمراً ، لكن تبقى مجدبة دوماً . انها فكرة لا تؤدي الى أي شيء .
 كان ، فن لا يترك أي أثر على الاطلاق ، هندسة عديمة المادة والعناصر معاً . لكنها
 قد برهنت بالرغم من ذلك أنها اثبتت على طريقتهما الخاصة من الكتب او من
 أي نصب آخر ، هذه اللعبة الوحيدة التي تخص سائر الأئمة وسائر الأزمان ،
 والتي لا يعرف احد اي إله قد نفخ الأرض بها كي يقتل الملل ويقضي عليه ،
 ويؤثر الفكر ويؤججه ، ويحرض النفس ويثير كوامنها . أين تبدأ وأين
 تنتهي ؟ ان طفلاً يستطيع أن يتعلم قواعدها ، كما يستطيع جاهل أن يجرب
 حظها في مضمارها ، ويحصل فيها قدرة من نوع خاص فيما لو منح هذه
 الموهبة الخاصة . ان الصبر والنكتيك يجتمعان فيها الى نظرة ثاقبة الى الامور ،
 كي تتوصل جميعاً الى مكشفات أشبه ما تكون بتلك المكشفات التي تحققها في
 الرياضيات ، أو الشعر ، أو الموسيقى .

لعل هوى العلم ، في الماضي ، كان يدفع بغال مثلاً الى تشريح دماغ بطل
 من هذا النوع في لعبة الشطرنج كي يرى ان كانت مادته السنجابية لا تحوي تليفات
 خاصاً ، شيئاً شبيهاً بالعضلة أو بالحدبة يكون مميزاً له عن الآخرين . الى أية
 درجة كانت تثير اهتمامه هذه الحالة الخاصة المتعلقة بامرئ . تتحد عنده موهبة
 نوعية في لعبة الشطرنج الى كسل فكري مطلق ، مثله يركض خيط من
 الذهب في صلب كتلة من الصخر الخام !

صحيح اني كنت أفهم ، مبدئياً ، ان مثل هذه اللعبة الغريبة ، العبقريّة ،
يمكن ان تبعث بأبطال إلى الوجود ، ولكن كيف السبيل الى ادراك حيّة-أية
ذكاء . بأسره ، وقد أحيل إلى هذه الفسحة الضيقة ، ولم يعد يعرف من مشاغل
الحياة الا ان يقدم ويؤخر اثنتي وثلاثين قطعة خشبية على مربعات سود
وبيض ، ملقياً في هذا الغدو والرواح مجد حياته بكامله ! كيف السبيل إلى
تصور انسان يرى في إقدامه على افتتاح اللعب بالمارس بالأحرى من أي يدق
آخر فتحاً مجيداً ، ويسجل حصته الصغيرة المسكينة من الخلود في زاوية كتاب
صغير مخصص للشطرنج ! كيف السبيل أخيراً الى تصور إنسان ، إنسان يتمتع
بالذكاء ، يستطيع طوال عشر ، وعشرين ، وثلاثين ، وأربعين سنة ، ودون
ان يصبح مجنوناً ، أن يسعى بكل قوى فكره نحو هذا الهدف السخيف : ان
يلصق ملكاً من الخشب في زاوية لوحة من الخشب !

وهذا أنا حالياً ، وقد وجد مثل هذا الحدث الفريد ، مثل هذه العبقريّة
الغريبة - او إذا كنتم تفضلون ذلك فلا أقل مثل هذا المجنون الغامض - قريباً
مني للمرة الأولى على ظهر المركب نفسه ، وعلى بعد ست غرف مني فقط ، أرى
من المستحيل عليّ الاقتراب منه ، انا الذي تملكني دوماً فضول لاهب تجاه
الأشياء المتعلقة بالفكر . ورحت أخترع الخطط الأكثر عبثاً وسخافة : لو
أطلب منه مقابلة لصحيفة كبرى وهمية ؟ أو إذا اقترحت عليه جولة كثيرة
المنافع في اسكوتلندا ؟ وتذكرت أخيراً أن الصياد يجذب الطريدة اليه بتقليد
صيححتها ، في فصل الحب والزواج ، وان أفضل وسيلة لاجتذاب انتباه لاعب
شطرنج هو اللعب بالشطرنج بكل تأكيد .

وفي الحقيقة إنني لم أكن قط فناناً جدياً في هذا المضمار ، لأنني لا أعب
الشطرنج إلا في سبيل التسلية ، ولا أجلس أمام رقعة إلا سعيّاً وراء بعض

الراحة لفكري المتعب . فأنا لا أعب ، بل أتسلى بالآخرى ، إذا أردنا الدقة في التعبير . ثم ان المرء يحتاج في الشطرنج ، مثله في الحب ، الى شريك ، وأنا لا أدري إن كان على سطح هذا المركب هواة فيما عداي وزوجتي . وانخذنا مكانينا في قاعة التدخين ، امام رقعة للشطرنج ، كي نجتذب هؤلاء الهواة فيما لو وجدوا ، وشرعنا في اللعب . ولم نكد نقوم بست حركات على الرقعة حتى توقف إلى جانبنا أحد المتزهرين ، ثم لحق به متنزّه آخر ، وسألانا السماح لهما بالتفرج على لعبنا .

وأخيراً طلب مني أحد الحضور أن أعب شوطاً وإياه . كان مهندساً اسكوتلندياً يدعى ماك كونور ، قد جمع ثروة طائلة ، فيما قيل لي ، من حفر آبار البترول في كاليفورنيا . وكان مربوع القامة ، مربع الفك ، متين الاستنار ، يدين بتضريح بشرته للوبسكي حتى درجة بعيدة . وكان عرض منكبیه الفائق ، الباعث على الدهشة ، يبدو حتى في لعبه ، لأن ماك كونور كان من ذلك النوع من الرجال الذين توصّلوا إلى النجاح في الحياة ، والذين يطفحون بالاعتداد بأنفسهم حتى يجدوا الخسارة إهانة واذلالاً شخصياً لهم ، وإن لم تك تلك الخسارة أكثر من شوط بري . من الشطرنج . كان هذا الرجل الذي « صنع نفسه » ، وقد اعتاد على فرض ذاته بصورة عنيفة بعد ان أفسدته نجاحاته الواقعية ، مشبعاً للغاية بتفوقه ، حتى يرى في كل معارضة له شيئاً من الفوضى يكاد أن يبلغ مبلغ الشبهة ، ولقد خسر الشوط الأول وهو سيء المزاج ، وشرع بوضوح ، في لهجة المقلط الذي لا يعرف المداراة ، ان سبب هزيمته لحظة من السهو ليس غير . وعندما خسر للمرة الثالثة ، ألقي مسؤولية الخسارة هذه المرة على الضوضاء الماثرة في الغرفة ، ولم يكن يخسر أبداً دون ان يطلب الثأر ، بحيث أن هذا التكالب قد بعث السرور في نفسي أولاً ، ومن ثم لم

أعد أرى فيه إلا حدثاً ثانوياً لا يعوق مشروعى في كثير أو قليل .
ونجحت خطي في اليوم الثالث ، ولكن نصف نجاح اليس غير . هل
لحظاً جنتوفيك من خلال النافذة بينا هو يقنزه على سطح الباخرة ، أم عساه
قد شرف قاعة التدخين صدفة بحضوره ذلك اليوم ؟ لقد رأيتاه على أية حال
يتقدم بضعة خطوات غير إرادية في اتجاهنا ، ويأتي من بعيد نظرة عارٍ على
رقعة الشطرنج حيث كنا نتطفل بممارسة فنه . وفي تلك اللحظة بالضبط كان
ماك كونور ينقل أحد البيادق . وا أسفاه ! لقد كانت هذه الحركة الوحيدة
كافية كي تبرهن للمعلم مبلغ عدم جدارتنا باهتمامه الملكي ، فإذا هو يبتعد عن
مائدتنا ويغادر قاعة التدخين بتلك الإشارة من اليد التي يدفع بها المرء عادة رواية
بوليسية وقع عليها على أحد رفوف المكتبة ، حتى دون أن يتصفحها . قلت
في نفسي ، وقد تأملت كثيراً من تلك النظرة المشيعة بالازدراء :

— لقد زاننا ، ووجدنا أخف مما كان ينتظر .
ومن ثم توجهت إلى ماك كونور قائلاً ، معبراً له عما يحول في خاطري :
— يبدو أن ضربك لم ترق للمعلم .

فسأل :
— أي معلم ؟

فأوضحت له أن هذا السيد الذي مررتوه قريباً منا ، وألقي على
لعيننا نظرة معتقة ، هو جنتوفيك ، بطل العالم في لعبة الشطرنج .
وأضفت :

— حسناً ! لم يعد لنا إلا أن نتحمل هذه الإهانة ، ونعكف مع ازدرائه
دون أن نأبه له كثيراً ، فلا بد للبائسين من أن يطهروا طعامهم بالماء .
ولكن هذه الكلمات التي تفوهت بها في لا مبالاة تركت في ماك كونور

قال نور
 استند البطل
 لانني اريد ان
 اكون والحمد لله

أترأ مذهشاً ، فقد بدا عليه الهياج الشديد حتى نسي الشوط الذي بدأناه ، ومن
 ثم أعلن - والغرور ينفخ صدغيه نفخاً - إنه لم يخطر له على بال قط ان
 جنتوفيك يرافقنا على ظهر المركب نفسه ، وأنه يريد بأي ثمن كان أن يلاعبه ،
 وأنه لم ينازل من قبل قط مثل هذا البطل ، اللهم إلا مرة واحدة ، بالاشتراك
 مع أربعين شخصاً آخرين ، أثناء شوط مشترك كان رائعا للغاية كاد أن يخرج
 منه ملتصراً ظافراً ، سألتني ان كنت أعرف الشخصية الشهيرة ، ولما أجبته بالنفي
 اقترح أن باستطاعتي التقدم إليه وسؤاله الانضمام إلينا . ولكنني رفضت ،
 متذرعاً بأن جنتوفيك لا يرغب كثيراً ، فيما أعلم ، في عقد صلات جديدة ،
 أضف الى ذلك اني لا أجد أين يمكن المرور في شوط يتبارى فيه لاعب
 عالمي مع لاعبين من الدرجة الثالثة .
 وأعترف اني قد أخطأت باستعالي هذا التعبير عن لاعبي الدرجة الثالثة
 أمام رجل في مثل غرور مالك كونور ، فقد ارتقى الى الورا ، وأعلن في صوت
 جاف أنه لا يعتقد ، شخصياً ، ان جنتوفيك قد يرفض دعوة لطيفة يتوجه اليه
 بها سيد نبيل ، وإنه سوف يأخذ هذا الأمر على عاتقه . ولم أكد أصف له
 شخص البطل ، بذاء على طلبه ، حتى انطلق في اندفاع يفتش عنه على سطح المركب ،
 فأدركت مرة أخرى إنه يستحيل أن يعترض المرء صاحب هذين الكتفين
 العريضين إذا ما وضع مشروعا في رأسه مرة ، ورحلت انتظر النتائج اللاحقة
 في شيء من القلق . ولم تمض عشر دقائق حتى رجع مالك كونور ، لا
 يبدو عليه مطلقاً انه اكثر هدوءاً منه حين غادرنا .
 سألته : لا تلاحظ شيء من هذا ؟
 - حسناً ؟
 فأجابني : مضطرب البال :

- إنك على حق ، فهذا السيد ليس على شيء من اللطف . لقد قدمت
نفسي إليه ، مع ألقائي ، ولكنه لم يتنازل فيمده إلي يده ، وجربت عندئذ
أن أوضح له كم نكون جميعاً ، نحن الركاب ، سعاداء إذا قبل أن يلعب
ضدنا شوطاً مشتركاً ، ولكنه ظل جامداً كالصفا ، وأجابني انه يأسف لذلك ،
لأنه تعهد باتفاقية خطية ألا يلعب قط . خلال جولته بأسرها ، دون
أن يتناول أجراً ، وانه مضطر لذلك إذن أن يطلب مائتين وخمسين دولاراً
كحد أدنى لقاء كل شوط من الأشواط .
فانفجرت ضاحكاً ، وقلت :

- إني لم أفكر قط ان تحريك البيادق من مربع أسود الى مربع أبيض
هو عمل يدر كل هذه الأرباح . آمل أن تكون قد استرددت منه ، بأدب ،
كل الاحترام الذي قدمته له .

ولكن ماك كوني نور ظل محتفظاً بكل مظاهر الجدد .
- إن الشوط سيجري بعد ظهر غد ، في تمام الساعة الثالثة ، في قاعة
العدخين هذه . أرجو ألا نسمح بأن تلحق الهزيمة بنا بسهولة .
فهمت ، مذهولاً متعجباً :

- ماذا ؟ لقد قبلت بشروطه ؟

- لم لا ؟ تلك هي مهمته . لو ألتني أضراسي ، وكان هناك طبيب أسنان
على سطح المركب ، فاني لن أطلب منه أن يقلع لي ضرسي مجاناً . ان جنتوفيك
على حق تام ، والناس القادرون حقاً قد عرفوا دوماً كيف يسيرون أعمالهم .
أما من جهتي فاني أرى ان الصفة كلما ازدادت وضوحاً كلما ازدادت قيمة ،
ولذا فاني أفضل ان أدفع من أن اعتمد على أفضال السيد جنتوفيك ، وأكون
مجرداً على شكره في النهاية . وعلى أية حال فقد حدث لي ، في نادي ، أن

خسرت أكثر من مائتين وخمسين دولاراً في أمسية واحدة ، وذلك دون أن
أتمتع بلذة اللعب ضد بطل عالمي . ليس من العار ، بالنسبة الى لاعب من الدرجة
الثالثة ، أن يُغلب من قبل جنتوفيك .

كان غرور ماك كونور قد جرح عميقاً ، بكل تأكيد ، بهذا التعبير
البريء عن « اللاعب من الدرجة الثالثة » . ولكن ما دام عازماً على تحمل
تكاليف هذه اللذة الغالية ، فلم يمدّ يده لأي اعتراض على مشروعه الذي سيسمح
لي أخيراً أن أرى عن قرب تلك الشخصية الفريدة التي تثير فضولي . وأسرعنا
نخبر بالحادث اللاعبين الأربعة أو الخمسة الذين نعرفهم بين الركاب ، كما
احتملنا سائر الموائد المجاورة لمائدتنا ، كي نكون هادئين ما أمكن في
الغداة أثناء المباراة .



الكنز عقد جماعتنا الصغيرة في الموعد المحدد من اليوم التالي. وطبيعي أننا
أعطينا ماك كونيور المكان الذي يواجه مكان المعلم مباشرة. كان الاسكو تلاندي
بادي الهياج والعصبية ، يشعل سيجاراً بعد سيجار وهو يتطلع الى ساعة الجدار
دون انقطاع . ولكن بطلنا الشهير تأخر عن القدوم طوال عشر دقائق ،
الأمر الذي لم يدهشني مطلقاً بعد أحداث صدقي ، ومن ثم دخل القاعة في
شيء كثير من الأبهة الوقحة ، وتوجه نحو المائدة بخطى هادئة موزونة ،
ودون أن يقدم نفسه ، وكأنه يريد بذلك أن يقول : « أتمتع تعرفون من
أكون ، وليس يعني أن أعرف من تكونون » ، أخذ ينظم البيادق على
رقعة الشطرنج بجفاء مهني مطلق . ولما كان يستحيل أن نلعب شوطاً مشتركاً
عادياً ، بسبب نقص العدد الكافي من رقع الشطرنج ، فقد اقترح ان نلعب
جميعاً ضده ، فيذهب بعد كل حركة الى جانب القاعة الآخر ، كي لا يعكر
علمنا صفوف مشاوراتنا ، فإذا ما لعبنا قرعنا قدحاً من الماء بملقعة صغيرة كي
نخطره بذلك ، مستعميين بهذه الطريقة عن الجرس الذي يعوزنا على سطح
المركب. ولقد اقترح ، إذا لم يكن لدينا مانع ، أن نحدد الزمن الفاصل بين كل
حركاتين بعشر دقائق ، الأمر الذي قبلنا به طبعاً ونحن أشبه ما نكون
بتلامذة خجولين الى جانب أستاذهم المتعجرف . وأعطى الحظ البيادق السود
لجنتوفيك ، فردّ على افتتاحنا دون أن يجلس ، وغداً سربعاً الى أقصى الغرفة ،
الى المكان الذي اختاره كي ينتظر فيه ، وراح يتصفح في إهمال كثير
صحيفة مصورة .

وليس في حديث هذا الشوط المفصل ما يستأهل كثيراً من الاهتمام :
 يكفي أن أقول إننا غلبنا على أمرنا تماماً بعد أربع وعشرين حركة ليس غير .
 أية غرابة في أن يتغلب بطل عالمي ، بكل هذه السهولة ، على عشرة من اللاعبين
 المتوسطين ! ولكن ما أثار نقمتنا بالأحرى هو ذلك الاعتماد والرضى اللذان
 كان جنتوفيك يريد بها أن يشهرنا بتفوقه ، فهو لا يلقى على رقعة الشطرنج إلا
 نظرة شاردة ، ومن ثم يتطلع إلينا في إهمال ، يمر بنا مرّة الكرام وكأننا ،
 نحن الآخرين ، لا نزيد في نظره عن أن نكون قطعاً ميتة من الحشب ، أو
 كلاباً جرباه رميمها المرء بعظم تلوه به وهو يحيد عنها جانباً . ورحت أقول في
 نفسي انه كان يلفت انتباهنا - لو أن فيه شيئاً من اللباقة - الى الأخطاء التي
 ترتكبها ، أو كان يشجعنا على الأقل بكلمة لطيفة لا تكلفه شيئاً . ولكن لا ،
 بل ان هذه الآلة المصنوعة من أجل اللعب قد صاحت ، لدى انتهاء الشوط ،
 هاتفة : « الشاه مات ! » ، ومن ثم بقي واقفاً هناك ، جامداً أخرس ، ينتظر
 أن يعرف ان كان في رغبتنا أن نبدأ شوطاً جديداً . والحقيقة ان المرء يفقد دوماً
 كل وسيلة أمام مثل هذه الجلود الغليظة ، ولذا فقد نهضت ، عانياً بذلك إني
 اعتبر هذه التسليمية قد انتهت ، عندما سمعت - الأمر الذي أثار حفيظتي في
 الحقيقة - ماك كونور يقول الى جاني ، بصوت مبحوح أجش :
 « الثار ! » .

وذهرت للهجته المتجدية ، فقد كان ماك كونور ، في تلك اللحظة ، يشير
 في الخاطر فكرة ملاكم سيوجه اسيد رفيع التربة لكلمة قاضية . هل السبب في
 ذلك طريقة جنتوفيك المثيرة في معاملتنا ، أم طموح ماك كونور المرضي بكل
 بساطة ؟ ان هذا الأخير قد بدا ، على أية حال ، وقد تبدلت طبيعته تماماً ،
 ينفق العرق منه بصورة واضحة ، وقد احمر حتى جذور شعره ، ويبدو

خيشوماه واتسعا ، وراح يعض على شفتيه في حنق شديد ، بينما احتقر غضن عميق بين فمه وذقنه الارادية . وعرفت في عينيه ، وأنا قلق جداً ، ذلك اللهب الذي يشعله الهوى المجنون الذي يملك عادة لاعبي الروليت بعد أن يراهنوا بضعف المقدار ، للمرة السادسة أو السابعة ، علي لون لا تقف الكرة عليه أبداً . وأدركت سلفاً أن هذه المحبة الكلية للذات سوف تكلفه كل ثروته ، وأنه سوف يلعب ويلعب ضد جنتوفيك حتى يربح أخيراً ، ولو مرة واحدة على الأقل . وإذا وجد البطل الصبر على الاستمرار في ذلك ، فهو واجد في ماك كونور منجماً من الذهب يستخرج منه بضعة آلاف من الدولارات قبل أن نباع بيونوس آيرس .

ظل جنتوفيك جامداً لا يطرف له جفن ، وأجاب بأدب جم :

- كما تشاء . فليأخذ هؤلاء السادة البيادق السود .

وابتدأ الشوط الثاني ، شبيهاً في كل شيء بالشوط الأول ، اللهم إلا أن حلقتنا قد انضم إليها بعض الفضوليين . كان ماك كونور يتطلع الى الرقعة في ثبات ، فكأنه يريد أن يسحر القطع كي يقودها الى النصر ، فأحس بوضوح أنه يعطي بكل طيبة خاطر ألفاً من الدولارات كي يصيح : « الشاه مات ! » في وجه خصمه القليل اللباقة . وكان شيء من اندفاعه وحماسته يسري إلينا بالرغم منا ، فنناقش كل حركة في هوى أعظم منه قبلاً ، ولا نتفق إلا في اللحظة الأخيرة كي نعطي جنتوفيك الإشارة التي تدعوه الى مائدتنا . وهكذا بلغنا الحركة السابعة عشرة كي نجد ، لدهشتنا العظيمة ، أن الموقف قد أصبح في صالحنا ، إذ نجحنا في الوصول ببيدق الخط ج ٧ حتى البيت ج ٢ ، ولم يبق إلا أن نتقدم به خطوة أخرى حتى ج ١ حتى نضع ملكته الثانية خارج الميدان . والحققة اننا لم نكن مطمئنين كل الاطمئنان تجاه مثل هذا الخط الظاهري ،

بل كنا نهمهم ، بالاجماع ، جنتوفيك الذي يرى ابعده منا بكل تأكيد ، نرتاب في
أنه يمد لنا هذا الطعام وفي نيته ان يوقع بنا بطريقة ما . ولكننا فقتشنا
وناقتشنا طويلاً ، دون ان نستطيع سبيلاً الى اكتشاف الفخ المنصوب لنا .
وأخيراً قررنا ، وقد قارب الفاصل المحدد أن ينهي ، أن نجازف بتلك
الحركة ، وشرع مالك كونور يدفع البيدق عندما أمسك به أحدهم ، بصورة
مباغتة ، من ذراعه ، وهمس في أذنه في لهجة سريعة :
- بحق السماء لا تفعل هذا !

والتفتنا جميعاً ، بالرغم منا ، كي نرى رجلاً في حوالي الخامسة والأربعين ،
ذا حيا ضيق بارز العظام ، سبق أن التقيت به على سطح المركب ، فلفت انتباهي
بصورة خاصة لشدة شحوبه . لا ريب انه قد اقترب منا ، بينما كنا مستغرقين
جميعاً في لجة المشكلة التي تتطلب منا حلاً لها . وعندما أحس بنظرانا وقد
استقرت جميعاً عليه ، استرسل يقول في اندفاع وعجلة عظيمين :
- إذا ضربتم الملكة الآن ، فإن الخصم سوف يهاجمكم مباشرة بالمجنون
في ج ١ ، فتضطرون إلى الرد عليه بالفارس . ولكنه سيذهب في هذه الأثناء
فيهدد برجكم في د ٧ . بيدقه الحر ، وحتى إذا ألحقتم الهزيمة به بفارسكم ،
فإنكم ستخسرون وتغلبون في تسع أو عشر حركات ليس غير . تلك هي ذات
المراكز تقريباً التي كان يحتلها الجيشين وبوغولجوبوف أثناء جولة يستباف
الكبرى في ١٩٢٢ .

وأقلت مالك كونور ، مذهوشاً ، البيدق الذي ظل ممسكاً به في يده حتى
ذلك الحين ، وتطلع ، مذهولاً مثلاًنا جميعاً ، إلى هذا الرجل الذي يلوح وكأنه
قد سقط من السماء على غزار ملاك منقذ . لا ريب أنه ممتحن كبير للشطرنج ،
وربما منافس لجنتوفيك ، ذاهب إلى الجولة نفسها ، كي يستطيع أن يتنبأ سلفاً

بتسع حركات ستمتهى إلى الهزيمة . كان قدومه وتدخله المفاجيء . في مثل تلك اللحظة الحرجة ، أقرب ما يكونان إلى المعجزات في الحقيقة .
كان ماك كوني نور أول من تماك نفسه ، فهمس بادي الهياج :
- بماذا تنصحنى ؟

- لا تتقدم الآن ، بل تجنب العدو ! قبل كل شيء . أبعد الشاه عن الخطر ز ٨ - ٧ . ولا ريب أن خصمك سوف يهاجم في الجناح الآخر ، ولكنك سترد هجومه بالبرج ، ج ٨ - ج ٤ ؛ وسوف يكلفه هذا حركتين ، ويدقاً ، وتفوقه بالاضافة . وعندئذ تناضلون ، بيدقاً حراً ضد بيدق حر ، فإذا عرفت كيف تدافع جيداً عن نفسك ، فسوف ينتهي الشوط صفراً . انك لا تستطيع أن تنال أكثر من ذلك من مثل هذه الحال .

كانت دهشتنا تتفاقم باستمرار ، فإن دقة حساباته وسرعتها لا يمكن إلا أن تبلبل الخاطر ، وتلقي الاضطراب في الأذهان ، حتى ليخيل إلينا أن هذا الرجل يقرأ حر كاته في كتاب مفتوح . وكان الخط الذي لم تكن تأمل فيه قط ، الخط في أن نخرج متعادلين ، بفضل ، من شوط نباري فيه بطلاً عالمياً ، أقرب ما يكون إلى السحر منه إلى أي شيء آخر . وابتعدنا ، في وقت واحد ، كي نسمح له بالاطلاع على الرقعة بصورة أفضل ، بينما راح ماك كوني يردد :
- هل أحرك الشاه من ز ٨ إلى ٧ ؟

- بكل تأكيد ! يجب أن تتجنب العدو !
أطاع ماك كوني ، ومن ثم قرعنا القدح . فاقرب جنتوفيك بخطواته الهادئة ، وتفحص الرد عليه بنظرة سريعة ، ومن ثم دفع بيدقاً من ٢ إلى ٤ ، على الجانب الآخر من الشاه ، تماماً كما تنبأ بذلك مخلصنا المجهول الذي أمرع فهمس في آذاننا :

البرج ، قدموا البرج من ج ٨ إلى ج ٤ ، كي بضطر الى حماية بيدقة .
ان هذا لن يفيد شيئا على أية حال ! وعندئذ سوف تهاجمون بالفارس ، ج ٣
- د ه ، دون أن تأبها وليبدقة الحر ، واذا كل شيء على مايرام مرة أخرى .
ومن ثم ، فالى الامام ، إذ لن يعود بكم حاجة الى الدفاع .

لم تك نفهم ما يريد أن يقول ، فكأنه كان يتكلم باللغة الصينية . ولكن
ماك كونور ، وقد وقع تحت سيطرته ، فعل ما يطلب منه دون أن يطيل
التفكير ، ومن ثم رن القدح من جديد . وللعرة الاولى لم يلعب جنتوفيك
مباشرة ، بل تطاع قبلاً الى الرقعة بانتباه مركز ، ومن ثم لعب الحركة التي
أخبرنا الغريب بها على وجه الدقة ، وتأهب للابتعاد .

وعندئذ وقع حادث جديد ، لم يك منتظراً على الاطلاق ، فقد رفع
جنتوفيك عينيه ، وراح يتفحص صفوفنا ، يقتش بكل تأكيد عن ذلك الذي
أخذ يرد عليه ، على حين غرة ، بكل هذه المقاومة العنيفة . ولم يعد هياجنا ،
منذ هذه اللحظة ، يعرف أية حدود مطلقاً ، فاذا كنا قد بقينا حتى ذلك الحين
دون رجاء ، فان فكرة تحطيم كبرياء جنتوفيك الباردة قد شـرعت تلهب دماءنا
حالياً . وفي هذه الاثناء كان صديقنا الجديد قد قرر الحركة التالية ، فراحت
أصابعي ترتجف عندما أمسكت بالملقعة أريد ان أقرع القدح كي ادعو
جنتوفيك إلينا . وعرفنا عندئذ نصرنا الاول ، فان البطل الذي لعب حتى ذلك
الحين واقفاً قد تردد ، وتردد ، وانتهى الامر به الى الجلوس . ألقى بنفسه ،
في أسف وتناقل ، على مقعده ... ما أهمية ذلك ! لقد كف على الأقل عن
إثبات تفوقه حكيمياً ، فأجبرناه على أن يضع نفسه في ذات المستوى الذي نحن
فيه ، في الفراغ على الأقل . وفكر طويلاً ، وهو منحني على الرقعة حتى
أننا لا نرى عينيه الا بصعوبة تحت جفنيه القاتمين ، وهو يبذل جهداً عظيماً

اضطر معه الى أن يغفر فاه ، الأمر الذي أعطى حياه المستدير تعبيراً يدل على شيء من البلاهة . وبعد بضعة دقائق لعب ، ومن ثم نهض ، فأسرع صديقنا يمس :

— لقد لعب جيداً ، فهو لا يوقع نفسه . ولكن إياكم والانخداع به ! أجبروه على الاختيار ، فذلك أمر لا بد منه كي تتوصلوا الى التعادل . وعندئذ ، فإن شيئاً لن ينقذه قط .

وأطاع ماك كونور . واشتبك بعد ذلك الحصان على رقعة الشطرنج في أخذ وردّ لم يفهم منه نحن الآخرين ، الصور العديدة الفائدة في هذا القتال ، شيئاً على الإطلاق . وبعد ست أو سبع حركات من هذا النوع ، ظل جنتوفيك طويلاً مستغرقاً في التفكير ، ومن ثم أعلن :

— « الشوط متعادل ! » ...

تلا ذلك فترة من الصمت المطبق . وسمعنا ، على حين غرة ، في قاعة التدخين ، ضوضاء الأمواج ، وأنغام الجاز التي يرسلها لنا الراديو من الصالة المجاورة ، وكل خطوة على السطح تتردد بوضوح تام ، بله حتى الصفير الخفيف الذي ترسله الريح عندما تمر من خلال شقوق النوافذ . ولقد اجتاحتنا الفزع حقاً ، بعد أن قطعت سرعة هذا الحادث أنفاسنا علينا ، من لا معقولة مثل هذه المفامرة . كيف استطاع هذا المجهول أن ينزل نصف الهزيمة ببطل عالمي ؟ وارتمى ماك كونور بصورة مباغتة الى الوراء ، وأرسل آها سعيدة ، بينما رحت أراقب جنتوفيك الذي بدا لي انه قد شحب قليلاً أثناء الحركات الأخيرة . ولكنه كان يعرف كيف يمالك نفسه ، فظل جامداً لا مبالياً ، وسأل بصوت لا عاطفة فيه ، وهو يدفع بيده قطع الرقعة .

— هل يرغب السادة في شوط ثالث ؟

كان يطرح السؤال بصورة موضوعية مطلقة ، كما يطرحه أي رجل أعمال في مكانه ، ولكنه لم يكن يتوجه الى مالك كونور وهو يتفوه بهذه الكلمات ، لأنه قد ألقي نظرة مستقيمة ثابتة في اتجاه مخلصنا . لا ريب أن جنتوفيك قد عرف خصمه الحقيقي أثناء الحركات الأخيرة من الشوط ، مثله في ذلك مثل الجواد الذي يعرف الفارس الحقيقي منذ اللحظة التي يمتطي فيها سرجه . وتبعنا ، دون إرادة منا ، نظرائه ، واستدركنا جميعاً في اتجاه الرجل الغريب ، بينما هتف مالك كونور به ، دون أن يترك له فرصة التفكير أو مجرد الجواب :

— بكل تأكيد ! ولكنك سوف تلعب وحدك ضده أنت وحدك

ضد جنتوفيك !
وعندئذ وقع حادث مدهش ، فإن الرجل الغريب الذي ظل حتى ذلك الحين مستغرقاً في التطلع الى الرقعة الفارغة انتفض على حين غرة حين أحس سائر تلك الأنظار مثبتة فيه ، وبدأ عليه الاضطراب عندما سمع النداء يوجه اليه بكل تلك الحماسة .
... ذلك تمام قائلًا :

— أبدأ ما حييت ، أيها السادة . ذلك مستحيل تماماً ... لا يمكن أن أدخل في مثل هذا الاعتبار ... إني لم أر رقعة الشطرنج منذ عشرين أو خمس وعشرين سنة . ولقد تدخلت في لعبكم دون إذن منكم . وأنا أدرك الآن فقط كم كان ذلك مني في غير موضعه — هلا تفضلتم فعذرتم متطفلاً ...
لن يعود الى ذلك قط ، أو كد لكم ذلك .

وقبل أن ننفض عنا آثار دهشتنا ، كان قد فادر الغرفة ...
صاح مالك كونور الملتهب ، وهو يضرب المائدة بقبضة يده :

— ان الامر ان ينقضي هكذا ! خمس وعشرون سنة وهذا الرجل لم يلعب الشطرنج ! هذا مستحيل تماماً ! لقد كان يحسب حساب كل حركة ، ويعرف سلفاً نكتيك الخصم ، وليس انسان يستطيع ان يلعب هكذا بصورة عفوية . هذا مستحيل تماماً — أليس كذلك ؟

كان قد استدار عامداً نحو جنتوفيك وهو يلفظ الكلمات الأخيرة ، ولكن البطل ظل جامداً لا حراك فيه . قال :

— لست أستطيع ان احكم على ذلك . من المؤكد ان السيد قد لعب بصورة تستدعي الاهتمام ، ولذا فقد تركت له ، عامداً ، حظاً كي يرجع .

نهض وهو يقول هذه الكلمات الأخيرة ، ثم اضاف في إهمال :

— اذا كان احد من السادة يرغب في شوط غداً فاني تحت تصرفكم منذ الساعة الثالثة بعد الظهر .

ولم نستطع ان نكتب ابتسامة طفيفة ، فقد كنا جميعاً نعرف ان جنتوفيك لم يسعَ كي يكون كريماً تجاه مخلصنا المجهول ، وان ملاحظته لم تكن الا ذريعة يريد منها ان يخفي سوء طاعه . وهكذا فقد تفاقمت رغبتنا في الخط من كل هذه الكبرياء ، قممكتنا على حين غرة ، وقد كنا حتى ذلك الحين ركاباً مسالمين متكاسلين ، موجة متوحشة متعطشة الى القتال عندما فكرنا ان جنتوفيك قد يجد اكاليله تذبزع منه ، على سطح هذا المركب ، في عرض المحيط ، وان ذلك سوف يكون نصراً يعلن بالراديو ، مباشرة ، الى العالم اجمع .

والى ذلك يجب ان نضيف جاذبية السر الذي تجلى بطلنا في ظلاله ، وتناقض تواضعه الذي يكاد ان يكون زائداً عن الحدود الطبيعية مع عجرفة الممتن القاسية . من يكون هذا المجهول ؟ هل كشفت لنا الصدفة عن

عبقرية جديدة في لعبة الشطرنج؟ أو عساه معلماً قد سبقت شهرته ، وهو يحفي اسمه عنا لسبب ما برحنا نجهله؟ ناقشنا هذه المسائل جميعاً في حمية عظمى، ولكن فرضياتنا الأكثر جرأة لم تكن كافية كي توفق بين حياء الغريب واعترافه المدهش ، وبين معرفته الأكيدة بفنون لعبة الشطرنج .

ولكننا كننا متفقين رأياً على نقطة واحدة على أية حال ، وهو أن تقنع المجهول بأي ثمن أن يلعب شوطاً ضد جنتوفيك في الغداة ، فتطوع ماك كونيور أن يتكبد أخطار المغامرة المالية . وبيننا نحن في هذا الحديث عرفنا ، عندما سألنا الخادم المكلف بالإشراف على غرف الركاب ، أن الغريب نتمساوي الجنسية ، فأوكل إليّ باعتباري مواطناً من التبعة نفسها أمر التقدم إليه بطلبنا .



مرعان ما عثرت عليه ، حيث التجأ على سطح المركب ، يقرأ مضطجعا على مقعد طويل ، فرحت أتأمله طويلاً قبل أن أدنو منه . كان رأسه البارز الزوايا يستند في شيء من الاعياء على الوسائد ، يلفت انتباهي منه مرة أخرى ذلك الشحوب المدهش الذي يرين على وجهه . وكان شعره أشيب تماماً ، يوحى إليّ - دون سبب واضح - أن هذا الرجل قد شاخ في وقت مبكر جداً . ونهض في أدب جم عندما اقتربت منه ، وقدم إلي نفسه ، فإذا هو سليل عائلة نمساوية عريقة المحدث ، عظيمة الاعتبار والوجاهة ، تذكرت أن صديقاً اشوبرت كان يحمل اسمها ، وكذلك أحد أطباء الامبراطور .

عندما نقلت إليه رغبتنا ، بدا عليه شيء كثير من الخيبة . واكتشفت إنه لم يخطر له قط على بال انه يلعب ضد بطل عالمي ، بل ضد أشهر أبطال العصر على الاطلاق . وخيل إليّ ان هذه الحقيقة قد تركت فيه أثراً عظيماً ، لأنه سألني عدة مرات ان كنت واثقاً مما أخبره به ، وإذا كان خصمه أحد أسياد الشطرنج المشاهير حقاً . ولقد مهد ذلك الطريق لمهمتي ، سوى أنني وجدت عنده شيئاً كثيراً من الرقة والحساسية بحيث فضلت ألا أفاتحه بأمر الاخطار المالية التي أخذها ماك كونور على عاتقه . وأخيراً أعلن السيد ب . . . بعد فترة طويلة من التردد ، انه مستعد لقبول التحدي ، لكنه أسرع فأضاف وعلى شفتيه ابتسامة متفكرة :

- ولكن ، أرجوك أن تخبر هؤلاء السادة ألا يضعوا في آمالاً كبيرة ،

فأنا أجهل في الحقيقة إن كان في قدرتي أن ألعب شوطاً كاملاً من الشطرنج حسب القواعد أم لا . صدقني إني لم أهدف إلى شيء من التواضع السكاذب عندما أكدت لكم إني لم ألمس رقعة الشطرنج مطلقاً منذ الزمن الذي كنت فيه طالباً بعد ، يعني منذ أكثر من عشرين عاماً . وفي ذلك الحين لم أكن ، على أية حال ، إلا لاعباً عادياً لا يؤبه له .

كان يقول ذلك في كثير من البساطة ، حتى لم يعد في إمكاني أن أرتاب في صدقه مطلقاً . ولكنني لم أستطع مع ذلك سبيلاً إلى الامتناع عن إبداء دهشتي من تذكره ، بكل تلك الدقة ، تكتيك مختلف المعامين الذين أتى على ذكرهم ، فلابد إذن انه 'عني كثيراً بالشطرنج ، بصورة نظرية على الأقل ، ولكن شفقي السعيد ... افترنا مرة أخرى ، لدى سماعه هذه الكلمات ، عن ابتسامة جديدة حاملة ، ومن ثم توجه إلي قائلاً :

— إذا كنت قد عُنيت بالشطرنج ! الله وحده يعلم مبلغ ما في قولك من الحقيقة . ولكن ذلك قد حدث في ظروف فريدة تماماً ، بل وحيدة من نوعها أيضاً . تلك قصة كثيرة التعقيد في الواقع ، يمكن أن تصلح ، على الأكثر ، كبرهان على روعة العصر الذي نحيا فيه . إذا كنت تملك الصبر على الاصغاء إلي طوال نصف ساعة من الزمن ...

ودعاني ، بإشارة من يده ، إلى اقتعاد الكرسي الطويل الموجود الى جانب مقعده ، فقبلت دعوته بكل طيبة خاطر . كنا وحيدين ، فزرع السيد ... نظارتيه ، وشرع يتحدث :

— لقد كنت لطيفاً فأخبرتني انك من أهالي فيينا ، وأنتك تعرف الأسم الذي أحمله . ولكنني أحسب على أية حال انك لم تسمع شيئاً عن مكتب الحماية الذي كنت أشرف على إدارته ، بلاشتراك مع أبي أولاً ، ثم لوحدي فيما بعد .

هذه
الكتابة
بديلة
عن
التي
كانت
تحتوي
على
الاسم
الذي
كان
يستخدمه
الوالد
في
الوقت
الذي
كان
يعيش
في
فيينا

ذلك أننا لم نكن نحامي عن قضايا متألقة ، من تلك القضايا التي تتحدث الصحف عنها وتضج بأخبارها ، كما أننا لم نكن نسعى إلى الزيادة من عدد زبائننا . وفي الحقيقة أننا لم نكن نمارس مهنة الوقوف إلى جانب القضبان بكل معنى الكلمة ، بل كننا نكتفي بأن نكون مستشارين حقوقيين ، وبأن ندير شؤون املاك الأديرة الكبيرة التي كان والدي - وهو نائب قديم عن الحزب الاكليريكي - يرتبط بها بعلاقات وثيقة متينة الأواصر .

« أضف إلى ذلك - واني أستطيع أن أقول لك ذلك دون أن أبوح بأي سر ، ما دامت الملكية قد تلاشت حالياً - أن بعض أعضاء العائلة الامبراطورية قد عهدوا إلينا بأمر الاشراف على ثروتهم . وكانت هذه الروابط مع البلاط والاكليروس ترجع إلى تاريخ جيلين كاملين - فقد كان أحد أعمامي طبيب الامبراطور ، وعم آخر رئيساً لدير سينستمتن - فلا يتوجب علينا إذن الا الاستمرار فيها بكل بساطة . ذلك كان نشاطاً هادئاً ، أخرس نوعاً ما ، تلقيناه ميراثاً لنا ، لا يتطلب الاحتفاظ به منا الا كتماناً مطلقاً ، وأمانة اكيدة مجربة ، وهما صفقان كان المرحوم والدي يتمتع بهما حتى درجة بعيدة . ولقد نجح في الحقيقة في الاحتفاظ لزبائنه بقسم مرموق من ثروتهم ، بالرغم من التضخم المالي والثورة جميعاً .

« وعندما توصل هتلر إلى الحكم في ألمانيا ، وشرع ينهب الكنيسة والأديرة ، جرت عدة عقود ومداولات عن طريقنا ، في الجانب الآخر من الحدود ، في سبيل تجنب مصادرة املاك زبائننا المنقولة على الأقل . وفي ذلك الحين كنا نعرف ، والدي وانا ، عن سياسة روما والبلاط الامبراطوري السرية اكثر بما لا يقاس مما قد يتمكن الرأي العام من معرفته في يوم من الأيام . ولكن خاصة الكتمان التي كان مكتبتنا يتميز بها - حتى لم نكن

هناك لوحة على الباب - والحذر الذي كان رائدنا في تجنب كل الاوساط الملكية ، بصورة علنية على الاقل ، قد وضعنا ، فيما يبدو ، في حمى عن التحقيقات المتطفلة . والحقيقة ان اية سلطة في النمسا لم تشك لحظة ، في ذلك الحين ، في ان البريد السري للبيت الامبراطوري يمر بكامله تقريباً بالمكتب الغافه الذي كنا نديره في الطابق الرابع من إحدى البيوتات .

« ولكن الاشتراكيين القوميين ، قبل ان يرسلوا جيوشهم تحتاح العالم بزمان طويل ، قد شككوا في البلدان المجاورة جيشاً آخر ، لا يقل تنظيمياً وتدريباً عن كتائبهم الاخرى ، مؤلفاً من الحاقدين والمستائين الذين نجدهم في ظل مختلف الانظمة السياسية دون تفريق ، والذين كانوا يتسللون الى كل مكتب ، وفي كل مشروع ، ويمخدون مرا كز تجسسهم حتى في غرفة دولفوس وشوشنيغ الخاصة . ولقد عرفت - ولكن بعد فوات الاوان لسوء الحظ - انهم قد وضعوا لهم صنيعة حتى في مكتبنا الصغير ، لم يكن في الواقع الا اجيراً حقيراً او صاناً به احد الكهنة ، فوظفناه عندنا وهدفنا من وراء ذلك ان نسبغ على مكتبنا مظهر اي مكتب اعمال عادي . ولم نكن نعهد اليه الا بعض الطلبات العديمة الخطر ، ومهمة الرد على الهاتف ، وترتيب بعض المصنفات المجردة عن كل اهمية . ولم يكن مسموحاً له ان يفتح البريد ، كما كنت اكتب شخصياً على الآلة الكاتبة مختلف الرسائل الهامة ، ولا اترك نسخاً عنها في المكتب أبداً ، بل أحمل إلى داري سائر المستندات القيمة ، وأقوم بمشاوراتي السرية في مصلى الدير ، أو في دار عمي .

« وهكذا لم يعد في المكتب ، بفضل هذه الاحتياطات ، ما يستأهل أن يتجسس المرء عليه ، بل لم يكن بد من صدفة سيئة كي يلحظ ذلك الرجل الطموح اننا نرتاب فيه ، وأن كل شيء يحدث من وراء ظهره . لعل رسولا عديم الحذر قد تحدث في حضوره ، أثناء غيابي ، عن « جلالته » بدلاً من ان

يدعوه « البارون بيرن » ، كما هو متفق عليه ، أو لعل ذلك الوغد قد فتح بعض الرسائل ، مناقضاً بذلك الأوامر الصادرة إليه ، وعلى أية حال فإن مونيخ أو برلين قد عهدت إليه بأمر مراقبتنا ، وذلك قبل أن يراودني أقل شك في ذلك ، بل إنني لم أذكر إلا فيما بعد فقط ، عندما اعتقلت ، تلك الحراسة المفاجئة التي أبدتها في المدة الأخيرة من خدمته عندنا ، وكيف كان يعرض عليّ ، بالحاح وإصرار ، أن يحمل رسائلي إلى مركز البريد . ولقد كنت ، من جانبي ، قليل الحذر نوعاً ما - إنني أعترف بذلك - ولكن كم من السياسيين والضباط قد خدعوا بلؤم هذه الطغمة من الخونة ؟

« وما أسرع ما تأكدت ، بصورة محسوسة ، من الاهتمام الذي يولياني إياه الجستابو الذي اعتقلني رجاله في ذات الأمسية التي استقال شوشنيغ فيها ، عشية دخول هتلر إلى فيينا . ومن حسن الحظ أني أحرقت الأوراق الأكثر أهمية ، مباشرة بعد سماعي خطاب الوداع الذي ألقاه شوشنيغ ، كما أرسلت إلى عمي ، قبل أن يطرق رجال الشرطة بابي بدقيقة واحدة ، بواسطة مربيتي العجوز الأمانة ، كل الأوراق الضرورية لاثبات سائر الحقوق التي يملكها ديره وارشييدوقان هربا من البلاد .

توقف السيد ب . . . برهة عن رواية قصته كي يشعل سيجاراً ، فأضاء بريق اللهب الشديد فيه الذي كانت عرة عصبية ، سبق لي ملاحظتها ، تلوي زاويته . لم تكن تلك إلا حركة خاطفة ، يكاد المرء ألا يلاحظها ، ولكنها تسبغ على حياه بأسره تعبيراً قلقاً بصورة غريبة حقاً .

« لعلك تتصور أني سأحدثك الآن عن أحد معسكرات الاعتقال التي اقتيد إليها مالا يحصى عددهم من النمساويين الذين أرادوا أن يظلوا مختلصين لبلارهم ، وإنني سأصف لك كل الاهانات والعذابات التي يقع المرء فريسة لها هناك .

ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث لي ، بل اني صُنفت في مقولة أخرى من المعتقلين ، فلم يضمعوني مع اولئك البؤساء الذين كانوا موضع الثأر لحقدٍ مديد دفعوا ثمنه إذلالاً حكيماً ونفسانياً مضميناً ، بل ضموني بالاحرى الى تلك الفئة الأقل عدداً التي كان القوميون الاشتراكيون يأملون أن ينتزعوا منها المال أو معلومات هامة تنفعهم في مشاريعهم ، فمن الواضح ان شخصي المتواضع ، بحد ذاته ، لم يك يثير اهتمام الجستابو في كثير أو قليل .

» ومما لا ريب فيه انه قد بلغهم ، بطريقة ما ، اننا كنّا المشرفين على أمور أكثر أعداء الحزب خطراً ورجال ثقتهم ، بحيث كانوا يأملون أن ينالوا معلومات مني ، معلومات يحولونها اثباتات مرهقة ضد الاديرة ويبررون بها مصادرة أملاكها ، ويستفيدون منها في الوقت ذاته في حربهم على البيت الامبراطوري وسائر الملكيين المخلصين على حد سواء . كانوا يعللون انفسهم ، وهم على حق في ذلك ، بأن الثروات التي مرت من بين أيدينا قد تركت ، دون ريب ، بقايا محترمة في مكان ما يصعب الوصول اليه . وهكذا فقد اعتقلوني منذ اليوم الاول ، كي يجربوا أن يحملوني على الاعتراف بأساليب ليس من يجبل نتائجها الرائعة الممتازة .

» لم يكن القوم المنتسبون الى هذه المقولة يرسلون الى معسكر اعتقال اذن ، بل كان لهم مصير خاص يختلف كل الاختلاف . واولئك تتذكر أنهم لم يلقوا بمستشارنا او البارون روتشيلد مثلاً وراء اسلاك الحديد الشائكة ، بل التمسوها في الظاهر وانزلوها في فندق احتل كل منها فيه غرفة خاصة . ذلك هو فندق متروبول ، حيث اتخذ الجستابو مركزه الرئيسي ، وحيث قدّر للشخص المغمور الذي هو أنا أن يسعد بالاقامة فيه .

» غرفة خاصة في فندق — هل يستطيع المرء أن يحلم بمعاملة أكثر انسانية؟

ولكن صدقني ، مع ذلك ، إنهم أرادوا من وراء إضافتنا في غرف فندق مدفأة ، بدلاً من الأكوخ المتجلدة والملاهي بشرًا ، أن يطبقوا علينا أسلوباً أشد دهاء ، ولكن ليس أكثر إنسانية على الإطلاق. ذلك أن الضغط الذي كانوا يريدون أن يرهقونا به ، كي ينتزعوا المعلومات منا ، هو بالأحرى من نوع أكثر مكرراً من ضربات العصي والعذابات الجسدية الأخرى . كانوا يخضعوننا للعزلة التي لا يستطيع الدهاء أن يتخيل بعدها عزلة ، ولا يفعلون بنا شيئاً - بل يتركوننا فقط في وجه العدم ، لأنه من الواضح أن ليس في العالم شيء آخر يثمد على النفس الإنسانية بصورة أشد رهاقاً منه . كانوا يلجأون إلى أسلوب للضغط إذ يلقون بنا في غرفة مغلقة من كل جانب على العالم الخارجي ، سيحل شفاهنا ويحملها على النطق بصورة أكثر يقيناً من الضرب والبرد والزمهرير جميعاً .

« ولم يكن في الغرفة التي خصصوها لي في البدء ما يمكن أن يضايق المرء أو يزعجه ، فقد كان لها باب ، وسرير ، ومقعد ، ومغسلة ونافذة مشبكة بالقضبان الحديدية . ولكن الباب لا يبرح مقفلاً ليلاً ونهاراً ، كما منع عني كل كتاب ، أو صحيفة ، أو ورقة ، أو قلم . ولم تكن النافذة تطل على أكثر من جدار مرتفع ، بحيث كنت لا أرى إلا العدم حينما تلفت حوالي . كنت غارقاً بكليتي في هذا العدم ، فقد انتزعوا مني ساعتي كي لا أتمكن من قياس الزمن ، وكذلك قلبي كي لا أستطيع أن أكتب شيئاً ، وسكيني كي لا افتح أوردتي بها ، ولم يمنحوني حتى ولا تلك الذئبة الضئيلة التي ترسلها لافافة التبغ فينا . ولم أكن أرى قط أي حياء إنساني ، اللهم إلا وجهه حارسي الذي تلقى الأمر بالآل يوجه الكلام إلي ، والا يجيب على أي سؤال أتوجه به إليه .

أما الأصوات البشرية فلم تكن تطرق سمعي ابداً .

« كان هذا النظام الذي يحرم الحواس من كل غذاء في الليل والنهار على حد سواء يتركني وحيداً ، وحيداً بصورة تبعث على اليأس تجاه ذاتي وتجاه

أربعة أو خمسة أشياء خرساء لاهياة فيها : المنضدة ، والسرير ، والنافذة ،
والمغسلة . كنت أعيش في هذا المحيط الأسود من السكون كالقطاس تحت
جرسه الزجاجي ، ولكن غطاس قد أخذ يحس أن الحبل الذي يوصله بالعالم
قد انقطع ، وأنهم لن يخرجوه من هذه الأعماق الخرساء قط . لم يكن لدي
ههنا ما أفعله ، أو أسمع ، أو أراه ، والعدم الذي يحمل على الدوار يسطو
فيما حوالي ، فراغ لا أبعاد له في المكان والزمان جميعاً . كنت أذهب وأجيء
في غرفتي ، وأفكاري تذهب وتجيء في رأسي دون راحة أو هدنة ، خاضعة
للحركة نفسها .

« ولكن الأفكار ، مهالاحت مجردة عن المادة ، تحتاج هي الأخرى إلى
نقطة استناد ، وإلا فإنها تأخذ بالدوران حول نفسها في حلقة مجنونة ، هي
الأخرى لا تتحمل العدم مطلقاً . إن المرء ينتظر شيئاً منذ الصباح حتى المساء ،
ولكن شيئاً لا يحدث مطلقاً . وأنه ينتظر ، ويبدأ الانتظار من جديد ، ولكن
شيئاً لا يحدث قط . إنه ينتظر ، ينتظر ، ينتظر ، والأفكار تدوم ، تدوم في
رأسك دون هوادة ، حتى يؤلمك صدغاك ، ولكن شيئاً لا يحدث دوماً . إن
المرء يظل وحيداً ، وحيداً ، وحيداً ... »

« ظلت الحال على هذا المنوال خمسة عشر يوماً خبيت خلالها خارج الزمان ،
خارج العالم بأسره . كان يمكن أن يشتعل أوار الحرب دون أن أعرف عن
ذلك شيئاً ، لأن العالم لم يعد يتألف بالنسبة إليّ إلا من مائدة ، وباب ، وسرير ،
ومقعد ، ومغسلة ، ونافذة ، وأربعة جدران أنظر عليها بثبات ذات الورق
دوماً ، حتى احتفر كل خط من رسومها المتحركة كالمنقاش في دماغي ، لكثرة
مارأيت وتطلعت إليه . »

« وبدأت الاستجابات أخيراً . كنت أدعى بصورة مباغتة ، دون أن

أدري ان كنت في الليل أم في النهار . وكانوا يقودونك عبر أروقة وعمرات عديدة ، دون أن تدري إلى أين ، وكنت تنتظر بهدلك في مكان ما ، ومن ثم تجد نفسك على حين غرة أمام مائدة قد اجتمع حولها بضعة اشخاص في بزات عسكرية . وكانت المائدة تحمل رزمة من الأوراق ، ومصنفاً است تدري محتوياته ، وسرعان ما تبدأ الأسئلة ، الأسئلة السافلة ، الأسئلة التي تخفي أسئلة أخرى ، التي تسعى إلى إيقاعك في الفخ والاطباق عليك . وبينما أنت تجيب على تلك الأسئلة ، تأخذ أيدٍ غريبة معادية تتصفح تلك الأوراق التي لا تدري محتوياتها ، وريشة حافدة تكتب محضراً للجلسة دون أن تدري ما تكتبه .

« ولكن أكثر ما كنت أخشاه في هذه الاستجوابات هو عجزني عن تخمين ما استطاع الجستابو أن يعرفه ، بفضل شبكته الجاسوسية ، عن سير أعمالي ، وما الذي يريد أن يعرفه مني في الوقت الراهن . كنت قد أرسلت إلى عمي ، كما ذكرت لك ، الوثائق الأشد إدانة بواسطة مربي في اللحظة الأخيرة . ولكن هل تلقت المرأة الطيبة هذه الوثائق ؟ وإلى أية درجة قد خافني مستخدمي ؟ ما عساهم قد صادروا من رسائلي ، أو ما عساهم استقدروه من كاهن مسكين قد استجوب بحذق في أحد الأديرة التي نتمثلها ؟ كانوا يسألونني ، ويسألونني دون انقطاع : بما هي المصنفات التي اشتريتها لهذا الدير أو ذاك ؟ أية هي المصارف التي كنت أرسلها ؟ هل أعرف السيد الفلاني والسيد الفلاني ؟ هل كنت أتلقى رسائل من سويسرا أو من ستمينو كيرزيل ؟ ولما لم أكن أستطيع أن أكون فكرة صحيحة عما يعرفونه حتى الآن ، فإن كلاماً من أجوبي كان يحمل في طياته مسؤولية ساحقة ، فأنا قد أرسل إنساناً إلى الموت إذا قلت شيئاً لا يعرفونه ، وأحمل الضرر إلى نفسي إذا لجأت إلى الصمت كثيراً .

« ولكن الاستجواب لم يكن أسوأ الأمور على أية حال ، بل أسوأ
الأمور كان العودة الى العدم ، الى تلك الغرفة ذاتها ، أمام تلك المائدة عيها ،
والسرير نفسه ، والمغسلة ذاتها ، وذلك الورق على الجدار الذي مابرح
هو نفسه أيضاً ، إذ لا أكاد أصبح وحيداً من جديد ، مع افكاري ، حتى
أروح أستعيد الاستجواب مرحلة مرحلة وافكر كيف كان يمكنني أن
أعطي أجوبة أكثر حذقاً ، وما أستطيع أن أقول في المرة التالية كي ابعد
الشكوك التي ربما ايقظتها هذه المرة بملاحظة لم تكن واجبة مطلقاً . كنت
أنفحص ذلك ، واحتفره ، وادّفق في كل من شهادتي ، واستعيد كل سؤال ،
وكل جواب ، وأجرب أن أقدر ما قد يكون المحضر قد سجله وأنا أعرف
كل المعرفة اني ان أتوصل الى ذلك قط .

« ولكن هذه الافكار تأخذ ، اذ ما انطلقت مرة ، بالدوران والدوران
في رأسي ، وهي تتركب فيما بينها أخلطاً جديدة دون انقطاع ، وتلاحقني حتى
أثناء نومي . وهكذا كان فكري الخاص ، بعد انتهاء كل استجواب ، يمدد
عذابه دون رحمة ، بل في قسوة تفوق قسوة القضاة الذين كانوا يرفعون الجلسة
بعد ساعة من الزمان ، بينما الوحدة في غرفتي الخاصة تجعل عذابي لا ينتهي أبداً .
فيما حولي ، لا يوجد قط شيء آخر سوى المائدة ، والخزانة ، والسرير ، والورق
المصبوغ ، والنافذة ، وليس من تسلية ، ولا كتاب ، ولا صحيفة ، وليس من
وجه سوى وجهي الخاص ، ولا قلم يسمح لي بتسجيل بعض الملاحظات ، ولا
عود ثقاب اللعب به ، لا شيء البتة ، لا شيء ، لا شيء ! بلى ، لم يكن بدّ من
عبقريّة شيطان ، لم يكن بدّ من فنان في قعر الأرواح كي يخترع هذا النظام القائم
على غرفة الفندق . ربما كنت أجبر في احد معسكرات الاعتقال على نقل
الحجارة حتى تدمي يداي وتجلد قدمي في حداثي ، وكنت أزرّب مع خمسة

وعشرين آخرين في البرودة والعفونة، ولكن كنت ارى وجوهاً على الأقل،
كنت انظر الى حقل ما ، الى غراب طائر ، أو شجرة ، أو نجمة ، أي شيء
يتغير بدلاً عن هذه الغرفة التي لا تتبدل قط ، الشبيهة بذاتها بصورة فظيعة في
ثباتها الجامد . هناك ، ليس شيء يمكن أن يلهيني عن أفكاري ، عن تخيلاتي
المجنونة ، من مراجعاتي المرضية . وذلك هو بالضبط ما كان يريد جلاذوني -
ان يضطروني على اجترار افكاري واستقصائها حتى تخنقني ، فلا يستطيع ان
افعل شيئاً آخر سوى بصقها ، إن صح التعبير ، والاعتراف ، الاعتراف بكل
شيء ، مسلماً هكذا اصدقائي والمعلومات المطلوبة مني معاً . وكنت احس ان
اعصابي قد اخذت تتراخي شيئاً فشيئاً تحت هذا الضغط المعذب ، فأروح
اتصلب حتى اقصى قواي كي اجد لنفسي تسليمة ما اتلهم بها .

« وشغلت نفسي باسعادة كل ما حفظته عن ظهر قلب فيما مضى من سنوات
حياتي، وإعادة تركيبه من جديد كيفما اتفق : اغانٍ شعبية ، والحن صبيانية ،
مقاطع من هوميروس تعلمتها في المدرسة ، وفصول من القانون المدني . ومن
ثم كنت اجرب ان اقوم ببعض الحسابات ، فأجمع اعداداً مختلفة او اقسامها .
ولكن ذاكرتي لم تكن تحفظ شيئاً في هذا الفراغ ، لأنني كنت اعجز عن
تركيز ذهني في اي شيء كان على الاطلاق . كانت الفكرة نفسها تتسلسل في
كل مكان : ما عساه يعرفون ؟ ماذا قالت البارحة ؟ ماذا يجب ان اقول في
المرّة القادمة ؟

« حيث اربعة شهور في هذه الشروط التي لا توصف . اربعة شهور :
هاتان كلمتان يمكن كتابتهما بسرعة ، وكذلك قولهما ، كما تكفي ربع ثانية
كي يهجاها المرء ، وبعض الأحرف القليلة كي يسجلها على الورق . ولكن كيف
يستطيع الانسان ان يصف او يعبر ، حتى بينه وبين ذاته ، عن هذه الحياة

التي تنقضي خارج المكان والزمان ؟ حتى ان احداً لن يقول قط كيف يقرضك هذا الفراغ المجرد عن الشفقة ويدمرك ، وبأي اسلوب تفعل فيك رؤية تلك المائدة الابدية وذلك السرير ، هذه المغسلة الخالدة ذلك الورق الملمع بوق بالجدار ، هذا السكون الذي يضطرونك اليه ، وموقف ذلك الحارس الذي لا يتبدل ابداً ، والذي يضع الطعام امام سجينه دون أن ينظر اليه . ان افكاراً ، هي نفسها دوماً لا تتغير ، تدوم دون هوادة في الفراغ حول هذا المتوحده حتى تنتهي به إلى الجنون .

» وعرفت من بعض العلامات الباعثة على القلق ان دماغي قد اخذنيهار . كانت افكاري تظل واضحة في البدء في حضور قضائي ، فأقدم شهادات هادئة عاقلة ، منتقياً في ذهني بجلاء تام ما يجب ان اقول وما يجب الا اقول . اما الآن فلم اعد استطيع ان اتفوه بجملة واحدة دون تأتأة وارتابك ، لاني كنت اشخص وانا اتفوه بها الى ريشة الكاتب التي تركض على الورق ، وكأني مسحور بها ، او كأني اريد ان اركض وراء كلماتي الخاصة . كنت احس ان قواي تتناقص ، وان اللحظة التي سأقول فيها كل ما اعرفه ، واكثر من ذلك أيضاً ، أملاً في انتقاذ نفسي من هذا العذاب ، تقترب بسرعة جنونية ، فأخون اثني عشر رجلاً واسرارهم التي اؤتمنت عليها ، كي افلت من قبضة هذا العدم القاتلة ، ولو لم ارجح من ذلك الا لحظة واحدة من الراحة ليس غير .

» كنت في هذه الحال ، ذات مساء ، عندما حمل الحارس إليّ طعام العشاء ، فرحت اهتف به : قدني الى القضاة ! سوف اقول كل شيء . : سوف اقول اين توجد الاوراق ، واين يوجد المال ! سوف اقول كل شيء . ! كل شيء . ! . ومن حسن الحظ انه لم يسمعي ، او لعله لم يشأ ان يسمعي . كنت في هذه الحال اذن عندما جرى حادث لم يكن في الحسبان ، حادث كان خلاصي ، لفترة من

الزمن على الأقل . حدث ذلك ذات يوم أغبر حزين من نهاية تموز - وإني
لأتذكر هذه التفاصيل جيداً لأن المطر كان يقرع زجاج النوافذ على طول الممر
الذي كانوا يقودوني عبره إلى غرفة الاستجواب . وتركوني أنتظر في غرفة
جانبية . لم يكن بد دوماً من الانتظار طويلاً ، قبل الظهور أمام القضاة ،
فذلك جزء من المنهج الذي يطبقونه علينا . كانوا يبدأون بزعزعة أعصاب
السجين إذ يطلبونه بقعة في منتصف الليل ، حتى إذا تمالك نفسه ، وتركل
قواه في انتظار الجلسة العتيدة ، جعلوه ينتظر ، ينتظر بصمورة سخيفة ، ساعة ،
ساعتين ، ثلاث ساعات ، قبل أن يستجوبوه ، وذلك كي يقتلوه جسداً وروحاً
معاً . وبقية واقفاً في غرفة الانتظار طوال ساعتين ، في ذلك الخميس السابع
والعشرين من تموز - إني أتذكر هذا التاريخ لأن تقويماً كان معلقاً في جدار
الغرفة التي انتظر فيها - وبينما كانت ساقي تدخلان في جسدي لكثرة الوقوف
- من الواضح ان الجلوس كان ممنوعاً - راحت عيناي تلتهمان ، في ظمأي
الشديد إلى القراءة ، ذلك الرقم وتلك الكلمة ، ٢٧ تموز ، الذين نقصلان
بكل وضوح على جدار القاعة .

« ومن ثم عدت أنتظر ، وأرى الى الباب ، وأنساها متى سيفتح ، وافكر
فيما سيسألني القضاة عنه هذه المرة ، وأنا أعلم حق العلم انهم لن يطرحوا علي
الاسئلة التي أتوقعها وأتنبأ لها . وكنت أشعر ببعض الارتياح ، بالرغم من
القلق الذي يبعثه في ذلك الانتظار ، وبالرغم من الاعياء الذي يسببه لي ، إذ اجد
نفسي في غرفة أخرى غير غرفتي ، غرفة اكبر منها قليلاً ، تنيرها نافذتان ،
ولا يوجد فيها سرير ومفصلة ، ولا تبدي أخشابها بعض الفرجات التي لاحظتها
ملايين المرات في خشب غرفتي . كانت الألوان مختلفة ، والمقعد كذلك . وكانت
خزانة ملائى بالمصنوعات تقوم عن يسار الباب ، والى جانبها مشجب يتدلى منه

اربعة او خمسة معاطف عسكرية مبتلة ، معاطف الجلادين الذين يرهقوني .
« وهكذا وجدت أشياء جديدة أتطلع اليها - أشياء جديدة أخيراً ،
تعلقت عيناى بها في نهم عظيم . كنت أمني النظر في كل طية من طيات المعاطف ،
فألاحظ مثلاً قطرة من المطر على حافة ياقة مبتلة ، فأروح انظر في انفعال قديبدو
لك مضحكاً إذا كانت هذه القطرة ستسيل على طول الطية أو تقاوم ثقل
الجازية طويلاً بعد . بلى ، لقد كنت أشخاص ، لاهناً ، الى هذه القطرة
بضعة دقائق ، و كأن حياتي متعلقة بها . وعندما سقطت أخيراً ، شرعت أحصي
الآزار في كل معطف على حدة : ثمانية في المعطف الأول ، وثمانية في الثاني ،
وعشرة في الثالث ، ومن ثم شرعت أقارن بين الحواشي . كانت عيناى نهلان
هذه التفاصيل التافهة ، تغذيانها وتلذذان في هوى لا يستطيع التعبير عنه
بالكلمات المجردة .

« وفجأة ، وقعت على شيء آخر ، شيء ينفخ جيب أحد المعاطف . اقتربت
قليلاً ، فخيّل الى اني رأيت ، من خلال القماش المتوتر ، الشكل المستطيل الذي
يمتاز الكتاب به . كتاب ! أخذت ركبتي ترعشان . كتاب ! هذه اربعة
شهور قد انقضت دون ان امسك كتاباً في يدي ، فكان مجرد تمثله يبهز عيني
ويعميها . كتاب سوف أرى فيه كلمات مصطفة الواحدة الى جانب الأخرى ،
واسطراً ، وصفحات ، وورقات استطيع أن اقلبها . كتاب استطيع فيه ان
اتبع افكاراً أخرى ، افكاراً جديدة تبعثني عن افكاري ، افكاراً استطيع ان
احتفظ بها في رأسي . ياللا اكتشاف المسكر والمهدى معاً ! وعلقت عيناى ،
مسحورتين ، بذلك الجيب المنتفخ حيث يرسم شكل الكتاب ، محرقتين فكأنهما
تريدان ان تنقبأ ذلك المعطف . ولم استطع ان اقاوم نفسي ، فاقتربت اكثر
من ذي قبل . كانت أصابعي تحترق حتى نهاية الاظافر ، لمجرد فكرة جس

ذلك الكتاب ، حتى من خلال قماش المعطف السميك ، فأدنو منه دوماً أكثر فأكثر ، دون وعي مني تقريباً .

« ومن حسن الحظ ان الحارس لم يكن يعير أي انتباه لسلوكي الغريب .
لعله كان يرى من الطبيعي أن يسعى المرء الى الاستناد قليلاً الى الحائط بعد ساعتين من الوقوف المستمر . وبلغت المعطف أخيراً ، فوضعت يدي خلف ظهري كي أستطيع أن ألمسه خفية . تلمست القماش ، فشعرت حقاً بشيء مستطيل الشكل ، مرن القوام ، يقطع قليلاً تحت اصابعي - إنه كتاب ! إنه كتاب حقاً وفعلاً ! وانبثقت هذه الفكرة ، مثل البرق ، في ذهني : جرب أن تسرقه ! لعلك تنجح في ذلك ، فتخفيه عندئذ في غرفتك ، وتقرأ ، وتقرأ ، وتقرأ أخيراً ، تقرأ من جديد ! ولم تكده هذه الفكرة تراودني ، حتى راجت تفعل في فعل سم عنيف ، فإذا أذناي تطنان ، وقلبي يخفق ، ويداي المتجلدتان لاتطيعانني .

« ولكن لم ألبث ان التصقت في مكر بالمعطف ، بعد ان زاوولي ذهولي الأول ، واخرجت الكتاب شيئاً فشيئاً من الجيب وأنا أشخص بشتات الى الحارس . هذا هو ! أمسكت به بحذر شديد ، فإذا في يدي مؤلف صغير رقيق جداً . عندئذ فقط ذعرت لما فعلته ، ولكن لم اكن أستطيع أن أتراجع بعد الآن . ابن أضعه حالياً ؟ ودفعت الكتاب في سروالي ، وهو خلف ظهري دوماً ، تحت الزنار ، ومن هناك أتيت به ، بكل لطف ، حتى وركي ، بحيث أستطيع ان أمسك به وانا اسير ، اذا وضعت يدي على خياطة السروال كما تتطلب المشية العسكرية . وكان لابد لي ، حالياً ، من تجربة خدعتي ، فابتعدت عن المشجب ، وخطوة خطوة ، فخطوتين ، فثلاث خطوات . ان كل شيء على ما يرام ، فقد تمكنت من الاحتفاظ بالكتاب في مكانه ، طالما ظل ذراعي ملتصقاً بجسدي ، في موضع الزنار .

« ومن ثم كان الاستجواب ، فتطلب مني جهداً أعظم منه في أي وقت آخر ، لأن كل انتباهي كان مركزاً في الكتاب والطريقة التي أمسك بها ، بالأحرى من الأجوبة التي أقدمها . ومن حسن الحظ أن الجلسة كانت قصيرة ذلك اليوم ، فرجعت بالكتاب سالماً إلى غرفتي . واني أوفر التفاصيل عنك ، فقد انزلت مرة ، بصورة خطيرة جداً ، ضمن سراويلي بينما كنت أجتاز الرواق ، فاضطرتت إلى ادعاء نوبة عنيفة من السعال كي انطوي على نفسي ، وادفعه خفية تحت الزنار من جديد . ولكن أية لحظة لا تنسى تلك التي وجدتني فيها من جديد في جحيمي ، وحيداً أخيراً ، لكن برفقة هذا الشريك الثمين مع ذلك .

« لعلك تتخيل ، من دون أدنى ريب ، أنني قد تناولت الكتاب مباشرة من خبثته كي أتأمله وأقرأه . إني لم أفعل شيئاً من ذلك . أردت قبلاً أن أذوق كل الفرح الذي يمنحني إياه مجرد وجود هذا الكتاب ، فرحت وأخيراً لحظة رؤيته ، كي أحلم ، مثلثاً ، بما يمكن أن يحويه . كنت أتمنى قبل كل شيء أن يكون صغير الحجم متقاربها ، كي يضم أطول نص ممكن ، وأن تكون أوراقه رقيقة للغاية ، كي يكون لدي شيء كثير أقرأه . وكنت آمل أيضاً أن يكون مؤلفاً صعباً ، يتطلب جهداً فكرياً عظيماً ، شيئاً يمكن حفظه عن ظهر قلب ، شعراً مثلاً ، والأفضل - بالحلم الجريء - جوته أو هومير وس . وأخيراً لم أعد أستطيع أن أتمالك رغبتني وفضولي ، فاضطجعت على فراشي بحيث لا يستطيع الحارس أن يفاجئني إذا دخل علي بصورة مباغتة ، وتناولت الكتاب ، مرتعش الاوصال ، من زناري .

اسم ما كان غيظي عظيماً وخيبي مريرة لدى النظرة الأولى : ان
هذا الكتاب الذي سلبته معرفاً نفسي لأعظم الأخطار ، هذا الكتاب الذي
أقبط في آمالاً ملتبهه رائعة ، لم يكن إلا بحثاً في لعبة الشطرنج ، مجموعة من
مائة وخمسين شوطاً لعبها أرباب الرقعة وأساتذتها . ولو لم أكن سجيناً قد
أرتجت سائر المنافذ عليّ ، إذن لا طحت بالكتاب من النافذة في حماسة غضبي
المقأجيج ، إذ ماذا استطيع - بحق السماء - أن أستفيد من هذا البحث الذي
وقعت عليه ؟ صحيح أني جربت ، أيام كنت في المدرسة بعد ، أن أدفع
البيادق على الرقعة مثلي في ذلك مثل أغلب أصدقائي في الأحيان التي كان
الضجر ينتابنا فيها . ولكن كيف سبيلي الآن إلى الاستفادة من هذا المؤلف
النظري ؟ اننا لا نستطيع أن نلعب الشطرنج من دون شريك ، وقل من ذلك
ايضاً دون رقعة وبيادق .

« تصفحت المؤلف في كثير من النعمة ، أملاً أن أجسد فيه على أية حال
ما أقرأه ، مقدمة موضوعه مثلاً ، أو بعض التعليقات والملاحظات على الأقل :
لكنه لم يكن يحوي الاخططات تمثل الأشواط الشهيرة ، وإلى الأسفل منها
إشارات بدت لي غامضة الوهلة الأولى : ٢٢ - ٣٢ ، و ١ - ٣ ، وهكذا
دواليك . إن ذلك النوع من الجبر ، فيما صور لي ، لا أملك مفتاحه مطلقاً .
« وأدركت شيئاً فشيئاً أن الأحرف آ ، ب ، ج ، تشير إلى الخطوط
الطولانية ، وأن الأرقام ١ - ٨ تشير على العكس إلى الخطوط العرضانية ،

أحمد الزاوي
الرائحة لشدة
١٨١٢
نحوه الجبر
أحمد الزاوي
١٨١٢
الجبر الجبر

وان هاتين الحاصلتين تمكنا من تحديد موضع كل قطعة خلال الشوط بكامله ، بحيث ان هذا التمثيل الصوري الخالص هو نوع من اللغة الخاصة في هذا المضمار . وحدثت نفسي اني قد أستطيع أن اصنع شيئاً كرقعة الشطرنج ، وأن أجرب بعد ذلك أن ألعب هذه الاشواط الوارد ذكرها في الكتاب ، فاذا بي أجد - ألا شكراً للسماء ! - أن غطاء فراشي مقسم الى مربعات ، فطويته بعناية حتى جعلت منه في النهاية رقعة ذات أربعة وستين بيتاً ، ومن ثم أخفيت الكتاب تحت الفراش ، بعد أن نزعته منه الورقة الاولى . واقتصدت بعض فتات اللب من حصتي من الخبز ، وصنعت منها القطع اللازمة لي ، الشاه ، والمملكة ، والمجنون ، وكل القطع الاخرى . كانت مشوهة بكل تأكيد ، ولكنني توصلت على أية حال ، ليس دون عناء كبير ، إلى تمثيل مراكز مختلف البيادق التي يذكرها الكتاب ، وذلك على غطاء فراشي ذي المربعات بالذات .

« وبالرغم من كل ذلك فقد كنت أفضل في البدء كلما جريت أن ألعب شوطاً كاملاً ، وذلك بسبب من بيادقي المضحكة المصنوعة من لب الخبز ، والتي كنت أخلط فيما بينها باستمرار ، لاني لم أستطع الى تمييز القطع السود سبباً الا برشها بالغبار الذي يقوم مقام الصبغة بالنسبة الي . واضطرت الى إعادة هذا الشوط خمس مرات ، عشر مرات ، بل عشرين مرة ، ولكن أي انسان في العالم يملك وقتاً فارغاً أكثر مني ، في هذه العبودية التي أخضعني العدم لها ؟ أي انسان يمكن أن يكون أكثر منهما مني وأكثر صبراً في الوقت ذاته ؟ » وأصبحت ألعب هذا الشوط بصورة صحيحة بعد ستة أيام فقط ، ولم تمض ثمانية ايام أخرى حتى لم تعد بي حاجة إلى قطع لب الخبز كي أتمثل مراكز الخصمين المختلفة على الرقعة ، حتى اذا انقضت ثمانية أيام أيضاً نزعته الغطاء ذا

المربعات نهائياً واستغنيت عنه ، فالأشارات ١٢ ، ٢٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، التي
 لاحت لي كثيرة التجريد في البدء ، قد أصبحت حالياً تتخذ شكلاً حسيماً بما
 اكتسبته من الصور البصرية ، كما صار الانتقال بين المجرد والحسي تاماً ،
 فرقعة الشطرنج وقطعها تسقط في ذهني ، وصمغ الكتاب تمثل فيه مباشرة ،
 مراكز متبادلة . لقد أضحيت هكذا أشبه بموسيقى متمرن يكفيه أن يلقي
 نظرة سريعة على أوراق الأنغام كي يسمع رأساً ألحانها وتناسقها . ولم يكن
 لي بد من خمسة عشر يوماً آخر كي العب عن ظهر قلب كل الأشواط المشروحة
 في الكتاب ، وعندئذ فقط أدركت أي خير لا يقدر حملته تلك السرعة الجريئة
 الي ، إذ أصبح لي حالياً نشاط يشغاني ، وقد يكون مجدياً ، ولكنه نشاط على
 أية حال يهدم سطوة العدم على نفسي ويحطمها . كنت أملك ، بهذه الأشواط
 المائة والخمسين من الشطرنج ، سلاحاً مذهشاً ضد سيلان الزمان والمكان
 الرتيب الخانق .

« وقسمت نهاري بصورة منهجية كي أحتفظ لهذه الفعالية الجديدة
 بسجرتها وفتنتها : شوطان في الصباح ، وشوطان بعد الظهر ، ومراجعة
 مختصرة للأشواط الأربعة في المساء . وهكذا أصبح وقتي مليئاً ، بدلاً من
 أن يتجرجر مثله قبلاً ، متقلقلاً كالهلام السيل ، وأصبحت مشغولاً دون
 إفراط ، لأن لعب الشطرنج يتمتع بهذه الميزة الرائعة ، وهو أنه لا يتعب الفكر ،
 بل يضاعف بالآخرى من مرونته وحيويته ، الأمر الذي يتأتى من أننا
 نركز ، حين نلعب ، كل إمكانياتنا الفكرية في ميدان ضيق جداً ، حتى حين
 تكون قضاياه عوبصة شائكة معقدة . ولقد تبعت في البدء ، بصورة آلية ، تعليمات
 الكتاب ، ولكن ذلك أصبح شيئاً فشيئاً رياضة فكرية بالنسبة الي ، أسرُّ
 بها كثيراً ، فأتعلم دقائق الهجوم والدفاع وحيلها الماكرة ، وأدرك تكتيك

توجيه الضربات والرد عليها . وسرعان ما أصبحت قادراً على معرفة الطريقة الخاصة بكل من اللاعبين المشاهير بصورة لا تقل يقيناً عن معرفتنا بالشاعر لدى قراءة بعض الابيات من احدى مؤلفاته . واذا ما كان في البدء وسيلة لقتل الوقت يصبح نوعاً من التسمية الحقيقية ، واذا لاعبوا الشطرنج الكبار ، الجيشين ، لاسكر ، بوغولجوبوف ، تارا كوير ، ياقون فيسكونون وحدتي بكل لطف ودعة ورقة .

«وبعث هذا التنوع الحياة في غرفتي منذ ذلك الحين ، كما رد انتظام هذه التمارين الثبات الى امكانياتي الفكرية . بل ان هذه الرياضة الفكرية الصارمة قد منحتها حدة جديدة بدت فائدتها اول ما بدت في الاستجابات التي كنت أمر بها ، إذ تمكنت من تحسين دفاعي وتقويته ، بواسطة رقعة الشطرنج ، ضد الخداع الديني واللف والدوران السافلين وذلك دون دراية مني أو معرفة في الحقيقة . ومنذ ذلك الحين لم اضعف البتة أمام قضائي ، بل خيل الي أنهم ينظرون الي في شيء من الاحترام . لعلمهم كانوا يتساءلون ، بينهم وبين أنفسهم ، من أين أستقي تلك القوة على المقاومة بكل هذا الثبات ، بينما سائر الآخرين ينهارون ويتحطمون . ولقد دام ذلك الزمن السعيد الذي راجعت فيه بصورة منهجية الأشواط المائة والخمسين التي يحويها الكتاب ثلاثة اشهر تقريباً ، وعندئذ وجدت نفسي بعمّة ، بعد ان بلغت نهاية المطاف ، امام العدم مرة أخرى . ان شوطاً أعبه عشرين او ثلاثين مرة ليفقد جاذبية الجدة بالضرورة ، وتنفد فضائله بالتالي وتلاشى . اي معنى في الاستمرار ، مادمت اعرف كل حركة عن ظهر قلب ؟ ان الحركة الاولى تستدعي الحركات التالية بصورة آلية محضّة ، بحيث لم تعد هناك أية مفاجأة ، كما لم تعد هناك أية مشكلة علي الاطلاق .

« وكي أسترده هذه التساوية التي لم أعد أستطيع إستغناء عنها ، لم يكن لي بد من جزء ثانٍ من ذلك المؤلف . وإذ كان مجرد التفكير في ذلك ضرباً من المستحيل ، لم أجد أمامي إلا مخرجاً وحيداً ، ألا وهو اختراع أشواط أخرى أجرب أن ألعبها مع نفسي ، أو بالأحرى ضد نفسي . لست أدري إن كنت تأملت في الحال الفكرية التي يرميك ملك الألعاب في لفتها : ههنا لا تلهب الصدفة أي دور مطلقاً ، بل إن جاذبية لعبة الشطرنج تقوم في المحل الأول في هذه الحقيقة ، ألا وهي أن دماغين يتصادمان فيها ، كل منهما بتكتيكه الخاص . وفي الحقيقة إن أهمية هذه المعارك الفكرية تكمن في أن السود لا يعرفون البتة كيف سيلعب البيض ، فهم إذن يسعون باستمرار إلى تخمين نواياهم كي يسدوا عليهم الطريق ؛ بينما البيض يجربون ، من جانبهم ، أن يكشفوا عن نوايا السود الخفية ، ويعترضوا سبلها قبل أن تبلغ نصيباً من النجاح .

« ولكن الحال تصبح متناقضة طبعاً إذا كان شخص واحد يمثل كلا المعسكرين . كيف يمكن للفكر أن يعرف الهدف الذي وضعه نصب عينيه وهو يلعب بالقطع البيض ، ثم ينسأه مرغماً عندما يضع مشاريعه مع القطع السود ؟ إن مثل هذا التضاعف الفكري يفرض تضاعفاً تاماً في الوجدان ، ويشير إلى إمكانية غريبة على عزل بعض وظائف الدماغ ، حسب مشيئة الإرادة وحدها ، فكأننا نشتغل بجهاز آلي خالص . إن يرمي الإنسان إلى لعب الشطرنج ضد نفسه ، ذلك يساوي سعيه إلى المسير فوق خياله بالذات .

« حسناً ! إن اليأس قد دفعني طوال أسابيع عديدة نحو هذا العبث عينه ، فالشروط التي أعيش فيها تجبرني على تجربة هذا التضاعف الذي اخضع له فكري بين أنا ببيض وأخرى سوداء ، ما دمت لا أريد أن يسحقني ذلك العدم الرهيب الذي يطوقني من كل حذب وصوب ، ويضيق الخناق علي دون رحمة أو شفقة .

واضطجع السيد ب... على مقعده الطويل ولجأ الى الهمة برهة ،
فكانه يحاول أن يطرد ، في عناء وجهه ، ذكرى متطفلة . وبدأت تلك العرة
التي لفتت انتباهي عند زاوية فمه مرة أخرى ، ومن ثم نهض عن كرسيه
واسترسل قائلاً :

« أظن ان قصتي كانت واضحة حتى هنا . ولست أدري من سوء الحظ
هل ستكون بقيتها كذلك أيضاً ، لأن المهمة الجديدة التي انصرفت اليها
كانت تتطلب مني توتراً فكرياً عظيماً أعال كل سيطرة على ذاتي ضرباً من
المستحيل بالنسبة الي . ربما كنت أحظي بنصيب ضئيل من حظ الخروج من
ذلك المأزق لو وجدتني امام رقعة حقيقية تسمح لي ، نوعاً ما ، باسقاط الاشياء
في المكان ، فالمرء يستطيع أن يهب قياساً لافكاره امام رقعة الشطرنج ، وامام
قطع حقيقية يحر كمها ، كما يقدر ان ينتقل حكيماً في مثل هذه الحال من جانب
المائدة الواحد الى جانبها الآخر ، ويرى الى الامور تارة من وجهة نظر السود
وتارة اخرى من وجهة نظر البيض . ولكن لم يكن لي بد ، وانا مضطراً الى شن
المعارك ضد نفسي ، او اذا كنت تفضل ذلك ضد أنا اسقطها في فراغ خيالي -
من ان انصور بكل جلاء مراكز القطع المتتابعة ، وامكانيات كل من
الخصمين ، ومن أن ارى في ذهني بكل وضوح - مهما بدا ذلك مستحيلاً وغير
معقول - ستة ، او ثمانية ، او اثني عشر وضعاً مختلفاً ، وذلك كي احسب
سلفاً اربع او خمس حركات لكل من الخصمين اللذين كنت امثلها وحدي .
« كان دماغني ينقسم الى دماغ ابيض ودماغ اسود اذا صح التعبير ،
وذلك كي اتمكن من متابعة هذا اللعب في فراغ مجرد ، ومن ترتيب الحركات
التي يلعبها عليّ تكتيك المعركة في كلا المعسكرين . ولكن اخطر ما في الامر
لم يكن ذلك الانقسام في الفكر الذي اخضع له داخلياً ، بل بالاحرى وقوع

كل شيء في مجال الخيال وحده : كنت أنعرض هكذا لخطر السقوط مبالغته ،
والانزلاق في الهاوية العميقة الخفيفة التي تفقرها تحت قدمي . حين كنت قبلاً
أكرر اشواط الكتاب لم أكن أفعل سوى نقل نسخة طبق الأصل عنها ، فلا
يتطلب التمرين مني جهداً أكثر مما يتطلبه تذكر مقطوعة شعرية أو فصل
من القانون المدني . تلك كانت فعالية محدودة ، منظمة ؛ رياضة فكرية مرموقة
بكل بساطة .

« شوطان صباحاً ، وشوطان بعد الظهر . . . هكذا كنت أحقق برنامجي
دون كثير من الانفعال . كان اللعب يقوم لديّ مقام الأشغال العادية ، فإذا
أخطأت أو ترددت أثناء أحد الاشواط أسرع الكتاب فهداً إليّ يد المعونة .
وإذا حمل ذلك النشاط الخلاص إليّ ، فلا نفي لم أكن العب شخصياً ، بحيث لم
أكن أبالي ان فاز السود أو البيض بالنصر ، بل ذلك أمر يهم الجيشين أو
بوغو لجوبوف اللذين يمدّان في طلب شرف البطولة ، بحيث كانت لذتي هي
لذة المتفرج ليس غير ، لذة العارف الذي يقدر تقلبات المعركة ويستمتع
بروعتها . ولكن منذ أخذتُ العب ضد نفسي ، فقد أصبحت ، دون وعي مني ،
أتحدى نفسي باستمرار ، فلا سود الذي هو أنا يباري الأبيض الذي هو أنا أيضاً ،
وكل منهما يريد ان يربح ويتغلب على الآخر ويقهره . وكانت فكرة ما سأفعله
عندما العب بالبيض تبعث الحمى في أوصالي بينما العب بالسود ، واحد الخصمين
الذين يكتمان معاً فيّ يفوز ويفضّب في الوقت نفسه عندما يرتكب الآخر
خطيئة أثناء الكر والفر المتعاقبين .

« لعل كل هذا يلوح مجرداً عن كل معنى تماماً ، وانه ليكون كذلك في
الحقيقة لو أننا تجاه انسان طبيعي يعيش في شروط طبيعية . اية قصة
لا يتصورها الخيال ، هذا التضاعف غير المعقول للشخصية الانسانية ! ولكن

لاتنس اني قد انتزعت في قسوة من يئتي المعتادة . واني كنت أسيراً بريئاً ،
تعذبني الوحدة منذ أشهر عديدة ؛ لاتنس اني كنت إنساناً تراكم الغضب في
فؤاده دون ان يستطيع أن يفجره على أي شيء أو أي شخص مطلقاً . ولما
لم أك أملك تسليمة ما ، اللهم الا هذا اللعب اللامعقول ضد نفسي ، فان نقمتي
ورغبتني في الثأر قد انصبمتا عليه في هياج شديد . كان في إنسان يريد أن
يدافع عن حقوقه ، ولكنه لا يستطيع ان يفعل ذلك الا ضد تلك الاثام الاخرى
التي ألعب ضدها ، بحيث ان هذه الاشواط من الشطرنج قد اوقعتني في هياج
شيطاني تقريباً . كنت استطيع بعد ، في البدء ، ان ألعب بهدوء ، وأتوقف بهض
الزمن بين كل شوط وآخر كي انال قسطاً من الراحة . ولكن سرعان ما
منعت عني أعصابي المتهاجرة كل راحة ممكنة ، فلا أكاد ألعب بالبيض حتى
ينتصب السود أمامي ، مرتعشين مرتجفين ؛ ولا أكاد أنتهي من شوط حتى
يهب نصف ذاتي يتحدى النصف الآخر ، لاني كنت أحمل دوماً في باطني
مغلوباً يطالب بالثأر .

« ولست استطيع ان اذكر ، حتي ولا على وجه التقريب ، عدد الاشواط
التي لعبتها هكذا في شرودي الذي لا يرتوي — ربما الف شوط ، وربما اكثر
من ذلك ايضاً . إن شيطاناً يسكنني دون أن استطيع مقاومته البتة . لم اكن
أرى ، طوال النهار ، سوى البيادق ، والابراج ، والمجانين ، والملوك ، ولم اكن
افكر الا في الانتصار والهزيمة ، وكل كينونتي ، كل حساسيتي قد تركزت
على بيوت رقعة الشطرنج الوهمية . لقد انقلب سروري باللعب رغبة عنيفة ،
والرغبة إلزاماً ، او جنوناً مهووساً بالاحرى بجتاح أيامي وليالي على حد
سواء . لم أعد افكر الا في الشطرنج ، وتحريك القطع ، بل غالباً ما كنت استيقظ
متعصباً الجبين عرقاً ، كي ادرك اني تابعت اللعب اثناء نومي . وإذا رأيت

وجوهاً بشرية في أحلامي ، فقد كانت تظهر لي دوماً في اشكال البرج ،
والفارس ، والمجنون . . .

« واصبحت افكاري مضطربة مبالغة في جلسات الاستجواب . ينجيل إلي
أنني قلت أشياء غامضة في المرات الأخيرة ، لأن القضاة كانوا يترشقون
بنظرات مدهوشة . وفي الحقيقة إنني لم اكن أنعظر ، في هواي الصادي - بينما هم
يسألون ويتشاورون - إلا اللحظة التي يعيدونني فيها الى غرفتي حيث أستطيع
أن أابع لعبي الجنوني . شوط واحد ، شوط واحد أيضاً كان كل تدخل يضايقي ، حتى
ربع الساعة الذي كان الحارس ينظف غرفتي اثناءه ، بل حتى تلك الدقيقتين اللتين
يستغرقهما عندما يأتي بي بطعامي . وغالباً ما كان الغداء يظل حتي المساء في وعائه ،
دون أن ألمسه ، لأنني أكون قد نسيت أن أتناوله . لكن العطش كان يلهمني
بالمقابل ، وسببه من دون ريب ذلك اللعب المحموم وتلك الأفكار الدائبة ،
فأنا أفرغ زجاجتي دفعة واحدة ، وأتوسل إلى الحارس كي يأتي بي بالماء ،
وإذا فني يضحي جافاً من جديد ، في اقل من لحظة واحدة .

« وأخيراً بلغ هياجني درجة لم أعد أستطيع معها البقاء دقيقة واحدة
جالساً في مكاني . لم اكن أفعل شيئاً آخر ، طوال النهار ، سوى اللعب ، وأنا
أذرع غرفتي في جيفة وذهوب لا ينقطعان ، مضاعفاً في سرعتي دوماً ، حاناً
خطاي باستمرار كلما اقترب الشوط من نهايته . كانت الرغبة في الرخ ، في
الفوز ، في التغلب على نفسي ، تصبح نوعاً من الهياج شيئاً فشيئاً ، فأروح
أرتجف في فراغ صبري ، لأن أحدهم الخصمين اللذين يسكناني كان دوماً
بطيئاً جداً علي حساب الآخر . كانا يتناحران ، فأروح أحث نفسي - مهما
بدأ ذلك سخيلاً في نظرك - « أسرع ، أسرع ! هيا ، هيا ! » ، وذلك كلما
تأخر الرد قليلاً ، وهو يتأخر دوماً في إحساسي . . . !

« أنا اعرف اليوم ، طبعاً ، ان هذه الحال الفكرية كانت مرضية غير طبيعية ، فلا اجد لها إلا هذا الاسم : « التسمم ببلعة الشطرنج » الذي لم يرد بعد في القاموس الطبي . إن هذا الجنون الذاتي قد انتهى إلى تسميمي جسداً وروحاً ، فأصابني الهزال ، واصبح رقادي مضطرباً متقطعاً ، فإذا استيقظت أحسست أجفاني ثقيلة كالرصاص ، لا أستطيع ان أباعد ما بيننا الا بجهد عظيم . وقد أصبحت ضعيفاً جداً ، كما شرعت يداي ترتجفان بصورة تمنعني عن رفع كأس الماء إلى شفتي الا بأعظم العناء . ولكن لا يكاد الشوط يبدأ حتى تسحرني قوة متوحشة ، فأروح في غرفتي وأجبي ، مطبق القبضتين ، واسمع احياناً صوتي المماص ، يأتي من خلال سحابة أشبه بالضباب المحمر ، يهتف في صدى أبح مغمم شراً وخبثاً : « مات الشاه ! » او « احترس ! »

« ولست أستطيع أن أروي لك كيف حدثت الذوبة التي تعرضت لها . كل ما اعرفه هو اني استيقظت ذات صباح جميل بطريقة تختلف عن يقظتي المعهودة . كان جسدي كأنه قد تحرر من ذاتي ، يتمدد في إعياء وطرادة ، وفي شيء من الرفاهية اللذيذة أيضاً . إن تعباً كبيراً طيباً ، لم أذوقه منذ أشهر عديدة ، يثيد على جفني ، ويبحث في إحساساً عظيماً من العيش الرغيد بحيث لم أستطع ان أحمل نفسي على فتح أجفاني مباشرة ، فبقيت على هذا المنوال بضع دقائق ، أنمتع بهذا الخمول ، وأذوق دفء سريري في إعياء لذيذ رائع . وخيل إلي ، على حين غرة ، اني أسمع أصواتاً الى الورا مني ، أصواتاً بشرية ، حارة حية ، تنفوه بكلمات هادئة ، بحيث انك لا تستطيع ان تتصور اغتباطي العظيم ، انا الذي لم أسمع منذ أشهر إلا الكلمات القاسية الشريرة التي بوجهها قضاتي إلي . قلت في نفسي : « إنك تعلم ! إنك تعلم ! لا نفتح عينيك على الاخص ! مدّ في حالك ، بالآخرى من ان ترى هذه الغرفة اللعينة ، والمقعد ، والمعلقة ،

والمائدة ، والرسم الأبدي الذي يزين الورق الملصق على الجدار . إنك تحمل . .
استمر في أحلامك ! . .

« ولكن الفضول تغاب أخيراً ، ففتحت عيني » ، في بطن ، وفي حذر
شديد . أواه ! يا عجباً ! وجدتني في غرفة أخرى ، غرفة أوسع من غرفة
الفندق التي كنت اقيم فيها . وكان النور يدخل بكل حرية من نافذة لا قضبان
لها ، أرى من ورائها أشجاراً خضراً تركض الريح من خلال أغصانها ، بدلاً
من ذلك الجدار الكئيب المحزن . وكان دهان الغرفة أبيض براقاً ، وكذلك
كان غطائي أبيض ناصعاً ... بلى ، لقد كنت في سرير آخر في الحقيقة ، في
سرير لا أعرفه . لم يك ذلك حلاً ، فهناك أصوات بشرية تتكلم بلحن خفيض
الى الورا مني . وما لاريب فيه أن اكتشافي قد بعث في اضطراباً عنيفاً ،
اذ سرعان ما اقتربت خطوات مني . كانت امرأة تتقدم نحوي ، رشيقة المشية ،
امرأة تغطي رأسها بمنديل أبيض ... إنها ممرضة بكل تأكيد . وارتعشت
أوصالي ، مغتبطاً سعيداً ... هذه سنة قد انقضت دون أن أرى امرأة خلالها .
وما لاريب فيه إنني تطلعت الى هذا الظهور بعينين مشرقتين لاهبتين لأن
الممرضة خاطبتي قائلة : « ابقى هادئاً ! هادئاً جداً ! » . لم أكن اسمع الا
صدى صوتها - لم يكن صوت كائن بشري ؟ اذن فهناك دوماً على الأرض
قوم ليسوا بقضاة ، ليسوا بجلادين ، هناك - ياللعجزة ! - هذه المرأة ذات
الصوت الرقيق الدافئ ، الذي يكاد ان يكون عذبا . رحت أصرو بثبات
الى الفم الذي حدثني بكل هذه الطيبة ، لأن تلك السنة الجهنمية قد أنستني ان
طيبة القلب موجودة بين البشر . ابتسمت لي - بلى ، لقد كانت تبتسم ، فهناك
اذن دوماً قوم يتسمون في هذا العالم ، ومن ثم وضعت اصبعاً على فمها ،
وابتعدت دون أن تثير اية ضوضاء مطلقاً .

« كيف كان يمكن أن اضيعها ؟ لقد بذلت على العكس جهوداً عنيفة كي اجلس في سريري وألاحظها بأنظاري ، كي أنأمل أيضاً هذا المخلوق الصغير الطيب . و اردت ان استعين بيدي ، ولكنني لم استطع ذلك ، لأن اليد اليمنى قد اختفت بكاملها فيما يشبه رزمة بيضاء كبيرة ، في ضياء فيما يبدو . رحبت اراقب هذا الضياء في فضول في البدء ، ومن ثم فهمت ببطء ، أين أنا موجود ، وطفقت افكر فيما عساه قد حدث لي . لقد جرحوني دون ريب ، او جرحت نفسي في يدي ، وأنا حالياً في المستشفى . »

« وزارني الطبيب بعد الظهر . كان سيداً عجوزاً لطيفاً جداً لا يجهل اسمي ، بل راح يتحدث في شيء كثير من الاحترام عن عمي ، طبيب الامبراطور ، بحيث ادركت مباشرة انه يريد الخير لي ، وطرح عليّ اسئلة عديدة اثناء الحديث ادهشني سؤال منها بصورة خاصة ، فقد سألتني اذا كنت رياضياً أو كمالوياً ، فأجبت بالنفي . »

« نعمم : »

— عجيب : لقد كنت اتخوفه بدساتير غريبة جداً في هذيانك : ج ٣ -

ج ٤ ، لم يفهم أحدنا شيئاً منها .

« واستفهمت منه عما حدث لي ، فابتسم بصورة غريبة وقال :

— لا شيء . ذا خطورة . نوبة عصبية عنيفة فقط . »

« و اضاف بصوت مخفوض جداً ، بعد ان ألقى حوالياً نظرة حذرة :

— وذلك معقول جداً ، على أية حال . لقد كنت هناك منذ الثالث عشر

من آذار ، أليس كذلك ؟

« فأشرت برأسي أن بلى ، »

« فعاد يغمم : »

— ليس ذلك غريباً ، مع مثل هذه الطريقة . أنت لست الأول في هذا المضمار . ولكن ، لا تقلق .

« وأدركت ، من أسلوبه في إلقاء هذه الكلمات والتطلع إلي ، أنني قد وقعت في يد أمينة .

« وروى لي هذا الطبيب الطيب ، بعد يومين ، كل ما حدث لي بصراحة تامة . لقد سمعني الحارس أصبح بصوت مرتفع جداً في غرفتي ، فعمود له للوهلة الأولى أن أحداً قد دخل الى الغرفة واني اتخاضم وإياه . ولكنه لم يكذب يظهر على عتبة الباب حتى انقضت عليه وانا ارسل صيحات متوحشة : « هيا ، تقدم ، ايها الوغد ! ايها الجبان ! » . وقد حاولت ان اطبق على عنقه في عزم شديد اضطر معه الى طلب المساعدة . وبينما هم يسوقوني الى الطبيب تمكنت من تخليص نفسي ، وارتيمت على نافذة الممر وأنا فريسة هياج مجوم ، فكسرت زجاجها وجرحت يدي جرحاً عميقاً — انك تستطيع ان ترى ندبته ههنا حتى الآن . وحين نقلوني الى المستشفى كنت مصعاباً بنوع من الحمى الدماغية ، ولكن سرعان ما تمكنت من استعادة حواسي بصورة تامة .

« واضاف طيبي بصوت لطيف بعد ان انتهى من رواية قصتي لي :

— وطبيعي اني ان اقول لهؤلاء السادة ان حالك تحسنت ، فانهم يمينون بأن يبدأوا من جديد . انكل علي ، فسوف ابذل كل ما في وسعي كي انقذك من هذا المأزق .

« وإني لأجهل أي تقرير قدمه هذا الصديق الثمين لقضائي الجلادين . المهم هو انه توصل الى ما كان ينبغي : اطلاق سراحي . لعله ادعى جنوني ، أو لعل شخصي لم يعد يثير اهتمام الجستابو كثيراً ، لأن هتلر كان قد احتل تشيكوسلوفاكيا ، بحيث ان مسألة النمسا قد انتهت بالنسبة اليه . وذهبت

كتائباً بأن أغادر وطني خلال خمسة عشر يوماً كانت مليئة جداً بكل التدابير
الضرورية اليوم لرحلة الى الخارج — اوراق عسكرية ، اذن من الشرطة ،
جواز السفر ، السمّة ، الشهادة الطبية — بحيث لم اجد الوقت كي افكر في
الماضي مطلقاً . وانه ليمدو ، على اية حال ، أن في دماغنا قوى غريبة منظمة
تُبعد بصورة عفوية كل ما يمكن ان يحمل الضرر الى النفس ، لأن الذاكرة
كانت تخونني كلما حاولت ان افكر في ايام أسري ، فلم استطع الا بعد اسابيع
عديدة ، حين وجدتني على ظهر المركب ، أن استعيد تلك الحوادث في ذهني .
» انك تدرك الآن لماذا تصرفت بهذه الطريقة غير اللائقة تجاه اصدقائك .

كنت انتقل دون هدف في قاعة التدخين عندما رأيت هؤلاء السادة جالسين
امام رقعة الشطرنج ، فاذا الدهشة والذعر يسمراني في مكاني ، لاني قد نسيت
تماماً أن المرء يستطيع ان يلعب الشطرنج على رقعة محسوسة ، وبقطع ملموسة ،
نسيت ان تلك لعبة يجلس فيها شخصان متميزان تماماً ، بلحمها وعظامها ،
تجاه بعضها بعض ، يتباريان ويتبارزان ، كل بامكانياته الخاصة .

» وفي الحقيقة اني استغرقت بضعة دقائق حتى تذكرت ان هؤلاء
اللاعبين الذين أراهم هناك إنما يلعبون ذات اللعبة التي كنت ألعبها في حجرتي ، عندما
كنت احاول في يأس ان لعب ضد نفسي . هذه الأرقام التي اعتدت عليها
اثناء المرحلة من التمارين البربرية لم تكن اذن الا زموز تلك القطع المصنوعة
من العظم . ان الدهشة التي احسستها لدى رؤيتي ان حركة هذه القطع على رقعة
الشطرنج توافق حركة ببادقي الوهمية ، التماثل من دون ريب دهشة الفلكي
الذي عين وجود كوكب سيار بحسابات رياضية دقيقة ، ومن ثم شاهد بفتة
هذا الكوكب في السماء بصورة نجمة مادية براقية . وهكذا رحت ارمق
الرقعة مسحوراً ، اتأمل مخططاتي وقد اصبحت حسية بواسطة فارس ، او شاه ،

أو ملكة ، أو بيدق حقيقية . ولقد اضطرت ، كي أدرك المراكز التي يحتلها كل من الخصمين ، إلى إسقاط عالي المجرد المؤلف من الأرقام في عالم تلك القطع التي تتحرك أمام عيني . وتملكني الفضول شيئاً فشيئاً ، حتى نسيت كل ما يفرضه واجب الأدب عليّ وتدخلت في لعبكم ، إذ أن الخطيئة التي كاد صديقك أن يرتكبها قد أصابت القلب مني ، فمنعته عنها بحركة غريزية ، دون تفكير ، مثلما يمسك المرء بطفل يميل فوق درابزون سلم مرتفع حتى يكاد أن يقع عنه ، ولم أدرك إلا فيما بعد ما كان في سلوكي هذا من فظاظة مستفحذة .

واسرعت أوكد للسيد ب... إننا نهىء أنفسنا على هذه الصدفة التي سمحت لنا بالتعرف إليه ، واضفت أن فراغ صبري قد تضاعف حالياً ، انتظاراً لمشاهدة جولة القد التي لمؤك في الحسبان ، وخاصة بعد أن اصغيت إلى حديثه .
ولاح القلق على محياه ، وهو يقول :

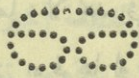
— كلا ، لا نتخذعوا . إني لن أفعل سوى امتحان نفسي .. بلى ، إني لاؤد .. إني لاؤد أن أعرف أن كان بإمكانني أن لعب شوطاً عادياً من الشطرنج ، على رقعة حقيقية ، بقطع حقيقية ، ضد خصم حقيقي ... ذلك إني ما برحت ارتاب في هذا الشأن دوماً . هذه الأشواط المائة ، هذه الأشواط الألف التي لعبتها ، هل كانت مضبوطة ؟ أو أن ذلك لا يعدو كونه حلماء ، كالذي يراه المرء عندما يكون مصاباً بالحُمى ، حلماء غريباً يقفز المرء فيه غالباً فوق حواجز الواقع ويتخطاها ؟

« انك لا تزعم بصورة جدية ، فيما أرجو ، أني أباري بطلاً عالمياً ، واني سأضعه خارج الميدان . كل ما يهمني في هذه القضية هو أن أعرف ، بصورة نهائية ، أن كنت حقاً قد لعبت الشطرنج في غرفتي تلك في الفندق ، أو إني

كنت مصاباً بالجنون بكل بساطة في ذلك الحين . أريد ان أعرف ، باختصار ،
إن كنت إلى الأمام أم الى الوراء من المنطقة الخطرة ، وذلك هو الهدف
الوحيد لي من وراء هذا الشوط .

ودعانا الجرس ، في تلك اللحظة ، إلى تناول العشاء . كان حديثنا قد دام
ساعتين تقريباً ، اذ اني اختصرت كثيراً ههنا القصة التي رواها لي السيد ب ...
شكرته بحرارة ، واستأذنت منه ، ولكني لم أكّد أغادر سطح المركب حتى
رأيت به بحث الخطي خلفي ، ويضيف في شيء كثير من العصبية جهله
يتلهم بكلماته :

— كلمة واحدة ايضاً ! اني لا أريد أن أظهر قليل الادب مرة أخرى :
هلا تفضلت فأخبرت اولئك السادة اني لن ألعب سوى شوط واحد ! تلك
ستكون خاتمة قصة قديمة ... خاتمة نهائية ، لن يكون لها عود على بدء
مطلقاً ... اني لا أود أن يملكني من جديد ذلك الهوى المحموم ، ذلك
الاستكلاب على اللعب الذي لا أستطيع أن أفكر فيه دون أن ترتعش
اوصالي .. أضف الى ذلك أن الطبيب قد أنذرني ... انذرني بصورة بينة .
ان امرءاً كان مصاباً بجنون ما قد يسقط مريضاً به مرة أخرى ، حتى ان شفي
منه تماماً ... يفضل ألا يقترب المرء من رقعة الشطرنج أبداً ، اذا كان قد
سبق فتسمم بها . ثلي ... انك تفهم — سوف ألعب شوطاً وحيداً كي أثبت
من هذا الامر ، ولسوف يكون هذا كل شيء .



التقىنا في الغداة ، في تمام الساعة الثالثة ، في قاعة التدخين ، وقد انضم إلينا هاويان للشطرنج من ضباط المركب بعد أن نالا اذنأ خاصاً بحضور الجولة. ولم يتأخر جنتوفيك عن الموعد ، هذه المرة ، فابتدأ شوط لا ينسى التقى فيه مواطني الغامض جداً مع البطل الشهير . واني لآسف أن هذا الشوط قد جرى أمام متفرجين مجردين عن كل أهلية او جدارة في الموضوع ، بحيث انه ضاع بالنسبة الى تاريخ لعبة الشطرنج ، مثما ضاعت بالنسبة الى تاريخ الموسيقى ارتجالات بيتهوفن على البيان. ولقد جربنا في الحقيقة أن نراجع الشوط في الغداة ، بمقدار ما تسمح لنا ذاكرتنا بذلك ، ولكن دون أن تتكامل جهودنا بالنجاح ، إذ أن اللاعبين قد أثارا اهتمامنا أكثر من اللعب نفسه الذي لم نكن ندرك تقابلاته جيداً .

وقد ازداد التناقض الفكري بين الخصمين وضوحاً أكثر فأكثر في موقفها المختلف اثناء المباراة . كان جنتوفيك جامداً متصلباً مثل الاثرومة ، لا يجيد ببصريته عن الرقعة مطلقاً ، فالتفكير بالنسبة اليه مجهود حكمي يتطلب تركيز سائر أعضائه على حد سواء ، بينما السيد ب... قد ظل على العكس طليق الفكر ، حرّاً الحركات تماماً ، لا يجيد في اللعب — وهو الهاوي بأسمى معنى الكلمة — سوى التسلية التي يوفرها له ، فيقدم لنا الايضاحات من تلقاء نفسه ، وكل طيبة خاطر ، في فواصل الحركات ، ويشعل لفافة التبغ بيسد

رشيقة ، ولا يتطلع الى رقعة الشطرنج الا قبل أن يلعب بدقيقة واحدة ، وكأنه قد توقع سلفاً نوايا الخصم دوماً .

سارت الأمور مسرعة في البدء ، ولم يدرك ان المعركة قد انضمت حسب خطة مرسومة إلا بعد الحركة السابعة أو الثامنة ، فأصبح جنتوفيك يستغرق مدة أطول في التفكير ، الأمر الذي أدركنا منه ان النضال قد أصبح أكثر حدة ورجداً من ذي قبل . ويجب ان اعترف على اية حال ان الجولة قد خيمت أما لنا بالآخرى ، نحن المبتدئين ، إذ كلما تعقدت أوضاع القطع على الرقعة ، كلما خفي معناها علينا وازداد بعداً عن مداركنا ، فلا نحن ندرك نوايا الخصمين ، ولا نحن نستنتج أيًا من المعسكرين يملك التفوق على خصمه . كما نرى ، بكل بساطة ، أنها بحر كان قطعها ، مثلاً يسير القواد كتائبهم كي يفتحوا ثغرة في صفوف العدو . ولكننا لم نكن نستطيع ان ندرك الأهداف الاستراتيجية لهذه الحركات ، لأن اللاعبين العريقين في فهم يرسمون دوماً لعبهم حتى قبل عدد كبير من الحركات .

وقد أضيف إلى جهلنا ، قليلاً فقليلاً ، الاعياء الناشئ عن دقائق الانتظار الطويلة اللازمة لجنتوفيك وتقديراته . كان هذا التاهل يهيج مواطني بشكل واضح ، فلاحظت في قلق انه يتململ أكثر فأكثر في مقعده ، وأنه يشعل لفافة بعد لفافة في عصبية ، أو يكتب ملاحظة مايد سريرة من حين لآخر . وابتدأ يطلب زجاجات من الماء المعدني راح يبتلع محتوياتها في عجلة ، وهو بحسب حر كانه ، فيما بدا لي بكل جلاء ، أسرع من جنتوفيك بمائة من المرات . وعندما كان هذا الأخير يدفع القطعة أخيراً بيده الثقيلة بعد تفكير طويل لامتناه ، كان بطلنا يتسم وعليه سيماء من توقع تلك الحركة منذ زمن طويل ، ويرد عليها في العو واللحظة . كان دماغه يشغل بسرعة عظيمة ، حتى أنه

يعرف ، بكل تأكيد ، كل إمكانيات خصمه ، فيتفاهم فراغ صبره بسبب ذلك بمقدار ما كان جنتوفيك يتأخر في اللعب ، ويرتسم على شفتيه تعبير من السخوط المفعم استياءً وعداوة بينا هو ينتظر معتملاً متضيقاً .

ولكن جنتوفيك لم يكن يتأثر بذلك مطلقاً ، بل إن تأملاته تطول ، كثيثة خرساء ، بمقدار ما ينقص عدد القطع على الرقعة . وعند الحركة الثانية والأربعين ، كانت ساعتان وثلاثة أرباع الساعة قد انقضت على بدء الشوط ، فلم نعد نتابع المباراة إلا بنظرة بلباء من التعب والاعياء الشديدين . وغادرنا أحد الضابطين في أثناء ذلك ، بينما راح الآخر يقرأ كتاباً ، ولا يلقي إلا نظرة سريعة على رقعة الشطرنج عندما يلعب أحد الخصمين . وفجأة - كان دور جنتوفيك في اللعب - حدث شيء لم يكن في الحسبان . كان البطل قد وضع أصبعه على الفارس كي يقدمه ، فإذا السيد ب ... قد انكش على نفسه عندما رآه يفعل ذلك مثل قط يتأهب للقفز . وراح يرتعش بكل جسده ، ومن ثم دفع الملكة بحركة ثابتة من يده وهتف في حماسة فائقة . « هذا هو ! لقد تم كل شيء ! » ، وارتقى إلى الورا ، وصالب ذراعيه على صدره ، ورى جنتوفيك بلمحة تحدّ مشتعلة ببريق محرق .

وانحنينا جميعاً على رقعة الشطرنج كي نعاثر تلك العملية المعلن عنها بكل هذا الظفر ، ولكننا لم نشاهد الوهلة الأولى شيئاً ينذر بالخطر قط : لا ريب أن هتاف صديقنا يتعلق بتطور لاحق لا نستطيع نحن الآخرين ، الهواة القصيري البصر ، أن نتنبأ به . كان جنتوفيك هو الوحيد الذي لم يتأثر بهتاف خصمه ، بل ظل جامداً لا حراك به وكأنه لم يسمع شيئاً على الإطلاق . ولم يحدث شيء البتة إثر ذلك ، بل استمرت الساعة الموضوععة على المائدة من أجل قياس الفاصل بين كل حركتين تدق ، في السكون الشامل ، بصورة

منظمة . ومرت ثلاث دقائق ، ثم سبع ، ثم ثمان - وجنتوفيك لم يتحرك ، وإن بدا لي أن الجهد الذي يبذله يوسع خيشوميه الغليظين أكثر من ذي قبل أيضاً .

أصبح الانتظار لا يطاق ، إن بالنسبة إلى السيد ... أو بالنسبة إلينا . نهض بقفزة واحدة ، وطفق يذرع أرض قاعة التدخين طولاً وعرضاً ، ببطء في البدء ، ثم بصورة متزايدة السرعة باستمرار . وراح الجميع يتطلعون إليه في شيء من الدهشة ، أما أنا فأجتاحني قلق شديد ، إذ لاحظت أنه يذرع باستمرار نفس المساحة ، بالرغم من هياجه ، فكان حاجزاً غير منظور يعترض سبيله في منتصف الغرفة ، ويجبره على أن يعود أدراجه . وادركت ، مرتعش الفؤاد ، أنه يخطو ذات العدد من الخطوات التي كان يقوم بها في غرفة إيساره . بلى ، مما لا ريب فيه أنه كان يتزدهر هكذا بالضبط ، طوال أشهر عديدة ، مثل الوحش الكاسر في قفصة ، مطبق القبضتين ، منقبض الكتفين ، بيننا بريق الجنون الأحمر يشتعل في نظراته الثابتة المحمومة . ولكنه كان يحتفظ بحضور ذهني في هذه اللحظة ، لأنه كان ينظر من حين لآخر في فراغ صبر ناضجة المائدة كي يرى ما إذا كان جنتوفيك قد لعب أخيراً .

وانقضت تسع ، أو عشر دقائق على هذا المنوال . أما ما حدث بعد ذلك ، فإن أحداً منا لم يكن ينتظره البتة . رفع جنتوفيك يده الثقيلة ببطء ، فراح كل منا يتطلع في ثبات إلى ما ينوي أن يصنعه . ولكن جنتوفيك لم يلعب ، بل دفع بظهر يده القطع عن الرقعة فرماها . ولم نفهم مطلقاً الوهلة الأولى أنه يترك الشوط هكذا ، أنه يستسلم قبل أن يرى الجميع أنه قد غلب على أمره . لقد تحقق غير المعقول ، فإذا البطل العالمي ، المنتصر في عدة جولات ، يخفض رايته أمام مجهول ، أمام رجل لم يقترب من رقعة الشطرنج منذ عشرين أو خمس

وعشرين سنة . إن صديقنا ، هذا المجهول ، قد غلب في جولة علمية اقوى
لاعب في العالم بأسره وانقصر عليه . ونهضنا جميعاً في انفعالنا ، دون ان
نلاحظ ذلك ، وكل منا يشعر بأن من واجبه أن يقول أو يفعل شيئاً كي
يطلق العنان لفرعه المغتبط ، سوى جنتوفيك الذي لم يتحرك ، وحده من دون
الآخرين جميعاً ، بل رفع رأسه بعد برهة طويلة ونظر إلى صديقنا
بهين قاسية .

سأل :

— هل لك في شوط آخر ؟

فأجاب السيد ب ... في حماسة تركت في انطباعاً سيئاً :

— ولكن بكل تأكيد !

وجلس من جديد قبل أن أتمكن من تذكره بنيته في أن يلعب شوطاً
واحداً ليس غير ، ورتب القطع على الرقعة في عجلة محومة ، ترتجف أصابعه
كثيراً حتى اقلت منها بيدق مرتين متتاليتين وتدرج على أرض الغرفة .
واصبح الضيق الذي أحسست به لدى هياجه المبالغ فيه عذاباً مرهقاً تقريباً ،
فإن هذا الانسان الهادئ المسالم قد انقلب ، من دون أدنى ريب ، إنساناً
ثائراً ، وراحت العرة تلوي زاوية فـه أ كثر فأ كثر ، بينما جسده بأسره
يرتجف ، وكأن حمى مفاجئة قد اجتاحتها وراحت تهزه .

همست في أذنه بصوت مخفوض :

— هذا يكفي ! لا تلعب بعد الآن ! يكفي اليوم ، فأنت متعب جداً .

— متعب ! ها ، ها !

ضحك ضحكة قوية ، فيها شيء كثير من الخبث :

— اني أستطيع أن أعب سبعة عشر شوطاً ، لولا أننا نتمهل هكذا !

إن ما يتعجبني ، على هذا النسق ، هو بقائي يقطاً . هيا ، أنت الذي ستبدأ !
كانت الكلمات الأخيرة التي تفوه بها بلهجة عنيفة ، بل بشيء من الفظاظة
تقريباً ، موجهة إلى جنتوفيك الذي ألقى على خصمه نظرة هادئة ، لكن
قاسية كلطمة شديدة في الوقت ذاته . كان توتر خطر ، حقد مجوم ، قد وُلد
بين اللاعبين ، حتى لم يعودا خصمين يريدان أن يمتحنا قواهما ويتسلما ، بل
أصبحا عدوين أقسا أن يفنيا بعضهما بعضاً . وتأخر جنتوفيك طويلاً قبل أن
يبدأ حركته الأولى ، وشعرت بكل وضوح أنه يعتمد ذلك . لا ريب أنه
ادرك أن تكاسله يتعب الآخر ويهيجه ، فهو يستخدمه إذن في سبيل
مصلحته .

وافتح اللعب بعد أربع دقائق طويلة بأبسط طريقة وأكثرها شيوعاً ،
وذلك بأن قدم البيدق الذي يحمي الشاه بيتين ، فأسرع السيد . . . يرد
عليه مباشرة بالبيدق ذاته ، ومن ثم عاد جنتوفيك إلى توقفه الباعث على اليأس .
ورحنا ننظر ، وقلوبنا تخفق ، مثلما ينتظر المرء الرعد بعد البرق الذي يهر
الأبصار ، والرعد يتأخر ، يتأخر دوماً . لم يك جنتوفيك يحرك ، بل هو
يفكر ، يبطه وهدوه ، وأنا أحس أكثر فأكثر أنه يعتمد البطء ويقصد
إليه في خبث كثير . وكنت أستطيع بذلك أن أراقب السيد . . . بدقة تامة ،
فلاحظت أنه شرب حتى تلك اللحظة ثلاثة أقداح من الماء ، الأمر الذي
ذكرني بقصته ، وبالعطش اللاهب الذي كان ينتابه أثناء إسماره . كان البائس
ييدي سائر أعراض هياج غير طبيعي ، فجبينه قد تبلل ، والندبة في يده
أصبحت أشد احمراراً أو أقل بياضاً ، وإذا ظل حتى ذلك الحين مالكاً لزمان نفسه ،
فقد صاح قائلاً حين رأى جنتوفيك سيعود ، بعد الحركة الرابعة ، فيستغرق
في تأملاته اللامتناهية .

— إلعب إذن ! هيا !

فرفع جنتوفيك بصره البارد ، وقال :

— إذا لم أكن مخطئاً ، فقد حددنا الفاصل بين كل حركتين بعشر دقائق .

وأنا لا ألعب ، مبدئياً ، بصورة أسرع مطلقاً .

فهض السيد ب .. على شفتيه ، وطفقت قدمه تتأرجح بسرعة تحت المائدة ، بسرعة متزايدة باستمرار . إنه سيفقد وعيه بكل تأكيد ، ذلك كان شعوري الذي لا يقاوم . وفي الحقيقة إن حادثاً جديداً قد وقع لدى الحركة الثامنة ، فإن السيد ب . . . الذي كان يتحمل تلك الفواصل الطويلة . من الانتظار في فراغ صبر متفاقم ، لم يعد يستطيع أن يتمالك نفسه ، فراح ينحني إلى الأمام وإلى الخلف ، وهو يقرع المائدة بأصابعه دون وعي منه .

رفع جنتوفيك رأسه الكبير ، وقال :

— هل أستطيع أن أرجوك ألا تقرع المائدة هكذا ؟ إن ذلك يزعجني ، فلا

أستطيع أن ألعب عندما أسمع هذه الضوضاء .

فأطلق السيد ب ... ضحكة مقتضبة :

— ها ، ها ! لقد لاحظت ذلك !

فاحمار جنتوفيك . سأل ، وفي صوته رنين القسوة وإمارات الشر :

— ماذا تريد أن تقول ؟

فضحك السيد ب ... مرة أخرى ضحكة جافة خبيثة :

— اوه ! لا شيء . كل ما أعنيه هو أنك كثير الهياج بكل بساطة .

فأطرق جنتوفيك برأسه ولجأ إلى الصمت من جديد . انتظر سبع دقائق

حتى لعب الحركة الثامنة ، ومن ثم استمر الشوط يتقدم بهذا النظم القاتل .

وبدا جنتوفيك يزداد تصلباً أكثر فأكثر ، فهو لا يقرر الآن حركته إلا في ختام

الدقائق العشر ، بينما سلوك خصمه يزداد غرابة باستمرار ، فيلوح وكأنه قد نسي الشوط الحاضر ، وشغل بشيء آخر ، فهو لا يتنزه في الغرفة مثله قبلاً ، بل لا يبرح جامداً في مقعده ، ينظر في الفراغ بعين شاردة ، ويتمم دون انقطاع بكلمات غير مفهومة . هل ضاع في تراكيب لامتناهية ، أم أنه يلعب شوطاً آخر كما ظننت ؟ الواقع أننا كنا نضطر دوماً الى تنبيهه كلما جاء دوره كي يلعب ، فتكفيه في مثل هذه الحال دقيقة واحدة كي يتوجه ، وإن ازداد يقيني أكثر فأكثر بأنه قد نسينا جميعاً بالرغم من ذلك ، بما فينا جنتوفيك نفسه ، كي يصبح فريسة نوبة باردة من الجنون قد تنفجر في كل لحظة ، على حين غرة ، في عنف عظيم .

وهذا ما حدث فعلاً لدى الحركة التاسعة عشرة ، إذ لم يكّد جنتوفيك يلعب حتى دفع السيد ب . . مجنونه على طول ثلاثة بيوت ، حتى دون أن يتطلع إلى الرقعة ، وهو يصيح بصوت مرتفع جداً جعلنا ننتفض جميعاً :

— احترس ! احترس من أجل الشاه !

فأنحنينا جميعاً فوق الرقعة ، نجرب ان نفهم ما يجري عليها . ولكن احداً منا لم يكن يتوقع ما حدث بعد دقيقة واحدة ، إذ رفع جنتوفيك رأسه ببطء ، ببطء شديد ، وتطامح إلينا الواحد تلو الآخر — الأمر الذي لم يفعله حتى الآن — فرأينا ابتسامة ساخرة مشبعة بالرضى ترسم على شفتيه ، وكل سيئاته تدل على سرور بالغ لاحدود له . وعندما تمتع بصورة كافية بهذا الظفر غير المفهوم منا بعد ، قال في أدب متصنع ، موجهاً الحديث إلى الحلقة بأسرها :

- إني آسف ، ولكني لست أرى كيف يمكن أن يكون شاحي
معرضاً للخطر . هل يرى أحد من هؤلاء السادة ذلك ؟
نفحصنا الرقعة ، ومن ثم استدارت انظارنا القلقة نحو السيد ب...
إن بيدقاً يغطي شاه جنتوفيك - الامر الذي يستطيع طفل صغير أن
يتأكد منه - فالشاه غير معرض إذن للخطر مطلقاً . هل دفع صديقنا
الشائر الحمية بيدقه هكذا دون وعي منه ؟ وردّه الصمت المطبق الى نفسه ،
فتفحص الرقعة بدوره ، وراح يقول ، متلعثماً مرتبكاً :
- ولكن الشاه يجب أن يكون في و ٧... إنه ليس في مكانه ،
أبدأ ! لقد أخطأت ! إن كل شيء مغلوط على هذه الرقعة ! ... هذا
البيدق يجب أن يكون في ز ه ، وليس في ز ء ... هذا شوط آخر
تماماً ... هذا ...

وتوقف بغتة عن الكلام . لقد أمسكت به من ذراعه ، لا بل
قرصته بشدة حتى أحس بذلك ، بالرغم من شروده ، فاستدار نحوي ،
ونظّل إليّ بعيني المستغرق في النوم .
- ماذا هناك ؟ ماذا تريد ؟
فهمست في أذنه بكل بساطة :
- تذكر ! (١)

ومررت باصبعي على الندبة التي يحملها في يده ، فلاحق حركتي بأبصاره ،
وإذا عيناه تكمدان وتثبتان في الشائر الآخر ، ومن ثم طفق يرتعش على
حين غرة ، فتجتاح قشعريرة كل جسده وتهزه هزاً .
همس ، شاحب الشفتين :

(١) بالانكليزية في النص الأصلي .

- بحق السماء ، هل قلت شيئاً أو فعلت شيئاً غير معقول ؟ ... هل
عدت من جديد ؟ ...

فقلت في صوت خفيض عذب :

- كلا ، ولكن كف مباشرة عن اللعب ، فقد حان الوقت لذلك . تذكر
ما قاله الطبيب لك !

فأسرع السيد ب ... ينهض عن مقعده .

قال ، وهو ينحني أمام جنتوفيك بكل أدبه السابق :

- أرجو ان تفضل فتغفر خطيئتي الحقاء . إن ما قلته توأ ليس إلا عبثاً
باطلاً بكل تأكيد . إنك أنت الذي غلبت ...

ومن ثم استدار نحونا :

- إني أعذر منكم أيضاً ، أيها السادة . ولكني قد سبق فأذرتكم أن
لا تعقدوا كبير آمال على عملي . اغفروا هذا الحدث المضحك - هذه هي المرة
الآخيرة في في حياتي التي أجرب أن اللعب الشطرنج فيها .

وانحنى مرة أخرى ، ثم تركنا بذات الطريقة العجيبة والمحوطة بالأسرار
التي ظهر لنا بها . كنت الوحيد الذي أعلم لماذا لن يلمس هذا الرجل رقعة
الشطرنج بعد اليوم ، بينما ظل الآخرون هناك ، يعون في غموض أنهم قد افلتوا
من خطر ليسوا يدرون حقيقة على وجه الدقة .

وزجر مالك كونور ، وقد خابت آماله :

- يالك من مجنون لعين ! (١)

كان جنتوفيك آخر من غادر مقعده ، فألقى نظرة سريعة على الشوط
الذي بداه ، وقال في أريحية قبل أن يذهب :

- يالأسف ! إن الشوط لم يكن شيئاً . أما هذا السيد ، فإنه موهوب
كهاوي ، بصورة تلفت الأنظار حقاً .

(١) بالانكليزية في النص الأصلي .

ارسلت خطاها الى السيد. يا ارحمكم الله
في السنة كما في الحب. يا ارحمكم الله
ك. ك.

رسالة من مجهولة

ستيفان زفايج

تقيد من دوستويفسكايا الميسرة. (أف) غدا نأكل
واحدة من مئة (1) ابر. وكان جادل بسائل عن نفس
المنهارة.

قلمی چمنه خال

چمنه خال

چمنه خال چمنه خال
چمنه خال چمنه خال
چمنه خال چمنه خال
چمنه خال چمنه خال

رجع ر . . . ، الروائي الذائع الصيت ، الى فيينا ذات صباح في ساعة مبكرة ، بعد فترة استجمام قضاهها في الجبل دامت ثلاثة أيام ، وابتاع صحيفة في المحطة بعد هبوطه من القطار مباشرة ، وما اسرع ما تذكر عندما وقعت أبصاره على التاريخ أن اليوم يوم عيد ميلاده ، فهمس في وليجة نفسه : « واحد واربعون عاماً ، ولكن هذه الفكرة لم تبعث في فؤاده اي شعور من الفرح أو الألم مطلقاً . وقد لب دون ان يتوقف عن المسير صفحات الجريدة التي راحت تزق بين يديه ، ومن ثم استدعى سيارة وقفل إلى داره .

حمل إليه خادمه ، بعد أن أخبره أن زواراً طرّقوا بابه مرتين ، كما أن جرس الهاتف قد رنّ في غرفته عدة مرات أثناء غيابه ، بريده على صحيفة فضية ، فتطلع الروائي إلى الرسائل ناعساً متعباً ، ومزق بعض الغلافات التي يعنيه أمر مرسلها ، بعد ان وضع جانباً ، منذ البدء ، رسالة بدت له ضخمة نوعاً ما ، كما وجد خطها غريباً عليه فكأنه يراه للمرة الأولى . وقدم الخادم الشاي اليه ، فاستراح في مقعده ، وتصفح الجريدة وبعض المطبوعات مرة أخرى ، وأخيراً أشعل لفافة ، ورجع الى الرسالة التي وضعها جانباً فتناولها .

كانت عبارة عن أربع وعشرين صفحة مكتوبة بخط نسائي سريع مضطرب ، تكاد ان تكون مخطوطاً بالاحرى منها مجرد رسالة عادية . وتحسس الروائي الغلاف مرة أخرى ، بصورة غير واعية ، كي يتحقق من أنه لم يترك

فيه ورقة أخرى توضح معنى تلك الرسالة الغريبة ، ولكنه وجد الغلاف فارغاً ، أما الورقات نفسها فلم تكن تحمل عنواناً للمرسل ، ولا توقيعاً باسمه . فكر بينه وبين نفسه : « أمر غريب ! » ، ومن ثم تناول الورقات من جديد ، فوجد أن أعلى الورقة الأولى يحمل عنواناً هو الكلمات التالية : « اليك ، انت الذي لم تعرفني قط » ، فتوقف عن القراءة مدهوشاً ، وتساءل : إن كان الأمر يتعلق به حقاً ، أم بكاثر خيالي بالاحرى . ولقد استثار كل ذلك فضوله ، فطفق يقرأ .

* * * *

« لقد مات ولدي البارحة ! لقد ناضلت ضد الموت طوال ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ كي انقذ هذا الوجود الصغير الطري ، وبقيت طوال أربعين ساعة قابعة عند أسفل سريره بينما النزلة الوافدة تهز جسده المسكين الملهب بالحمل . لقد رطبت جبينه المشتعل ناراً ، وأمسكت ليلاً ونهاراً يديه الصغيرتين المحمومتين ، ولكن قواي تلاشت في الليلة الثالثة ، ولم تعد عيناى تستطيعان احتمالاً وجلداً ، فانطبقتا من تلقاء نفسيهما دون علم مني . ولقد بقيت هكذا ثلاث أو أربع ساعات نائمة في مقعدي ، فاذا الموت يختطف ولدي أثناء هذه الفترة . وإنه ليتمدد ههنا حالياً ، هذا الصغير الحبيب المسكين ، في سريره الطفولي الضيق ، مثله في لحظة وفاته تماماً ، سوى أنهم قد أغلقوا عينيه ، عينيه الغامقتين المغممتين ذكاه ، وشبكوا يديه على قميصه الأبيض ، بيناراحت أربع شمعات تلهب بذبالة عالية عند زوايا السرير المسجى فيه .

« إنى لأجسر على التطلع ، كما لا أجسر على الحركة ، لأن أخيلة كثيرة تنزلق على الحما والتم المغلق كلما تذبذب النور ، فيصوّر لي عندئذ أن الحياة تدب في ممانه من جديد ، وأميل إلى الاعتقاد بأنه لم يمِث ، وأنه سيستيقظ

عن قريب ، ويقول لي بصوته الصافي بضع كلمات من الحنان الصبياني الرائع .
والكني أعرف انه قدمات ، ولست أريد بعد الآن أن أنظر ، كي لا اطفق
أترجى مرة أخرى ، وكي لا يخيب رجائي مرة أخرى أيضاً . إني أعرف ذلك ،
إني أعرف ذلك : لقد مات ولدي البارحة ، والآن لم يعد لي في الدنيا سواك ،
أنت الذي لا تعرف شيئاً عني ، والذي ربما كنت تلهو في هذه اللحظة لا
تداخلك الريبة على الاطلاق ، أو تتسلى بالبشر والاشياء على حد سواء ،
كهذهك أبداً . لا ليس لي سواك ، أنت الذي لم تعرفني قط ، والذي
احببتك دوماً .

» لقد أخذت الشمعة الثانية ووضعتها ههنا على المائدة التي اكتب إليك
عليها . ذلك أنني لا أستطيع أن أبقى وحيدة مع ولدي الميت دون أن اسكي
بكل قوى نفسي وأنوح . وإلى أي إنسان أستطيع أن أتوجه ، في هذه الساعة
الرهيبة ، إذا لم أتوجه إليك ، أنت الذي كنت كل شيء بالنسبة إلي ، والذي
ما برحت كذلك الآن أيضاً .

» لست أدري ان كنت أعبر عن نفسي بما يكفي من وضوح ، أو لعلك
لا تفهمني ؟ إن رأسي لثقيل جداً ، وصدغي يخفقان ويدويان ، وسائر أعضائي
توجهني . ليخيل إلي إني مصابة بالحمى ، وربما بالنزلة الوافدة أيضاً التي تنجول
حالياً من باب إلى باب وتعتقل من دار إلى أخرى . وإن ذلك لأفضل في
الحقيقة ، لأنني سأرحل هكذا مع ولدي ، ولا أكون مضطرة الى اللجوء الى
العنف مع نفسي . وكثيراً ما يمر غشاء قائم أمام عيني ، بل لعلني لن أكون
قادرة على إنهاء هذه الرسالة أيضاً . ولكني أريد أن أجمع سائر قواي كي
أتحدث إليك مرة ، هذه المرة الوحيدة فقط ، أنت يا حبي ، أنت الذي لم
تعرفني قط .

« إليك وحدك أريد أن أتوجه ، لك وحدك سأقول كل شيء للمرة الأولى ؛ وسوف تطلع على كل حياتي التي كانت لك دوماً ، والتي لم تعرف قط شيئاً عنها . ولكنك لن تعرف سري إلا بعد ما يكون الموت قد أخذني ، عندما لا يعود في قدرتك أن ترد علي ، عندما يكون قد اختطفني بصورة نهائية هذا الذي يبعث في أوصالي الآن كثيراً من الصمغ وكثيراً من النار في وقت واحد . وإذا حيت ، فسوف امزق هذه الرسالة وأستمر محتفظة بصمتي ، مثلما احتفظت به دوماً . أما إذا وصلت هذه الرسالة الى ما بين يديك ، فاعلم إنها امرأة ميتة تروي لك قصة حياتها ، حياتها التي كانت لك منذ اول ساعة حتى آخر ساعة من وعيها . لا تخف من كلماتي ، إذ أن امرأة ميتة لا تستطيع أن تطالب بأي شيء ؛ إنها لا تطلب حباً ، ولا إشفاقاً ، ولا عزاء . ان الشيء الوحيد الذي أطلبه منك هو ان تصدق كل ما سيكشف لك النقاب عنه ألمي الذي يلجئ اليك . ألا صدق كل ما أقول لك ، فهذا هو الرجاء الوحيد الذي أتوجه به إليك : ان الانسان لا يكذب ساعة وفاة ابنه الوحيد .

« أريد أن أرفع النقاب لك عن حياتي بأسرها ، هذه الحياة التي لم تبدأ بصورة حقيقية إلا يوم عرفتك . انها لم تك قبل ذلك الا شيئاً مضطرباً عكراً لا يستطيع ذاكرتي ان تعود الى الانغماس فيه مطلقاً ، لقد كانت أشبه بقبو يغطي غباره وشبهكات عناكبه أشياء وكائنات غامضة الحدود لم يهد قلبي يعرف شيئاً عنها مطلقاً . عندما عرفتك كنت في الثالثة عشرة ، وكنت اقطن في الدار التي ما برحت تسكنها ، في نفس هذه الدار التي تمسك فيها الآن بين يديك بهذه الرسالة ، نفس حياتي الأخير . لقد كنت اقطن في الطابق نفسه ، مقابل باب جناحك بالضبط ، ولكنك لا تتذكرنا بكل تأكيد ، امرأة موظف

المالية البائسة (لقد كانت ترتدي دوماً ثياب الحداد) ، والطفلة الناحلة ، التي لم
تكد تتكون بعد ، والتي كانت أنا في ذلك الحين . لقد كنا نعيش في عزلة
مطلقة ، فكأننا ضامعتان في لجة حياة البورجوازيين الصغار العادية . ولعلك
لم تعرف اسمنا قط ، لأن بابنا لم يكن يحمل لوحة تشير إليه ، كما أن أحداً لم
يكن يأتي لزيارتنا أو للسؤال عنا . أقول ذلك لأنه قد مضى عليه خمسة عشر
أو ستة عشر عاماً ! وانك لا تذكر ذلك الزمن بكل تأكيد ، يا حي ، أما أنا
- أو اه ! - فاني اذكر بحماسة كل الهنات بها ضوأت قيمتها . اني أعرف
مثلاً ، وكان ذلك لم يحدث الا البارحة فقط ، اليوم بله الساعة التي سمعت
بذكرك فيها للمرة الاولى ، والتي رأيتك فيها للمرة الاولى ، إذ كيف يمكن
ان يكون الأمر غير ذلك ما دام الكون قد فتح لي في تلك اللحظة بالذات ؟
اسمح لي ، يا حي ، ان أروي لك كل شيء ، كل شيء منذ البداية ؛ تفضل ،
أرجوك ، وكلف نفسك عناء سماع الحديث عني طوال ربع ساعة من الزمان ،
انا التي لم اتعب من حبك طوال حياة كاملة .

« قبل قدومك الى منزلنا ، كان قوم شريرون ، حقودون ومحبون للخصام
يقطنون وراء بابك . كان اكثر ما يبغضون ، على فقرهم ، جيرانهم المعوزين
- اي نحن لاننا نأبى ان يكون لنا شيء مشترك مع فظاظتهم ، هم الفقراء الذين
تجردوا عن كل كرامة وعزة نفس . كان الزوج سكيراً ، يضرب زوجته ،
حتى كثيراً ما كنا نفيق في الليل على ضوضاء المقاعد التي ترمى أرضاً بعنف
شديد ، وعلى رنين الصحن المتكسرة في ضجيج عظيم . وفي ذات مرة
ركضت الزوجة على السلم ، وقد دميت لشدة الضرب وانتفش شعرها ،
فطلق الزوج يصيح خلفها حتى هدده الجيران ، من دورهم ، بأن يذهبوا في
طلب رجال الشرطة كي يضعوا حداً لهاديته وإسرافه . ولقد تجنبت والدتي ،

منذ اللحظة الأولى ، كل اتصال بها ، كما منعتني من الحديث مع الأطفال الذين كانوا ينتقمون مني في كل المناسبات ، فهمقون في ظهري ، اذا ما التقوا بي في الطريق ، بكلمات قذرة ، بل لقد ضربوني يوماً بكرات كبيرة من الثلج حتى دمي جيني لكثرة ما انهلوا علي رجماً بها . كان أهالي الدار يكرهون بالاجماع ، بدافع غريزي مشترك ، هؤلاء القوم ، بحيث أننا تنفستنا الصعداء جميعاً عندما وقعت لهم حادثة سيئة — أعتقد أن الزوج قد ألقي به في السجن بتهمة السرقة — فأضطروا بالتالي الى إخلاء المكان . ولقد علقت لافتة الايجار طوال بضعة أيام على الباب ، ومن ثم رفعت عنه ، فعرفنا سريعاً من البواب أن كاتباً ، سيداً وحيداً وهادئاً ، قد استأجر الجناح . تلك كانت المرة الاولى التي سمعت اسمك يُذكر فيها .

« وجاء الدهانون بعد أيام قليلة ، يرافقهم عدد من الرسامين ، والمكسنيين والمنجدين ، كي يصلحوا من حال الجناح الذي أفرغه أولئك القوم القذرون ، فامتلاء البيت ضوءاً غير منقطعة ، فنحن لا نسمع إلا ضربات المطارق ، وصخب الأدوات ، وضجيج تنظيف الارض وحك الجدران . ولكن أي لم تضايق بسبب ذلك مطلقاً ، بل كانت تقول على العكس إننا قد ارتحنا أخيراً من مشاهد الخصاص العائلي وضوضائها المزعجة . أما أنت نفسك ، فاني لم أشاهدك طوال الزمن الذي استغرقته عملية الانتقال ، لأن خادمك كان يراقب كل شيء ، هذا الخادم اللينق كل الاناقة ، الصغير القامة ، الرزين المحيا ، الاشيب الشعر ، الذي كان يشرف على كل شيء من علي في كثير من الخطورة والثقة بالذات ، يبعث فينا جميعاً شيئاً كثيراً من الهيبة ، أولاً لأن خادمك كثير الوقار يستشئ منه رائحة الطبقة الراقية كان شيئاً جديداً كل الجدة في دارنا المتواضعة ، ومن ثم لأنه كان جماً الادب حتى

الدرجة القصوى تجاه سائر أهل الدار دون أن يتآلف على أية حال مع بقية الخدم ويعاملهم كرفاق له . واقد حيا منذ اليوم الأول والدقي في كثير من الاحترام وكأنها سيدة كبيرة ، كما كان يبدي نحوي — أنا التي لم أك إلا طفلة بعد — كثيراً من البشاشة واللطف . وعند ما كان يتفوه بانحك ، فقد كان يفعل ذلك في احترام دوماً ، في شيء من الاعتبار الخاص ، حتى ليدرك المرء مباشرة انه متعلق بك اكثر مما يتعلق الخدم عادة بسيادهم ... آه ، لشدة ما أحببته من أجل ذلك ، هوجان العجوز الطيب ، وإن كنت أحسده لأنه يحف بك دوماً ويخدمك باستمرار !

« إنني أروي لك كل هذا يا حبي ، كل هذه الأشياء الصغيرة التي تكاد تكون مضحكة سخيفة ، كي تدرك كيف استطعت أن تحصل منذ الوهلة الأولى سلطة ليس بعدها من سلطة على الطفلة الوجلة الخجول التي كنت ... لقد كان يحتمل بك ، حتى قبل أن تدخل في حياتي ، شيء أشبه ما يكون باكليل من نور ، أشبه ما يكون بهالة من الثراء والغرابة والسر الدفين ... لقد كننا جميعاً ، في تلك الدار الصغيرة الواقعة في ضاحية المدينة (إن الناس الذين يعيشون حياة ضيقة ليجتاحهم الفضول دوماً نحو سائر المستجدات التي تمر من أمام دارهم) ، نتنظر قدومك في صبر فارغ . وهذا الفضول الذي كنت توحيه إلي ، كيف كان يمكن ألا يتضاعف في نفسي عند ما شاهدت — وأنا في طريق عودتي من المدرسة بعد ظهر أحد الأيام — العربة التي تنقل أثنائك واقفة أمام داري ! كان معظم الاثاث ، القطع الاثقل منه ، قد أدخلت إلى الجناح ، والجمالون قد انصرفوا في تلك اللحظة إلى نقل القطع الأخف منه ... بقيت واقفة على عتبة الباب كي أستطيع أن أمتع نظاري بكل شيء ، لأن كل أثنائك كان غريباً جداً بالنسبة إلي حتى اني لم

أر له شيئاً من قبل قط ، كان هناك تماثيل هندية ؛ وقطع من النحت
الاطالي ، ولوحات كبيرة متألفة ، ثم جاءت الكتب في النهاية ، وفيرة العدد
جداً ، جميلة حتى الدرجة القصوى ، حتى اني لم أكُ أستطيع أن أخيل
شيئاً من هذا القليل أبداً . كدسوها جميعاً على العتبة ، وهناك كان الخادم
يتناولها الواحد تلو الآخر ، وينفض الغبار عنها بمنفضة مصنوعة من الريش
بعناية فائقة .

« رحت أحوم في فضول حول ذلك الكوم من المؤلفات الذي يرتفع
باستمرار ، فلم يدفعني الخادم عنه ، ولكنه لم يشجني كذلك ، بحيث لم أجرؤ
على لمس أي من الكتب وإن كنت أتمنى أن أجس باصابعي الجلد الطري
الذي يغطي عدداً كبيراً منها... كل ما تمكنت منه هو قراءة العناوين بصورة
جانبية وفي وجل كثير : كان في عدادها كثير من الكتب الفرنسية
والانكليزية وعدد كبير غيرها في لغات مجهولة مني ، واني لا اعتقد اني لم أكن
لا تعب من تأملها جميعاً طوال ساعات لو لم تنادني أمي... »

« واضطرت طوال المساء الى التفكير فيك ، وإن لم أكن قد شاهدتك
بعد... كنت لا أملك ، أنا ، الا عشرة من الكتب الرخيصة والمجلدة بورق
مقوى قد اهتمراً كثيراً ، كنت أحبها بالرغم من ذلك أكثر من أي شيء
آخر ، وأعيد قراءتها دون انقطاع... ولقد زحمت منذ ذلك الحين فكرة
معرفة كيف يمكن أن يكون هذا الانسان الذي يملك تلك الكثرة الوفيرة من
الكتب الجميلة جداً التي قرأها جميعاً ، والذي يعرف كل تلك اللغات ، والذي
كان ينعم بكل هذا الثراء ويملك كل هذه المعرفة في وقت واحد ! كان نوع
من الاحترام فوق الطبيعي يتجدد عندي الى فكرة هذا العدد الغفير من الكتب ،
فأروح أسعى الى تصور كيف يمكن أن يكون محياك ، فأراك في منظر رجل

قد تقدمت السن به ، ذي نظارتين ، ولحية طويلة ببضاه ، شبيهاً كل الشبه
بأستاذنا في مادة الجغرافيا ، اللهم الا أنه أكثر لطفاً ، وأكثر جمالاً ووداعة
بما لا يقاس ... است أدري لماذا كنت على يقين ، منذ ذلك الحين ، من أنك يجب
أن تكون جميلاً حتى حين افكر فيك على أنك رجل عجوز . وفي تلك الليلة حامت
بك للمرة الاولى ، حتى دون ان اعرفك .

« واحتلت في الغداة الجناح الذي استأجرته ، ولكن عبثاً انتظرتك
لأنني لم أستطع ان أشاهدك ، الامر الذي ضاعف من فضولي ، وزادني شوقاً
الى رؤيتك . وأخيراً بصرتُ بك في اليوم الثالث ، ولشدت ما كانت دهشتي
عميقة عند ما تحققت من أنك تختلف كل الاختلاف عما كنت أحسب ،
وأن ليس لك أدنى علاقة بصورة الله الآب التي تمثلتها في عبثي . لقد حملت
بشبيخ طيب ذي نظارتين ، ولكن هذا أنت ، أنت كما لمّا تبرح حتى هذا
اليوم ، أنت الذي لا تبدل ، والذي تمر السنون عليك منزلة دون
أن تنال منك مأرباً ... كنت ترتدي زياً رياضياً رائعاً ، لونه الاسمر يضرب
إلى الصفار ، وكنت تصعد الدرج عدواً برشاقة الصبيانية التي لا مثال لها ،
تقفز دوماً درجتين دفعة واحدة ، وكنت تمسك بقبعتك في يديك ، وهكذا
رحت أتأمل بدهشة تفوق الوصف محياك الذي يطفح حياة وضياء ، والذي
يتوجه شعر مراهق صغير . لقد انتفضت دهشة في الحقيقة عند ما رأيت كم
كنت فتيلاً ، جميلاً ، مرناً ، رشيقاً وانيقاً ! وليس من عجب اذا كنت قد
أحسست بوضوح تام — منذ تلك اللحظة الاولى — ما يحسه جميع الناس
لدى رؤيتك ، ما يشعرون به بطريقة نسيج وحدها ، وبنوع من الدهشة
الخاصة : أن فيك إنسانين ، احدهما فتي ملتهب ، مرح ، مستسلم بكلية الى
العبث والمغامرة ، والآخر شخص بجدي بصورة صارمة ، أمين لواجبه ، واسع

الثقافة بصورة لا متناهية ، يتبدى بكل جلاء في فنك الرائع . لقد احسست بصورة غير واعية ما يحمنه سائر الناس عند ما يعرفونك ، ألا وهو انك تعيش حياة مضاعفة ، حياة قد استدار احد وجهيها ، الوجه النير منها ، بكل صراحة نحو العالم ، بينما الوجه الآخر ، الغارق في الظل ، لا يعرفه أحد الاك... ان هذه الثنائية العميقة ، سر وجودك ، قد شعرت بها — منذ النظرة السريعة الاولى — تلك الطفلة البالغة الثالثة عشرة التي كنت ، والتي اخذت بك بصورة سحرية عميقة...

» انك تفهم منذ الآن ، يا حبي ، أية معجزة ، أي لغز جذاب ، كنت بالنسبة إليّ — بالنسبة إليّ انا الطفلة ! هذا الكائن الذي يحترمون لأنه يؤلف كتباً ، لأنه كان شهيراً في العالم الواسع — ألاكتشفه على حين غرة في سياء فتي في الخامسة والعشرين ، كثير الأناقة ، عظيم المرح كصبي صغير ؟ هل يجب أن أقول لك مرة أخرى ان شيئاً في دارنا ، في عالم الطفلة البائس الذي كنت احيا فيه ، لم يعد يشير اهتمامي منذ ذلك اليوم ، اللهم باستثناءك انت ، وانه لم يعد لي — بكل عذاب طفلة الثالثة عشرة ومراسها الصعب — الا شغل واخذ ، ألا وهو ان احوم حول حيائك وحول وجودك ! كنت اراقبك ، اراقب عادتك ، اراقب الناس الذين يقدمون لزيارتك ، وبدلاً من ان ينقص كل هذا الفضول الذي كنت توحى به إليّ ، لم يكن يفعل على العكس الا مضاعفته ، لان كائنك الثنائي . كان يتضح بصورة تامة في تنوع هذه الزيارات واختلافها . كان يأتي اليك فتيان في مثل سنك رفقاءك الذين كنت تضحك واياهم وتبالغ في الضحك ، والى جانبهم طلاب متواضعوا الثياب بسيطوا المظهر ، ومن ثم سيدات يقدمن في سيارات... بله مدير الاوبرا ايضاً في ذات مرة — رئيس الاوبرا كسترا

العظيم الذي لم أشاهده الا عن بعد فوق منصته ، والذين كانت رؤيته تفعمني احتراماً - ومن ثم أيضاً صبيئات صغيرات ما برحن يغدون الى مدرسة التجارة بعد ، واللائي كنّ يتزلقن في اضطرابٍ وضيقٍ عبر الباب : باختصار ، كثرة عظيمة من النساء . . . لم يكن ذلك يعني شيئاً خاصاً بالنسبة اليّ أبداً ، حتى حين رأيتُ سيدةً محجّبةً تخرج من لدنك ذات صباح وانا في طريقي الى المدرسة . لقد كنت في الثالثة عشرة من عمري بعد ، والفضول المتأرّث الذي كنت أنجسّ به عليك وأترفّ بك لم يكن يدري بعد - لشدة ما كنت طفلة - أنه الحب يعمل في قلبي .

« ولكنني أعرف الآن ايضاً بصورة دقيقة ، يا حي ، اليوم والساعة اللذين ارتبطت فيهما بك بكليّتي ، والى الأبد . . . كنت قد رجعت مع صاحبة لي من رفيقات المدرسة من نزهةٍ خرجنا معاً إليهما ، ووقفنا أمام الباب نتجاذب اطراف الحديث ، فاذا سيارة تقدم بأقصى السرعة وتقف الى جانبنا ، هبطت أنت منها برشاقتك المندفعة والمرنة التي ما برحت تسحرني حتى اليوم ، ومن ثم اتجهت نحو الباب . ولست أدري أية قوة غير واعية قد دفعتني الى أن أفتح لك ، فاعتزضتُ خطواتك حتى كدنا ان نقصدم . تطلعت اليّ بهذه النظرة الدافئة ، العذبة والملاطفة التي تكاد أن تكون حناناً خالصاً ، وابتسمت لي ابتسامة لا أستطيع أن أضفها الا بأنها رؤوم جداً ، وقلت لي بصوتٍ رقيق وأليفٍ تقريباً : « شكراً جزيلاً ، يا آنسة » . . .

« لم يحدث في ذلك الحين شيء غير هذا ، يا حي ، ولكنني أصبحت منذ تلك اللحظة ، منذ أن أحسست تلك النظرة الخنوّ العذبة تستقر عليّ ، لك بكليتي . ولقد أدركت فيما بعد - لقد أدركت ذلك بسرعة طبعاً - ان هذه النظرة المشعة ، هذه النظرة التي تبعث شيئاً كالحياة فيما حولك ، هذه النظرة التي

تشمل المرء وتعريه في وقت واحد ، هذه النظرة الخاصة بمن ولد غريباً جذاباً ، إنما أنت تغتريها على كل امرأة تمرّ بالقرب منك ، على كل مستخدمة تخزن تبيعك حاجة ما ، على كل خادمة تفتح لك الباب ، لقد أدركت ان هذه النظرة مجردة عن الوعي عندك ، فهي خالية من كل ارادة او تعلق ، وأن حنانك على النساء عامة هو الذي يهب نظرتك ، بصورة غير واعية ، ذينك الدفء والوداعة الذين يطفحان منها كلما استدارت نحوهم .

ولكن هذه الميزة التي تسم شخصيتك لم تخطر لي على بال ، أنا الطفلة البالغة الثالثة عشر ، بل أصبحت كالغريقة في نهر من الزيران ، إذ حسبت ان ذلك الحنان لم يك' الا لي ، لي وحدي . لقد كانت نصف الثانية تلك كافية كي تصير امرأة الطفلة نصف المكونة التي كنت' - تلك المرأة أضحت لك الى الأبد .

« سألتني صديقتي : « من هذا ؟ » ، فلم أستطع أن أردّ عليها رأساً . لقد استحال عليّ أن أقول اسمك ، لأنه قد أصبح ، منذ تلك الثانية الأولى الوحيدة ، سري الخاص الذي يجب ألا يطلع عليه انسان قط .

« كنت بعد ذلك متلعثمة في خراقة : « اه ! انه سيد يقطن في الدار ههنا » فقالت صديقتي ساخرة مني ، في كل خبث الطفلة الطليعة : « ولم اذن تضرجت هكذا عندما نظر اليك ؟ » . ولأني احسست ان سخريتها موجهة الى سري ، فقد صعد الدم الى خدي في حرارة أعظم من ذي قبل ، وصيرني الضيق الذي اجتاحني فظة قاسية ، فصحت بها في وحشية : « أيتها الأورة الصغيرة ! » : كنت اذن قميئة بأن أخفقها . ولكنها اخذت تضحك أكثر منها قبلاً ، وفي سخرية أعظم أيضاً فشعرت بالدموع تأتي الى عيني ، يناديهما غضب عاجز مقهور ، حتى اضطرت الى الانقلاط من صاحبي والصعود الى الدار عدواً .

« منذ تلك الثانية أحببتك . إني أعرف أن النساء كثيراً ما قلن لك هذه الكلمة ، أنت طفلين المدال ، ولكن صدقني أن ليس إنسان قد أحبك بمثل هذه القوة - كعبد أو ككلب - وبكل هذا الاخلاص الذين أحبك بها ذلك المكان الذي كنت يومذاك ، والذي ما برحت حتى اليوم أيضاً . ان شيئاً على الأرض لا يشبه حباً يظل خفياً عن الأنظار ، تضمهر طفلة منزوية في الظل لاتبين : إن هذا الحب لمجرد عن كل غاية ، متواضع ، خاضع ، طافح بالانتباه ، مفعم بالهوى ، حتى ان ذلك الحب المصنوع من الرغبة ، والانهاني بالرغم من كل شيء ، والذي تضمهر امرأة مكتملة لن يساويه أبداً . ان الاطفال المتوحدين يستطيعون وحدهم ان يحتفظوا لأنفسهم بكل هواهم ، أما الآخرون فيبهثون مشاعرهم في ثرات طارئة ، ويخفقون من حداثتها بالاعتراقات المتبادلة ، لقد سمعوا الشيء الكثير عن الحب ، ووجدوه في الكتب ، وهم يعرفون إنه ناموس مشترك ؛ إنهم يلهمون به كما يلعبون بدمية ، ويستمدون الغرور منه كما يفعل صبي بلقائه الأولى . أما أنا فلم يك لي أحد أعترف إليه ، ولم يك لي انسان يثقني ويحذرنني . كنت معدومة التجربة وجاهلة ، فألقيت بنفسي في تيار مصري مثلما يرتمي المرء في الهاوية التي لاقرار لها .

« إن كل ما كان يسمو في كينونتي ويزدهر لم يكن يعرف إلاك ، لم يكن يعرف إلا أن يحلم بك ، ويجعل منك كأنما للسر أنقل اليه لواج نفسي واحزانها ، كان أبي قد توفي منذ زمن طويل ، أما أمي فكانت غريبة عني في حزنها الابدي ، وانهارها النفساني وهموم الارملة التي تعانها ، أرملة ليس لها ما تحيا به سوى مرتب زوجها الضئيل . وكانت فتيات المدرسة ، وقد فسدن بالرغم من سنهن المبكرة ، يبعثن الاشمزاز في نفسي لأنهن يلعبن في مجون

بما هو الهوى الاسمى بالنسبة الي . وهكذا فان كل ما هو قابل للانقسام
والاقتسام عند سواي لم يشكل عندي سوى كتلة واحدة مترامة ، كما ان
كينوني بأسرها ، المركزة في ذاتها والملمهة أبداً بحميا قلقة ، قد استدارت
نحوك بكل قواها . لقد كنت بالنسبة الي - ماذا أقول ؟

إن كل تشبيه سوف يظل ضعيفاً ناقصاً - لقد كنت كل شيء بالنسبة
الي ، بالضبط كل حياتي . لم يكن شيء يوجد بالنسبة الي الا بمقدار ما
يتصل بك ، ولم يكن شيء في وجودي يملك معنى الا اذا كان يقربني منك .
لقد بدأت اسلوب في الحياة من جذوره ، فأصبحت بفتة الاولى في صيفي ،
بعد أن كنت حتى ذلك الحين لامية متوسطة الاجتهاد في المدرسة ؛ وكنت
أقرأ مئات من الكتب ، أسهر عليها حتى ساعة متأخرة من الليل ، لأنني اعرف
أنك تحب الكتب ؛ وشرعت بصورة مفاجئة ، الأمر الذي أثار دهشة
عظيمة في نفس أي ، أتمرن على البيان في مثابة تكاد ان تفوق الادراك ،
لأنني كنت أحسب انك تحب الموسيقى ؛ وأصبحت ارقع ثيابي ، واعتني
بزيتي كثيراً ، كي أظهر نظيفة ولطيفة في عينيك ، بينا فكرة ذلك المربع من
القماش الملصق على الجانب الأيسر من صدرتي المدرسية (كانت هذه
الصدرية في الأصل قميصاً داخلياً لاني) قد أصبحت مقبلة جداً في عيني
... ماذا لو رأيت هذه القطعة صدفه ! ماذا لو ازدرتني بسبب ذلك ! ولذا
فقد كنت أمسك دوماً بحقيبة كتبي مشدودة الي صدرتي ، عندما اصعد
السلام ، وأنا أرتعش فرحاً . ولقد كانت هذه الخشبة سخيفة كل السخف
لأنك لم تنظر الي بعد ذلك أبداً ، أبداً تقريباً !

« ومع ذلك فقد كنت - واني أصدقك القول - أفضي أيامي في انتظارك
وترقبك ، لقد كان بابنا يحمل مطاراً صغيراً من النحاس الاصفر يستطيع

المرة أن يرى من خلال ثقبه ما يجري على سطح السلم حتى بابك . هذا
 المنظار — كلا لا تبتسم يا حيي ؛ اني لا أخجل حتى اليوم من تلك الساعات —
 هذا المنظار قد كان بالنسبة إلي العين التي أسبر غور الكون بواسطتها .
 هناك ، طوال أشهر وسنوات ، في الدهليز المتجلد ، خائفة أبداً من أن يدب
 الارتياح إلى قلب أبي ، كنت أجلس وفي يدي كتاب ، أقضي أمسيات
 كاملة وأنا أترقب ، مشدودة مثل وتر الكمان ، مهتزة مثله أيضاً عندما
 يلعبه وجودك . كنت أبداً مشغولة بك ، أبداً مستسلمة إلى الانتظار
 والحركة . ولكنك كنت لا تحس ذلك أكثر مما تحس توتر نابض الساعة
 التي تحملها في جيبك ، والتي تعد وتقيس ساعاتك بصبر عظيم ، وهي في الظل
 دوماً ، وترافق خطواتك بخفقان قلبي لا يدرك ، بينما لا تلمسها نظرتك
 العجول ، إلا حين تمر بها مر الكرام بين ملايين الدقات المتيقظة أبداً . لقد
 كنت أعرف كل شيء عنك ، أعرف كلا من عادتك ، وكلا من
 ربطات عنقك ، وكلا من أثوابك ؛ وسرعان ما أصبحت أعرف وأميز
 كلا من زوارك الذين قسمتهم على مقولتين : أولئك الذين استلطفهم ،
 وأولئك الذين استقبحهم ؛ إن ساعة لم تنقضي ، بين سنتي الثالثة عشرة وسنتي
 السادسة عشرة ، إلا وعشت بها فيك ، آه ، أية أفعال جنونية لم ارتكبها
 إذن ! كنت أقبل قبضة الباب التي لمستها يدك ، وأسرق ثقب سيجار رميته
 قبل أن تدخل ببيتك لأحفظ به ، فهو مقدس عندي ، لأن شفتيك قد لاسمته .
 وكنت اهبط إلى الشارع مائة مرة في المساء ، متذرعة بأية حجة كانت ،
 كي أرى النور في أية من غرفك يضيء ، بحيث أشعر هكذا بصورة أكثر
 حسية بوجودك ، وجودك غير المنظور . واثناء الاسابيع التي كنت
 تقضيها في السفر — لقد كان قلبي يتوقف دوماً عن الخفقان ذعراً كلما رأيت

جان الشجاع ينزل حقيقتك الصفراء — كانت حياتي ثموت وتصبح مجردة
عن كل غاية او غرض . كنت اذن اذهب وأجي ، سيئة المزاج ، ضجرة ،
ناقمة ؛ وكان يجب أن اظل يقظة دوماً كي لا ترى أُمي يأسى العظيم من خلال
عيني المرطبتين ابدأ بالدموع .

« اني اعرف أني أقص عليك ههنا اندفاعات غريبة وافعال اجنوية خطره يجب
ان أخجل منها . ولكن لا ، اني لا أخجل منها . لأن حيي لك لم يكن قط اطهر واشد انتهاياً
منه في تلك الافراطات الطفولية . اني استطيع ان أروي لك طوال ساعات ، طوال
ايام كاملة ، كيف عشت في تلك الاحيان معك ، معك انت الذي تكاد
ألا تعرف محياي ، لاني عندما كنت ألقاك على السلم فلا أجد سبيلاً الى
تجنبك ، فقد كنت امر من امامك عدواً ، مطرقة الرأس ، كمن
سيليقي بنفسه في الماء ، كي اخفي عنك نيران خدي ، وكل ذلك خوفاً
من نظرتك المحرقة .. اني استطيع ان أروي لك طوال ساعات ، طوال
ايام كاملة ، تلك السنوات التي نسيته منذ زمن طويل ؛ اني استطيع
ان أنشر تقويم حياتك بأسره ، ولكني لا أريد ان ابعث الملل في نفسك ،
لا اريد ان أعذبك . اني اريد فقط ان اكشف لك ايضاً عن اجمال حدث في
طفولتي ، وارجوك الا تسخر من تفاهتي ، لانه كان بالنسبة إلي ، انا التي لم
اكن يوماً طفلة صغيرة ، لانهاية قائمة بذاتها . كان ذلك في يوم احد
بكل تأكيد ، وكنت غائبة في رحلة ، وكان خادمك يجر السجادات الثقيلة
التي نقضها لقوه عبر باب جناحك المفتوح . كان يعاني الامر من ثقلها ،
ذلك العجز الطيب ، فذهبت اليه في نوبة من الجراءة ، وسألته ان
كنت استطيع ان امد له يد المعونة ، فدهش ، ولكنه تركني اساعده ،
فرايت هكذا — آه ! اني اريد ان اقول لك بأي تعبد مفعم بالاجلال

والثقوى ! — داخل جناحك ، عالمك ، المائدة التي تجلس اليها كي
تكتب ، والتي كان يعلوها بعض الورود الموضوعة في إناء من البلور
الازرق ، واثائك ، ولوحاتك ، وكتبك . لم تكن تلك الا نظرة
خاطفة عجولا الى حياتك . ذلك ان جان الامين كان يمنعني بكل تأكيد
من النظر الى كل ذلك عن كثب . ولكن تلك النظرة كانت كافية لي كي
امتص جو تلك الحياة بأسره ، فزودتني بغذاء كاف كي احلم لانهائياً بك في
يقظتي وفي نومي .

» تلك الدقيقة السريعة كانت اسعد لحظة في طفولتي . لقد اردت ان
ارويها لك حتى تبدأ انت ، الذي لم تعرفني ، تدرك اخيراً كيف تعلقت حياة
بك حتى درجة الفناء فيك .

» اردت ان ارويها لك ، مع تلك اللحظة الاخرى ، تلك الساعة الرهيبة
التي كانت ، من سوء الحظ ، قريبة جداً من الاولى . كنت نسيت — لقد
سبق ان قلت لك ذلك — كل شيء في سبيلك ، فلست اهتم بوالدي ، ولا اغير
انتباهي لأي كائن على الاطلاق ، بحيث لم ألاحظ ان سيداً مسنناً ، تاجراً
من اينسبروك هو احد اقارب امي الأبعدين ، يتردد كثيراً علينا لرؤيتها ،
ويقضي زمناً طويلاً عندنا : بل ان ذلك كان يسرنى على العكس ، لانه كثيراً
ما كان يصطحب امي الى المسرح ، بحيث كنت استطيع هكذا ان اظل
وحيدة وان افكر فيك وارتقب لك ، الامر الذي كان غبطتي الاسمى ، غبطتي
الوحيدة . ولكن امي دعنتني ذات يوم الى غرفتها وفي سياتها شيء كثير
من الخطورة ، قائلة لي ان هناك شيئاً تريد ان تحدثني به بصورة جدية ، فاذا
الاصفرار يعلو وجهي ، وقلبي يأخذ بالحققان بشدة عظيمة على حين غرة .

أعني ترتاب في شيء ما ؟ أترأها قد خمنت ؟ ان فكري الاولى قد اتجهت اليك ،
انت السر الذي اربط بالكون عن طريقته . ولكن والدتي ، هي الاخرى ،
كانت متضايقة ، فقد قبلتني — الامر الذي لم تكن تفعله ابداً — بحنان
مرة ، ومرتين ، واخذتني الى جوارها على الكنبه ، ومن ثم شرعت تروي
لي ، مترددة مرتبكة ، ان قريبها ، الذي كان ارملا ، قد توجه اليها
بطلب الزواج ، وانها قد قررت ، من اجلي في الدرجة الاولى ،
ان تقبل به زوجاً . صعد الدم الى قلبي في عنف اعظم ، فردت عليها فكرة
واحدة في صميم فؤادي ، فكرة كانت متجهه اليك وحدك .

« استطعت بصعوبة كبيرة ان اغغم متلعثمه : ولكننا سبقي
ههنا على الاقل ؟ »

« فأجبت امي : » كلا ، بل سندهب الى اينسبورك ، حيث يملك
فرديناند فيلا جميلة . » لم استطع ان اسمع شيئاً اكثر من هذا ، فقد اظلمت
عيناي تماماً على حين غرة ، واغمي عليّ كما عرفت فيما بعد ، اذ سمعت امي تحدث
زوجها المقبل بصوت مخفوض — لقد كان ينتظر وراء الباب نائيج
المفاوضات معي — اني قد نهقرت بغتة ، وقد مددت يدي الى الامام
مني ، كي اُتَهاوى بعد ذلك ارضاً وكأني كتلة من الرصاص . اما
ما حدث في الايام التالية ، وكيف ناضلت — انا الطفلة المسكينة المستضعفة
— ضد إرادتها المتفوقة ، فليست استطيع ان احدثك عنه : يكفي ان
افكر في ذلك حتى ترتجف يدي الآن وانا اكتب اليك . ولما لم اُك استطيع
ان ارفع النقاب عن سري الحقيقي ، فقد بدت مقاومتي عناداً خالصاً ، وخبثاً
مجرداً ، وتحدياً عديم المعنى ، فلم يعد اي منها يتوجه اليّ مطلقاً ، بل تحقق
كل شيء دون علمي ، اذ استفاد من الساعات التي كنت انصرف فيها الى

المدرسة كي يشحننا الاثبات ، بحيث كنت أجد بعد كل عودة لي من المدرسة شيئاً قد اختفى من الدار أو بيع . وهكذا شاهدت الجناح يُنقل قطعة قطعة ، وحياتي تذهب في إثره أيضاً ، حتى وجدت أخيراً ذات يوم ، وقد رجعت كي أتناول غداً ، أن الشاحنين يحزمون كل شيء ويذهبون به ، فلم يكن هناك في الغرف الفارغة سوى الحقائق المعدة ، بالإضافة إلى سريرين من أسرة المعسكرات 'جهاز' لوالدتي ولي: كننا سنقضي هناك ليلة أخرى ، الأخيرة ، ومن ثم نسافر في الغداة إلى اينسبورك .

« ولقد أدركت خلال ذلك اليوم الأخير ، في عزم مفاجيء ، أنني لن أستطيع أن أعيش بعيداً عن جوارك ، ولم أعد أرى خلاصاً لي سواك .

« ولست أستطيع قط أن أذكر كيف جاءتني هذه الفكرة ، وما إذا كان التفكير في تلك الساعات من اليأس العظيم قد ظل في نطاق قدرتي حقاً . ولكنني نهضت بضمرة مباغتة - كانت أي قد خرجت لبعض الشؤون - وذهبت اليك كما أنا ، في لباسي المدرسي . ولكن لا ، فكلمة « ذهبت » لا تؤدي المعنى الصحيح : إنها قوة مغناطيسية بالآخرى قد دفعتني نحو بابك ، وقد تصلبت ساقي وراحت مفاصلي جميعاً ترتعش . ولقد قلت لك ذلك آنفاً ، اني لم اكن أدرك بوضوح ماذا أريد: أن أرمي بنفسي على قدميك ، وأتوسل اليك أن تحتفظ بي كخادمة حقيرة ، كعبدة أمينة تفعل بها ما تشاء ؛ ولشد ما فذعرت أن تبتم ساخرأ من هذا الهوس البريء الذي ينتاب فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها ؛ ولكنك لم تكن لتبتسم مطلقاً يا حي لو كنت تدري في أي حال كنت في ذلك الحين ، وأنا أفق خارجاً في الرواق الذي يحتاجه برد دونه برودة الجليد ، وقد

تصلبت أعضائي فرقاً ، تدفعني إلى الامام بالرغم من ذلك قوة تفوق التصور ، وكيف انتزعت من جسدي ، إذا صح التعبير ، ذراعي المرتجفة بحيث ارتفعت حتى تمكنت — لقد كان ذلك نضالاً دام طوال أبدية ثوانٍ رهيبة — من وضع اصبعي على زر الباب . إن صوت الجرس ما برح حتى اليوم يرن في أذني ، ومن ثم الصمت الذي تلا ذلك الرنين ، بينما قد توقف قلبي عن الخفقان ، وكفّ دمي عن الدوران ، ورحت أترقب فقط إن كنت ستأتي لتفتح لي .

« ولكنك لم تأتي . إن أحداً لم يأت . لقد خرجت من دون ريب بعد ظهر ذلك اليوم ، كما ذهب جان أيضاً في بعض شؤونيه ، بحيث رجعت هكذا معثرة أجر أذيال الخيبة — وفي أذني المدويتين رنين الجرس دوماً — إلى جناحنا مضطربة قلقه ، وارتيمت على غطاء السرير ، مرهقة خائرة القوى ، متعبة من هذه الخطوات الأربع فكأنني قد مشيت طوال ساعات فوق طبقة كثيفة من الثلج . ولكن العزم الملتهم دوماً ، العزم على رؤيتك والتحدث إليك قبل أن ينتزعوني من هذه الأماكن ، كان يشتعل تحت ذلك الاعياء دون هوادة . لم يكن في ذلك كله — اني أقسم لك — أية فكرة جسدية ، لقد كنت جاهلة حتى ذلك الحين ، بالضبط لأنني لم أكن أفكر في أي شيء آخر سواك . كنت أريد بكل بساطة أن أراك ، أن أراك مرة أخرى ، وأن أتعلق بك . ولقد انتظرتك يا حي طوال الليل ، طوال ذلك الليل الطويل الخيف ، إذ لم تكداً أي تنسلل إلى فراشها وتغطف في النوم حتى انزلقت إلى الدهليز كي أسمعك حين تعود . لقد انتظرت طوال الليل ، وكانت تلك ليلة باردة من ليالي كانون الثاني ، كنت متعبة ، وأعضائي توجعني ، ولم يكن هناك كرسي أجلس عليه ، فتمددت عندئذ

على الأرض الباردة حيث يمر تيار الهواء من خلال الباب . ولقد بقيت
متمددة هكذا ، معجدة مرهقة الجسد ، لا أعطي نفسي إلا بلباسي الرقيق
لأنني لم أتناول غطاء عن سريري : لم أكن أريد أن أدفأ كثيراً خوفاً من
أن أنام فلا أسمع وقع خطواتك عندما تعود . أي ألم كنت أحسه عندئذ !
كنت أشد بيدي على بعضها مخرجة الأوصال ، بينا ذراعي يرتعشان
دون انقطاع ، فاضطر باستمرار إلى النهوض على قدمي ، أشدة ما كان البرد
شديداً في تلك الظلمة الرهيبة . ولكنني كنت أنتظرك ، أنتظرك ، أنتظرك
مثلاً أنتظر مصيري ...

« وأخيراً — كانت الساعة قد قاربت الثانية أو الثالثة صباحاً دون
ريب -- سمعت في أسفل الدار صوت الباب الخارج يفتح ، ومن ثم وقع
خطوات تصعد السلم . غادرتني الشهور بالبرودة على حين غرة ، واجتاحتني
حرارة شديدة ، ففتحت الباب في هدوء ، كي اندفع نحوك وأرتمي على قدميك .
أواه ! إنني لم أكن أدري في الحقيقة ما كنت قيمة بفعله عندئذ ، أنا الطفلة
المجنونة . واقتربت الخطوات ، وتذبذب نور شمعة في السلم . كنت أمسك ،
مرتجفة الأصابع والأعضاء ، قبضة الباب : أهوأت حقاً الذي
تأتي هكذا ؟

« بلى ، لقد كنت أنت يا حي ، ولكن لم تكن وحيداً . سمعت ضحكاً
خفيفاً مرحاً ، وصوت ثوب حريري ، وصوتك الذي يتحدث همساً . لقد
كنت عائداً إلى دارك برفقة امرأة ...

« كيف أمكن أن أعيش بعد تلك الليلة ، هذا ما لا أدريه .
في الغداة ، في الساعة الثامنة صباحاً ، أخذوني إلى اينسبورك كنت قد فقدت
كل قوة على المقاومة .

* * *

« لقد مات ولدي ليلة البارحة ، واسوف أكون وحيدة من الآن فصاعداً ، ان كنت سأعيش دوماً . واسوف يأتي غداً رجال مجهولون ، فظون ، يرتدون السواد ، ويحملون نعشاً يضعون فيه ولدي المسكين ، ولدي الوحيد ... وربما سيأتي أيضاً اصدقاء يحملون الاكليل ، ولكن ماذا تفعل الورود فوق النعش ؟ واسوف يعزوني ، ويقولون لي كلاماً ، كلاماً دوماً ، ولكن ما عسى ان يفيدني هذا الكلام ؟ اني اعرف ذلك ، فها أنذني وحيدة من جديد ، وليس شيء اكثر رهبة من ان اكون وحيدة بين الناس . لقد ادركت هذا منذ ذلك الحين ، خلال تلك الاشهر الاربعة والعشرين اللامتناهية في الامتداد التي قضيتها في اينسبورك ، هذا الزمن المحصور بين سنتي السادسة عشرة والثامنة عشرة ، والذي عشته مثل الاسيرة ، مثل المردولة في حضن عائلي . لقد كان زوج ابي ، وهو رجل كثير الهدوء قليل الكلام ، طيباً بالنسبة إلي ، كما ان ابي كانت تلي سائر رغباتي ، وكأنها تريد من وراء ذلك ان تصلح ظمأ غير إرادي ارتكبته بحقي . وكان عدد من الشبان يلتف حولي ، ولكني كنت ادفعهم جميعاً واردهم في عناد لا يلبس ، لأنني لم اكن اريد ان اعيش سعيدة راضية بعيداً عنك ، فأروح أنغمس في عالم قائم مصنوع من الوحدة ومن العذابات التي كنت أفرضها بنفسي على نفسي . ولم اكن ارتدي الاثواب الجديدة الجميلة التي يشترونها لي ، كما كنت ارفض الذهاب إلى المسارح والحفلات الموسيقية ، او الاشتراك في زهات خارج المدينة برفقة مجتمع مرح كثير الغبطة . كنت لا اكاد اخرج من الدار : هل تصدق يا حبي اني لا اكاد اعرف ، في هذه المدينة التي حيث فيها طوال سنتين ، اكثر من عشرة شوارع ؟ كنت حزينة ، واريد ان اظل حزينة ، فأسكر بكل حرمان

اضيفه الى حرمانى من مشاهدتك . وباختصار ، فاني لم ارد ان اسلو هواي ؛
كل ما كنت اريده هو ان اعيش فيك ، فأظل في بيتي ، لا افعل شيئاً طوال
ساعات عديدة ، طوال ايام كاملة ، سوى التفكير فيك ، التفكير فيك دون
انقطاع ، مستعيدة في ذهني دوماً مائة ذكرى صغيرة احفظها عنك ، كل
لقاء وكل انتظار ، وانا اتصور دوماً هذه الحوادث الصغيرة كما لو كنت
اشاهدها على خشبة المسرح . وإذا ظلت طفولتي بأسرها متأثرة في ذاكرتي
حتى هذه الدرجة البعيدة ، فما ذلك إلا لأنني قد استثرت هكذا ما لا يحصى
عددده من المرات كلاً من ثواني ماضي ، بحيث ان كل دقيقة من تلك
السنوات تحيا في حتى اليوم بحرارة وعاطفة عظيمتين ، فكأنها لم تبتجح
دماي إلا بالأمس فقط .

« إنما عشت حينئذ فيك وحدك . كنت اشترى سائر كتبك ، فإذا
كان اسمك في الصحف ، فذلك يوم عيد بالنسبة إليّ . هل تصدق اني
اعرف كل سطر من كتبك ، لكثرة ما قرأتها وأعدت قرائتها ؟ لو ان
احداً ايقظني من رقاذي في اثناء الليل وتفوه امامي بسطر مأخوذ من
كتبك ، فاني استطيع حتى اليوم ، بعد ثلاثة عشر عاماً ، ان اكمل
ذلك السطر كما يفعل المرء في حلم عميق ، لأن كل كلمة منك كانت
بالنسبة إليّ إنجيلاً وصلاة في وقت واحد . إن العالم بأسره لم يكن
يوجد بالنسبة إليّ الا في حدود علاقته بك ، فلا ألاحق في صحف فيينا
انباء الحفلات الموسيقية والتمثيليات الا كي اعرف أية منها يمكن ان
تشير اهتمامك ، حتى اذا هبط المساء رافقتك عن بعد ، وانا اقول في
نفسي : هذا هو يدخل الصالة الآن ، وهذا هو يتخذ مجلسه حالياً .
الف مرة قد حلمت بذلك ، لأنني قد شاهدتك مرة في حفلة موسيقية .

« ولكن لم أروي لك كل هذا ، لم أحدثك بهذا الهوس المجنون الموجه في ثورته ضد نفسي ، هوس طفلة مهجورة يبحثها اليأس بصورة مفاجئة حتى الدرجة القصوى ؟ لم أرويهِ لشخص لم يشك به قط ، لم يعرف عنه شيئاً البتة ؟ ولكن هل كنت عندئذ طفلة دوماً ؟ كنت قد بلغت السابعة عشرة ، بله الثامنة عشرة ، وقد أخذ الفتيان يستديرون نحوي في الشوارع ، فلا يفعلون بذلك إلا لأجيبهم نقمتي . ذلك أن الحب — أو حتى مجرد هوى بسيط ساذج به ، وهمي بصورة خالصة — مع إنسان سواك ، قد كان أمراً غير معقول أبداً في نظري ، حتى كنت أعجز عن قبول مجرد فكرته : إن فتنة ذلك وحدها لتبدو لي جريمة لا تُغتفر . لقد ظل هوائي لك على ماهيته ، سوى أنه قد تحول مع تحول جسدي ، فهو يزداد لهيباً ، ومحسوسية ، وانوثة ، بمقدار ما كانت حواسي تفتتح وتستيقظ ، فإذا ذلك الفعل الذي لم يكن باستطاعة الطفلة التي شدت جرس بابك فيما مضى بدافع من إرادتها الجاهلة المضطربة أن تعيه ، يصبح حالياً فكري الواحد : أن أعطيك نفسي ، أن أستسلم إليك .

« كان الناس من حولي يظنونني هيابة ويصفوني بالفتاة الخجول (إني لم أحل أسناني عن سري قط) . ولكن ارادة من حديد كانت تنمو فيّ ، فكل أفكاري وجهودي متوترة في اتجاه غاية واحدة ، ألا وهي أن أعود الى فيينا ، أن أعود الى قريك . ولقد نجحت في فرض ارادتي ، مهما لاحت للآخرين غير معقولة ، وغير قابلة للادراك . كان زوج أُمي ثرياً ، وكان يعتبرني كابنته الحقيقية ، ولكنني ثابرت ، في عناد بربري ، على ارادتي كسب حياتي بنفسني ، وتوصلت أخيراً الى العودة الى فيينا ، عند قريب لي ، كي أعمل عنده مستخدمة في بيت كبير للخياطة .

« هل من حاجة أن أذكرك أين ذهبت أولاً ، عند ما وصلت —

أخيراً ! أخيراً ! — الى فيينا ذات مساء خريفي مُضرب ؟ لقد تركت حقيقتي في المحطة ، واندفعت في احدى الحافلات الكهربائية — بأي تمهل خيل إليّ أنها تسير ! كان كل موقف يبعث اليأس في قلبي — حتى ركضت أخيراً نحو دارك . كانت نوافذك مضادة ، فطفق قلبي بأسره يخفق في عنف شديد . عندئذ فقط وجدت حياة في هذه المدينة التي كانت أضواءها حتى تلك اللحظة غريبة عني ، خالية من كل معنى ؛ عندئذ فقط عدت أحياء ، عندما أحسست بنفسي قريبة منك ... أنت خصمي الأبدي . لم أكن أشك في أنني ما برحت بعيدة عن فكرك الآن ، حين لم يعد بينك وبين نظرتي المتألقة سوى زجاج نافذك المضادة الرقيق ، بهدي عنك حين كانت وديان وجبال وأنهار تفصل فيما بيننا . رحت أنظر الى العلاء هناك ، دوماً الى العلاء : هناك كان نور ، هناك كانت الدار ، هناك كنت أنت ، كوني بأسره . طوال سنتين قد حملت بهذه الساعة ، وقد أعطي لي الآن أن أحيائها . وبقيت طوال أمسية ، أمسية مغطاة بالخيريف ، أمسية طويلة عذبة ، أمام نوافذك ، حتى انطفأ النور فيها ، وعندئذ فقط انطلقت أفنش عن مسكني .

« وكنت أعود كل مساء الى امام بيتك . كنت أشغل في الخزن حتى السادسة مساء ، مستغرقة في عمل قاس ومرهق ، ولكني كنت أحب عملي ، لأن هذا الاضطراب من حولي يمنعي عن الشعور باضطرابي الباطني بصورة شديدة الايلام مثلها قبلاً . ولكن لا يكاد الباب الحديدي يُغلق خلفي حتى انطلق باستقامة نحو موعدني الحبيب . أن أراك مرة واحدة ، أن ألقاك مرة واحدة ، تلك كانت رغبتى الواحدة ايضاً . أن استطيع مرة اخرى تقبيل وجهك عن بعد بأنظاري ! ولقيتك بعد أسبوع ، في اللحظة التي كنت

انتظر ذلك أقل مني في أي حين آخر ، اذ بينما كنت أراقب نوافذك هناك
عالياً ، جئت في اتجاهي عبر الطريق ، فإذا بي اعود ، على حين غرة ، طفلة
الثلاثة عشرة التي كنت فيما مضى من الزمان ، فأحسست الدم يتدفق الى
خدي ، فأطرقت رأسي دون ارادة مني ، بالرغم من رغبتني العنيفة
في أن أرى عينيـك ، ومررت من أمامك وأنا أعدو ، فكأنني
حيوان مطارّد .

» ولقد خجلت فيما بعد من هذا الهرب المذعور القمين بتلميذة صغيرة ،
لأن إرادتي كانت واضحة كل الوضوح حالياً : كنت أريد أن ألقاك ،
كنت أفتش عنك ، كنت أريد أن أصبح معروفة منك بعد كل هذه السنوات
التي ظل انتظاري فارقاً في الظل طوالها ؛ كنت أريد ان أقدر من قبلك ،
كنت أريد ان احبّ منك .

» ولم تلاحظني طوال فترة مدينة ، بالرغم من وقوفي بالمرصاد في الطريق
كل مساء ، حتى حين تنلج السماء أو تعصف ريح فيينا القاسية القارسة .
وكثيراً ما كنت انتظر عبثاً طوال ساعات ؛ وكثيراً ما كنت تخرج من
بيتك أخيراً يرافقك ضيوف ؛ ولقد رأيتك مرتين مع نساء أيضاً ، فأدركت
منذ ذلك الحين اني نموت وكبرت : لقد أحسست الصفة الجديدة والمختلفة
لعاطفتي نحوك بانتفاضة قلبي المفاجئة ، هذه الانتفاضة التي مزقت نفسي
تمزيقاً ، وذلك عند ما رأيت امرأة غريبة تسير الى جانبك معتدة بنفسها ،
وتعطيك ذراعها بكل ثقة وثبات . لم يدهشني ذلك مادمت اعرف من قبل ،
منذ ايام طفولتي ، زائراتك الأبديات . ولكن شيئاً كالآلم الحكمي قد أصابني
حالياً على حين بغتة ، وتوتر شيء في باطني ، شيء مصنوع من العداوة

والحسد في آن واحد ، في حضور هذه الألفة العلية والجسدية مع امرأة أخرى . ولقد تنجيت يوماً واحداً ، في كبريائي الصبياني الذي ربما قد بقي لي حتى هذا اليوم ايضاً : ولكن اشد ما كانت مؤلمة قاسية بالنسبة إلي تلك الأمسية من الكبرياء والتمرد التي قضيتها دون أن أرى بيتك ! وفي الغداة عدت الى مركزي في تواضع كلي ! كنت انتظر دوماً ، انتظرت طوال مصيري بأسره امام حياتك التي كانت مغلقة في وجهي .

« واخيراً ، في ذات مساء ، لا حظني ... رأيتك آتياً من بعيد ، فجاءت كل إرادتي كي لا أحميد عن طريقك . وارادت الصدفة أن تسد الطريق عربة 'نفرغ' حمواتها ، بحيث اضطرت الى المرور من قربي ، فاستقرت عليّ نظراتك الشاردة ، دون إرادة منك ، كي تنقلب في التواء واللحظة ، عندما صادفت انتباه نظرتي — آه ، لشد ما انتفضت الذكري عندئذ ! — تلك النظرة التي تحتفظ بها للنساء ، تلك النظرة الحنون ، المداعبة ، لكن التي تنفذ حتى أعماق اللحم ايضاً ، تلك النظرة العريضة والغازية منذ الوهلة الأولى التي جعلت — منذ المرة الأولى — امرأة وعاشقة من الطفلة التي كنت . ولقد سحرت تلك النظرة ، طوال ثانيتين او ثلاث ثوانٍ ، نظرتي التي لم تكن تريد أن تتحرر من قبضتها — ومن ثم مررت . . . كانت قلبي يخفق ، فاضطرت بالرغم مني أن أبطئ السير حتى اذا التفت بسدافع من الفضول لا يقاوم ، رأيت أنك قد توقفت بدورك ، وأنتك تتطلع إلي من ورائي . ولقد عرفت في التواء واللحظة ، من مجرد اسلوبك في مراقبتني بكل ذلك الفضول المشبع بالاهتمام ، أنك لم تعرفني .

« إنك لم تعرفني ، لا في ذلك الحين ، ولا في أي حين آخر : إنك لم تعرفني قط . كيف استطيع ، يا حي ، ان اصنف لك خيمة الملا مثل التي احسستها

في تلك الثانية ؟ لقد كانت تلك المرة الأولى التي تحملت فيها عبء ذلك الألم الموجه ، ألم عدم معرفتك لي ، ذلك الألم الموجه الذي لا حقني طوال حياتي ، والذي اموت معه الآن ، ألا وهو بقائي مجهولة ، بقائي دوماً مجهولة منك . كيف استطيع أن اصفها لك ، خيبة الأمل هذه ؟ ذلك أنني تصورت ، خلال قينك السنتين اللتين قضيتها في اينسبورك ، واللتين لم افعل طوالهما إلا التفكير في لقائنا الأول كيف سيكون عند ما اعود الى فيينا ، لقد تصورت ، حسب حالتي النفسانية ، المشاهد الأشد إيلاماً الى جانب المشاهد الأشد إسهاداً . لقد فكرت سلفاً ، اذا كنت استطيع ان اقول هذا ، في مختلف الامكانيات ، فتصورت في لحظات التشاؤم انك سوف تدفعني عنك ، وأنت سوف تدريني وتحتقرني لأني كنت تافهة جداً ، قبيحة للغاية ، لوجه حتى الدرجة القصوى . إن سائر الأشكال الممكنة لعدم حظوتك ، وبرودك ولا مبالاةك ، هذه الأشكال جميعها قد تمثلتها في رؤى لاهية ، ولكني لم انصوّر قط ، في اشد ساعاتي سواداً وحسرة ، في أكثر لحظات وعيي لتفاهتي معاً ، هذه الامكانية ، الأرهب بين سائر الامكانيات ، ألا وهي انك لم تعر وجودي حتى ذرة واحدة من الاهتمام . اما اليوم ، فاني افهم ذلك جيداً — أواه ! اشد ما علمتني ان افهم عديداً من الأمور ! — إن محبة فتاة ، محبة امرأة ، هو بالضرورة شيء كثير الاختلاف في نظر الرجل ، وهو ليس في أكثر الأحيان سوى مرآة ينعكس فيها هوى تارة ، وهراء صبياني تارة أخرى ، وإعياء ملول في مرة ثالثة ، وانه يتغير بسهولة عظيمة ، مثل صورة مصنوعة في الجليد ، حتى ان الرجل ليستطيع بكل يسر ان يذسى فرديته ، وذلك بمقدار ما يبدل السن من ظلاله ، وبمقدار ما تحيطه الاثواب الجديدة باطارات متباعدة . ان المستسامات القانعات ، هؤلاء هن اللواتي يملكن علم الحياة

الحقيقي . اما انا ، الفتاة الصغيرة التي كنت في ذلك الحين ، فاني لم اكن
استطيع بعد ان افهم كيف يمكن ان تنساني . است ادري كيف تشكلت
فكرة وهمية في نفسي ، لشدة ما شغلت بك دون انقطاع ، وبصورة تتجاوز
كل المقاييس . كان يصور لي انك ، انت ايضاً ، كثيراً ما تفكر فيّ ، وأنت
تتظنني . كيف كان يمكن ان اتنفس دوماً لو كنت على يقين من انني
لست شيئاً بالنسبة اليك ، وان ذكراي لا تأني قط فتلامس فكرك في
رقة وعذبة ؟ ان تلك الیقظة المؤلمة امام نظرتك التي اثبتت لي ان
ليس فيك شيء قد عرفني ، وان ليس خيط أي ذكرى ليربط
حياتك بحياتي ، كانت بالذميمة إلي اول سقوط في الواقع ، اول
إحساس بمصري .

« إذن فانك لم تعرفني . وعندما شملتني نظرتك بشيء من الالفة بعد
يومين ، في لقاء جديد ، فانك لم تعرفني أيضاً كمالك التي أحبتك ، والتي
أيقظتها الى حياة القلب ، بل عرفتني بكل بساطة كمالك الفتاة الجميلة البالغة
الثامنة عشرة ، والتي صادفتك قبل يومين ، في المكان نفسه . ولقد تطلعت
إلي في دهشة لطيفة ، وتلاعبت ابتسامة ضئيلة حول شفتيك . ومرت
من جانبي مرة أخرى ، ومن ثم تماهلت مباشرة ، فراحت اوصالي
ترتجف ، أرعش بكلمي بفرح عظيم أخرس ... إن حدثتني الآن ! أحسست
اني أوجد للمرة الاولى بالنسبة اليك ، فتمهلنا أنا الأخرى ورحلت انتظر ،
واذا بي أشعر بغتة ، دون ان ألتفت ، أنك أصبحت خلفي . كنت أعلم أني
سوف أسمع الآن صوتك الحبيب يوجه الكلام إلي للمرة الاولى ، فإذا
الانتظار يصبح أشبه بالشلل بالنسبة إلي ، أخشى معه أن أضطر الى
الوقوف لشدة ما كان قلبي يخفق ويضطرب . وصاقتني ، وحدثتني

بأسلوبك الهازل في رقة ، وكأنا صديقان منذ زمن طويل . آه ! ان أضال
فكرة عن الشخص الذي كنت لم تراودك إذن ! ابدأ لم تعرف شيئاً عن
حياتي ! لقد حدثني ببساطة رائعة جداً حتى استطعت ان أرد عليك ،
فشيناً سوية على طول الشارع ... ومن ثم سألتني ان كنت
اقبل بتناول العشاء معك ، فقبلت .. أي شيء كنت أجرو ان
أمنعه عنك ؟

« وتعشينا سوية في مطعم صغير . هل تعرف أين ؟ كلا بكل تأكيد ،
لو أنك كنت تعرف أين ، فأنك لم تر في تلك الأسمية إلا مغامرة شبيهة
بما لا يخص من المغامرات ، اذ ما كنت ' بالنسبة اليك ؟ امرأة بين مائة
امرأة ، مغامرة في سلسلة المغامرات التي تتدحرج حلقاتها دون انقطاع .
ثم أية ذكرى كان يمكن ان تحفظها عني ؟ كنت لا أتكلم الا قليلاً جداً ،
لان وجودك الى جانبي وسماعي لك تحدثني كانا سعادة لا متناهية بالنسبة
إلي ، فلم أكن أريد أن أضيع أية لحظة من حديثك بسؤال أطرحه أو كلمة
حمقاء أقولها . ابدأ لن ينسى عرفاني بالجميل تلك الساعة ! لقد أجبت بصورة
رائعة على ما كان إجلالي العميق ينتظره منك ! كنت حنوناً ، عذبا ، كثير
الكمياسة ، بعيداً عن كل طفل ، متجنباً تلك الملاحظات التي يسمح البعض
لأنفسهم بها بصورة مبكرة جداً ؛ لقد كان موقفك ، منذ اللحظة الأولى ،
كثير الصداقة واليقين ، يلوح انه يستحق كل الثقة بحيث كنت
تكتسبني بكليتي حتى إن لم أكن لك سلفاً بكل إرادتي وكل
كينوتي . أواه ! انك لا تدري أي فعل رائع قد حققت ، في
ذلك المساء ، اذ لم تخيب خمس سنوات من الانتظار في الفتاة
التي كنت !

« كان الوقت متأخراً ، فذهبتنا . وأردت أن تعرف ، عند باب المطعم ، ان كنت في عجلة من امري ام اني املك بعض الوقت ايضاً : كيف كان يمكن ان أخفي عنك اني كنت تحت تصرفك ؟ أجبتك اني املك بعض الوقت ، فسألني عندئذ ، وأنت تتغلب على تردد بسيط بدا في صوتك ، ان كنت اريد أن أغدو معك الى دارك كي نثرثر برهة من الزمن ، فأجبت من صميم قلبي : « بكل سرور » ، وكأنني أجد ذلك أمراً طبيعياً جداً . ولقد رأيت مباشرة أن سرعة قبولي قد بغتتك ، وأنها قد أملتك أو أفرحتك — أهذا أم ذلك ، اني لم استطع أن أميز جيداً — ولكنك كنت مدهوشاً بصورة واضحة على أية حال . واني لا أفهم دهشتك اليوم ؛ اني أعرف أن النساء قد اعتدن ، حتى حين يحسسن الرغبة اللاهية في إعطاء انفسهن ، أن ينكرن ميلهن هذا ، ويدعين ذعراً ونقمة يتطلبان تهدئتها قبلاً بتوسلات ملحاجة ، وأكاذيب ، ووعود ، وأيمان . اني اعرف أن ممتنات الحب وحدهن ، العاهرات ، ربما يجبن على مثل هذه الدعوات بقبول تام ومغتبط كما فعلت — أو ايضاً فتيات صغيرات ، مراهمات ساذجات كل السذاجة . أما عندي — كيف كان يمكن أن تشك في ذلك ؟ — فلم تك الارادة التي تعلن عن ذاتها ، الرغبة اللاهية المكبوتة طوال آلاف الايام ، والتي تتظاهر الآن بصورة مباغتة . لقد فوجئت بعنف اذن ! بحيث ابتدأت انير اهتمامك ، أحس وأنا أسير الى جانبك تتبادل أطراف الحديث أنك تنفحصني بصورة جانبية ، في شيء كثير من الاستغراب والعجب . كان شعورك ، هذا الشعور الاكيد بصورة سحرية فيما يتعلق بالنفس الانسانية ، يستشم شيئاً غير عادي ، يخمن سراً في هذه الفتاة اللطيفة الرضية . واستيقظت رغبة المعرفة فيك ، فلاحظت من شكل أسئلتك اللبقة البارعة أنك تريد الامساك بذلك السر . ولكني

أُخذت موقف الدفاع ، فقد كنت أفضل أن تعتبرني مجنونة على أن أرفع النقاب عن سرّي .

» وصعدنا الى دارك . اصفح عني ، يا حيي ، اذا قلت لك انك لا تستطيع أن تفهم ما كان ذلك الصعود وهذا السلم يعنيان بالنسبة اليّ ، وأية نشوة وأي اضطراب قد اجتاحتني ، وأية سعادة مجنونة ، معذبة ، تكاد أن تكون قاتلة ، قد وقعت فريسة لها . حتى الآن لست استطيع ان افكر في ذلك دون ان أذرف العبرات ، وأنا لا املكها بالرغم من ذلك . ولكن تصوّر فقط ان كل حاجة في هذه الدار قد كانت مشربة ، اذا جاز التعبير ، بهواي الالاهب ، تمثل رمزاً لطفولتي ، لرغبتني التي اشتعلت منذ أمد طويل: الباب الذي انتظرتك أمامه ألف مرة ، السلم الذي ترقيبتك عليه دوماً وخمنت خطوتك عندما تصعده - هذا السلم الذي رأيته عليه للمرة الأولى - والمنظار الصغير الذي تعلمت من ورائه أن أسير أغوار نفسي ، والسجادة الموضوعة أمام الباب ، والتي جنوت عليها ذات يوم ، وصبر المفتح الذي جعلني دوماً أترك مركز مراقبتني منتفضة الأوصال . ان كل طفولتي ، كل هواي ، يجدان هنا عشاء ، في هذه الأمتار القليلة من الفراغ ؛ ههنا توجد كل حياتي . وهذه عاصفة تسقط عليّ ، في هذه اللحظة التي يتحقق فيها كل شيء ، كل شيء على الإطلاق ، والتي أدخل فيها معك - أنا معك ! - الى دارك ، الى دارنا . فكّر أن كل شيء ، خلال وجودي ، لم يكن حتى الآن - ان كلماتي لتبدو مبتذلة بكل تأكيد ، ولكنني لا استطيع ان اعبر عن نفسي بصورة مختلفة - إلا واقعاً حزيناً كثيراً ؛ اني لم أرَ أمامي حتى تلك الساعة سوى عالم كامد رتيب ... ولكن هذه الأرض المسحورة التي يحلم الطفل بها ، جنة المدن ، تفتح لي على حين غرة . فكر أن عيني قد شخصتني في حمية ، ألف مرة ، الى هذا الباب الذي أجتاز الآن

عقبته بخطى متأرجحة ، ولسوف تحس - سوف تحس فقط ، لأنك أبداً
تعرف ذلك ، يا حي ، بصورة نامة ! - كم ساعة من حياتي تنكث في تلك
الدقيقة المدومة .

» بقيت عندك الليل بطوله ! انك لم تشك أبداً ان ليس رجل قد اقترب
قبلك مني ، وان ليس انسان ايضاً قد لامس جسدي او رآه . كيف كان
يمكن ان تفترض ذلك ، يا حي ، ما دمت لم ابد لك ادنى مقاومة ، وما دمت
قد منعت كل تردد يمليه الحياء ، وكل غايي من ذلك ألا تخمن سرّ حي ،
هذا السر الذي كان يخيفك بكل تأكيد لو اطلعت عليه - ذلك ان الحب
لا يمكن ان يكون ، بالنسبة اليك ، الا شيئاً خفيفاً ، يرتدي شكل اللهو والعبث ،
ولا يتمتع بأية اهمية على الاطلاق . انك تخاف ان تحمر نفسك في مصير ما ،
تريد ان تتذوق سائر افراح الحياة دون حساب ، ولكنك لا تريد تضحية
قط . يا حي ، اذا قلت لك الآن اني كنت عذراء عندما منحتك نفسي ، فاني
ارجوك الا تسميهم فهم معنى كلامي ! اني لا اهتمك ، فأنت لم تجتذبي ، ولم
تخدعني ، ولم تغري ، بل هي انا ، انا نفسي ، التي ذهبت اليك ، تدفعني رغبتني
الخاصة الى ذلك ، انا التي رميت بنفسي على عنقك ، التي تهاويت في مصيري .
ابدأ ، ابدأ ان اهتمك ، كلا ! بل اني سوف اشكرك دوماً ، على العكس ،
لأن تلك الليلة كانت غنية جداً بالنسبة اليّ ، طافحة للغاية باللذة ، مفعمة
بالسعادة حتى الدرجة القصوى ! عندما كنت افتح عيني في الظلام واحسك
الى جانبي ، فقد كنت ادهش لأن الكواكب ليست فوق رأسي ، لشدة
ما كانك السماء تبدو قريبة في متناول اليد . كلا ، يا حي ، ابدأ لم آسف
على شيء - ابدأ ! - بسبب تلك الساعة . اني لا تذكر ذلك الآن ايضاً .
كنت تنام ، وكنت اسمع صوت تنفّسك ، وكنت ألس جسديك واشعر

بنفسي قريبة كل هذا القرب منك ، فلقـد بكيت في الظل غبطة
وسعادة وهناء .

« وغادرتك مسرعة في الصباح ، في ساعة مبكرة جداً . كان لابد لي
من الذهاب الى المخزن ، كما كنت اريد ان اترك الدار قبل قدوم الخادم ؛
لم يكن يجب ان يراني . وعندما ارتديت ثيابي ، ووقفت هناك ، امامك ،
اخذني بين ذراعيك وتطلعت طويلاً اليّ . أهي ذكرى بعيدة غامضة
تضطرب فيك ، او اني بدوت لك بكل بساطة جميلة وسعيدة ، مثلما كنت
في واقع الأمر ؟ واعطيني قبلة على فمي ، فخلصت نفسي بكل
لطف كي اذهب . وعندئذ سألتني : « أفلست تريدان ان تأخذي
بعض الورود معك ؟ » ، فأجبت ان بلى . وعندئذ اخذت اربع
زهرات بيض من إناء البلور الأزرق الموضوع على مائدة الكتابة (آه ! هذا
هذا الاناء ، اني لا أعرفه جيداً من النظرة الخاطفة الوحيدة التي ألقيتها على
جناحك عندما كنت طفلة بعد) ، واعطينتها ، لقد حملتها الى شفتي ، هذه
الزهرات الأربع ، طوال ايام عديدة .

« وانفقنا ، قبل ان اتركك ، على موعد لأمسية اخرى . ولقد جئت ،
وكان ذلك رائعاً مرة اخرى ، ولقد منحتني ايضاً ليلة ثالثة ، ومن ثم اخبرني
انك مضطر الى السفر — اواه ! هذه الأسفار لشد ما كنت ابغضها منذ
طفواني ! — ووعدتني ان تتصل بي توّ أوتك . واعطيتك عنواني على
البريد الباقي لأنني لم اكن اريد ان اذكر لك إسمي ... كنت احتفظ بسري .
واعطيني مرة اخرى بضع زهرات ساعة الوداع — زهرات تقوم مقام
الوداع !

« وبقيت اذهب يومياً ، طوال شهرين ، الى البريد ... ولكن لا ، لم

أصـف لك هـذه العـذابـات الجـهنـمية ، عـذابـات الـانـتـظـار والـيـأس ؟ انـي لا أـتـهـمـك ،
بل أـحـبـك كـما أنت ، لا هـيـأ ونا سـيـاً ، مـخـلـصـاً ونا كـنـاً للعـهـد ؛ إنـي أـحـبـك هـكـذا ،
هـكـذا فـقـط ، كـما كـنـت دوماً ، وكـما لـما نـزل حـتى الآـن . ولـقـد رـجـعـت مـنـذ فـتـرة
طـويـلة ، أـخـبرـني بـذلك نـوافـذك المـضـاءة ، ولـكـنـك لم تـكـتـب إلـي . إنـي لا أـمـلـك
سـطـراً واحـداً مـنـك حـالـياً ، في سـاعـتي الآخـيرة ، ولا سـطـراً وحـيداً مـنـك ، أنت
الـذي أـعـطـيتـك حـيـاتي . لـقـد انـتـظـرت ، انـتـظـرت كـالـيـائـسة ، ولـكـنـك لم تـدـعـني ،
لم تـكـتـب إلـي سـطـراً . . . ولا سـطـراً واحـداً .

* * *

« لـقـد مـات ولـدى البـارحة — ولـقـد كان ولـدك أـيـضاً . لـقـد كان ولـدك
أـيـضاً ، يا حـبي ، ثـمـرة إـحـدى تـلك الـليـالي الـثـلاث الـتي قـضـيـنا هـا مـعاً ، أقـسم لك
عـلى ذـلك ، والمـرء لا يـكـذب في ظـل المـوت . لـقـد كان ولـدنا ، أقـسم لك ، لأن
رـجـلاً لم يـلـمـسـني مـنـذ اللـحـظـة الـتي و هـبـتـك فـيها نـفـسي ، حـتى تـلك اللـحـظـة الآخـرى
حـيـث تـلـوى جـسـدي في آلام المـخـاض . إن مـلامـسـتـك قـد صـيـرت جـسـدي مـقـدساً
في نـظـري ، فـكـيـف يـمـكـن اذـن أن أقـسم نـفـسي بـيـنـك ، أنت الـذي كـنـت كل
شـيـء بالنـسـبة إلـي ، و بـيـن آخـرين لا يـسـتـطـيـعـون أن يـلـمـسـوا حـيـاتي عـن بـعد إلا
بـصـعـوبة عـظـمى ؟ لـقـد كان ابـنـنا ، يا حـبي ، ابن حـبي الواعـي و حـنـانـك
الـلامـكـثـر ، السـخـي ، المـسـرف ، الـذي يـكـاد أن يـكـون آليـاً .
لـقـد كان ولـدنا ، ابـنـنا ، ولـدنا الوحـيد . ولـكـنـك تـريد أن تـعـرف
الـآن — رـبـما مـذعـوراً ، و رـبـما مـدهـوشاً — تـريد أن تـعـرف الآن يا حـبي ، لـمـا ذا أخـفـيت
عـنـك طـوال هـذه السـنـوات المـدـيـدة و جـود هـذا الابـن ، ولـمـا ذا أـحـدثـك عـنه الـيـوم
فـقـط ، بـيـنا هو يـتـمـدـد هـنـاك ، راقداً في الـديـاجـير ، راقداً إلـى الأبد ، و قـد أتم

استعداداته للذهاب كي لا يرجع قط ، كي لا يؤوب أبداً ! ولكن كيف
كان يمكن أن أقول لك ذلك ؟ انك لم تك لتصدقني قط ، انا الغريبة ،
التي وهبت لك بسهولة فائقة هذه الليالي الثلاث ، أنا التي استسلمت لك دون
تردد ، بله في حميا ايضاً ! انك لم تك قط لتصدق ان تلك المرأة المدغمة التي
صادفتها برهة وجيزة فقط من الزمن ، سوف تظل مخلصة لك ، أنت
الناكث لليهود — انك لم تك قط لتعترف بهذا الطفل ابناً لك دون ريبة
تساورك وشكوك تدلهم عليك كيلا تزول مطلقاً ! انك لم تك لتستطيع قط ،
حتى إن لاحت أقوالي لك معقولة يمكن تصديقها ، أن تبعد الريبة في أي
اجرب أن ألقى على كاهلك ، انت الذي كنت ثرياً ، أبوة طفل غريب عليك ،
لقد كنت ترتاب في ، وكان يبقى ظل ابني وبينك ، ظل من التشكك
مضطرب متلاحق الأمواج . ولكني لم أكن أريد ذلك . ومن ثم فقد
كنت أعرفك ؛ كنت أعرفك بصورة افضل مما تعرف انت نفسك ؛ كنت
أعلم إنه سيصعب عليك ، أنت الذي تهوى ، في الحب ، اللامبالاة ، والخفة ،
والعبث ، أن تصبح بغتة أباً ، وأن تتحمل بصورة مفاجئة مسؤولية مصير
انساني مرهق . لقد كنت تحس إذن ، أنت الذي لا تستطيع أن تنففس إلا
بحرية تامة ، أنك مرتبط بي بطريقة ما ؛ وكنت تبغضني — بلى ، إنني أعرف
ذلك ، لقد كنت تفعل ذلك بالرغم من ارادتك ، بصورة غير واعية — بسبب هذه
العبودية التي ستثقل عليك ؛ لقد كنت أصير مقيمة في نظرك ، وكنت تحقد
علي ، ربما لبضع ساعات فقط ، وربما خلال دقائق قليلة سريعة الزوال ليس
اكثر — أنا التي اريد ، في كبريائي ، أن تفكر في طوال العمر دون سحابة
واحدة أبداً . كنت أؤثر أن آخذ كل شيء على عاتقي على أن اصبح
حملاً عليك ، وأن أكون بذلك الوحيدة ، بين سائر النساء ، التي تفكر فيها

بمحنة ، بامتنان وعرفان بالجميل . ولكن الحقيقة أنك لم تفكر في مطلقاً ، بل
نسيتهني !

« اني لا أهتمك يا حبي ، كلا ، لست أهتمك ؛ اصفح عني اذا كانت
قطرة من المرارة تسيل ، أحياناً ، من ريشتي ؛ اصفح عني - ولكن ولدي ،
ولدنا ، أفليس هو متمدداً هناك ، تحت شعلة الشمعات المتذبذبة ؟ لقد مددت
قبضتي المطبقة نحو الله ، وسميته مجرماً ! ان الاضطراب والظلمة يسيطران على
حواسي . اغفر لي هذه الشكوى ، اغفرها لي . اني أعرف جيداً أنك ، في
أعمق أعماق قلبك ، طيب ومستعد لتقديم المعونة دوماً ، وأنت تهب بمساعدتك
لمن يسألك ايها ، وأنت تقدمها حتى الى من هو غريب عليك تماماً . ولكن
طيبتك لغريبة جداً ! انها طيبة مفتوحة للجميع ، وكل واحد يستطيع أن
يستقي منها ويملا يديه ! ان طيبتك لكبيرة ، كبيرة بصورة لا متناهية ،
ولكنها - اعذرني - كسول كثيرة اللامبالاة ؛ انها تريد أن يضرب الحصار
حولها ، وأن تخضع للعنف والقوة . فمعونتك ، أنك تعطيها عندما تطلب منك ،
عند ما يوجه الرجاء اليك من اجلها ! وعضدك ، أنك تمنحه حياءً ، تمنحه
بدافع من الضعف وليس من الغبطة . اسمح لي ان اقول لك بكل صراحة :
ان حبك لا يؤثر الرجل الذي يعاني الحاجة ويلاقي الصعوبات على أخيك الذي
يرتع في احضان السعادة . ولكن الناس الذين على غرارك ، حتى أفضلهم على
الاطلاق ، يصعب جداً أن يتوجه المرء اليهم برجاء أو سؤال . لقد رأيت
في ذات يوم ، وكنت طفلة بعد ، من خلال منظار الباب ، كيف تصرف
كي تصمد على شحاذ قد طرق بابك . لقد أعطيته مباشرة وبوفرة ايضاً ،
حتى قبل أن يتربك ، ولكنك مددت له صدقتك في شيء من القلق ، في عجلة
تقول كل رغبتك في رؤيته يذهب عنك سريعاً . كان يلوح أنك تخاف من

التطلع في عينيه . ان هذه الطريقة الهاربة في الاعطاء ، هذا الخوف ، هذه الخشمية من ان يوجه الشكر اليك ، لم أنسها قط منذ ذلك الحين . وهذا هو السبب في أني لم أتوجه اليك مطلقاً . لقد كنت تساءلني من دون ريب ، اني اعرف ذلك ، حتى دون ان تكون على يقين من أنه طفلك ؛ كنت تعزيني ، وتعطيني مالاً ، مالاً وفيراً ، ولكن تحذوك دوماً الرغبة المتعجلة الخفية في ان تبعث عنك الأشياء التي لا تسرك أو ترضيك . بلى ، اني لأظن ايضاً أنك كنت تحملني على القضاة على الطفل قبل أوانه ، الأمر الذي كنت اخشاه اكثر من أي شيء آخر ، اذ كيف يمكن ألا افعل ذلك منذ اللحظة التي تطلبه مني ، كيف يمكنني أن امنع عنك شيئاً سألتني اياه ؟ ولكن هذا الطفل كان كل شيء بالنسبة الي ؛ لقد كان ينحدر من صلبك ، لقد كان أنت ايضاً ، ليس ذلك الكائن السعيد اللامبالي الذي كنت والذي كنت 'أستطيع أن احفظ به ، ولكن أنت إلى الأبد ، فيما كنت أفكر ، وقد أصبحت ملكاً لي ، حبيباً في صدري ، مرتبطاً الى حياتي . لقد كنت أمسك بك اخيراً ، في الوقت الراهن ؛ كنت أستطيع أن اشعر بك ، في أوردتي ، تعيش وتنمو ؛ لقد أعطيت لي ان أغذيك ، وأن ارضعك ، وان أغمرك بالمداعبات والقبلات عندما تلهب نفسي وتشتاق الى ذلك . هل ترى ، يا حي ، هذا هو السبب في أني كنت سعيدة عند ما عرفت اني أحمل في أحشائي طفلاً منك ، ولذا فقد امتنعت عن اعلان الأمر لك ، لأنك الآن لم تعد تستطيع قط أن تفلت مني .

» صحيح يا حي ، انه لم يك الا شهور قليلة من السعادة فقط ، سعادتي حين افكر في الحادث سلفاً واغبط به . ولقد كان هناك شهور اخرى مليئة بالرعب والعذابات ، مفعمة بالاشمئزاز تجاه دناءة البشر ونذالهم . لم يك مركزى سهلاً ، افلم اكن أستطيع ، اثناء اشهر حملي الاخيرة ، ان أغدو الى العمل خوفاً من ايقاظ

الريبة في نفوس اصحاب العمل الذين اشتغل عندهم ، ومن رؤيتهم يفضحون
امري لأهلي ويشون بي عندهم . ولم اكن اريد ان اطلب مالاً من أي ،
بحيث عشت اذن ، طوال الزمن الذي انقضى حتى الولادة ، من بيع بعض
الحلي التي كنت املكها . ولقد سرقت الغسالة القليل من المال الذي كنت ادخره
من خزانتي ، وذلك قبل اسبوع واحد من موعد الوضع ، بحيث اضطرت
أن أذهب الى دار للتوليد في سبيل ذلك . وهناك ، في ذلك المكان حيث
لا يلتجئ الا اكثر النساء فقراً في تعاستهن ، حيث لا يلتجئ الا المضطهدات ،
والمنسيات ، في وسط البؤس الاكثر متناً ، هناك جاء الطفل ، طفلك ،
الى العالم .

« انه عميت ، هذا المستشفى ؛ كل شيء فيه غريب على المرء ، غريب ،
غريب ؛ وكنا نتبادل النظر مثل الغريبات ، نحن التمددات هناك وحيدات ،
طافحات جميعاً بالحقد والكراهية ، لا يصل بيننا سوى وحدة البؤس والعذابات التي
اجبرتنا على اتخاذ مكان في هذه القاعة الفاسدة الجوء العاجية براحة الكلور وفورم
والدم ، بالصيحات والأنين الذي لا ينقطع . ان كل ما يمكن أن يتحملة الفقر
من إذلال ، من إهانات أخلاقية وحكيمة على حد سواء ، قد تحمته في
هذا القرب من بعض العاهرات والمريضات اللاتي يعملن من وحدة مصيرهن
ندالة مشتركة . لقد تحمته تحت وقاحة اولئك الاطباء القتيان الذين كانوا
يرفعون غطاء السرير ، وقد افترت شفاههم عن ابتسامة ساخرة دنيئة ، ويروحون
يحسون جسد المرأة المجردة عن كل دفاع ، مدعين اهتماماً علمياً كاذباً . لقد
تحمته في حضور طمع المرضات وجشعهن اللذين لا يحدان . أوه ! ان
الحياء الانساني لا يلقى ، في هذه القاعة ، الا نظرات تصلية وكلمات تجلده ،
واسم المرء المكتوب على لوحة فوق السرير هو كل ما يبقى منه ، لأن ما يتعدد

في الفراش ليس سوى حزمة من اللحم اللاهث يحبسها الفضوليون
وبقه حصونها ، فهي لا تزيد عن أن تكون حاجة رخيصة للاطلاع والدراسة .
أواه . إنهن لا يعرفن ، النساء اللاتي يعطين أزواجهن طفلاً في بيتهن
الخاص ، في أحضان عناية حنون ، ما معنى أن تضع المرأة طفلاً عندما تكون
وحيدة ، بعيدة عن كل حماية أو اهتمام عطوف ، وكأنها إنما تتمدد على طاولة
التجارب الطبية . حتى اليوم ، عندما اصادف في كتاب كلمة « الجحيم » ،
طاني أفكر مباشرة ، بالرغم مني ، في تلك القاعة التي تعذبت كثيراً فيها ،
وسط الروائح الكريهة ، والآنين ، والضحك ، والصيحات الدامية المنطلقة
من حناجر النسوة المكدمات هناك - في هذه القاعة التي هي في الحقيقة ،
بالنسبة إلى حياتنا ، مذبح مقيت مرق القسوة .

« ولكني لست أتهمك أنت ؛ إني لا أتهم إلا الله ، الله وحده الذي أراد هذا العذاب المجرد عن المعنى . إني لم أتهمك ، أقسم على ذلك ، ولم أنهض ضدك أبداً ، حتى ولا في أشد ساعات تماسي إظلاماً وإيلاماً ، حتى في الساعة التي

تلى العلق بالله الميم - ١٠
وما عسى هـ الى ارحم الراحمين

تلقى جسدي فيها في حماة الآلام ، حتى حين كان يحترق خجلاً ، تحت أنظار
الطلاب الشبان الفضولية الكاوية ، حتى في اللحظة التي مزق الوجع فيها نفسي ،
فاني لم أنهمك أمام الله أبداً ، ولم أندم أبداً على الليالي الثلاث التي قضيتها معك ،
ولم يتحمل حيي أبداً طعنة أي عقاب من جانبي ، بل لقد احببتك دوماً ،
وباركت دوماً الساعة التي لقيتكم فيها . ولو اضطررت من جديد أن أجتاز
جحيم هذه الساعات من العذاب ، حتى إن كنت أعرف سلفاً ما ينتظرني ،
ياحي ، فلسوف أفعل مرة أخرى ما فعلت ، مرة أخرى أيضاً ، بله ألف
مرة أيضاً !

* * *

« إن ولدنا قد مات ، وأنت لم تعرفه . أبداً ، أبداً حتى ولا في لحظة خاطفة
مردّها الصدفة المحضة ، لم يلمس هذا الكائن الصغير المتورد ، المولود
من كينونتك ، نظرك ولو بصورة عابرة . لقد اختبأت عن عينيك طويلاً ،
منذ أن أصبح هذا الطفل لي ، إذ أضحي حيي اللاهب لك أفل ايلاماً ، بل
إني لأحسب أني لم أعد أحبك بالعنف ذاته ، أو أن حيي على الأقل لم يكن
يعذبني مثلاً كان يفعل قبلاً . لم أك أريد أن أقسم نفسي ببتك وبينه ، ولذا
فقد منحت نفسي ، لبس لك أنت الذي كنت سعيداً ، تعيش خارجاً عني ،
بل لذلك الطفل الذي كان يحتاج إلي ، الذي كان يحب أن أغذيه ، الذي
كنت أستطيع أن أضمه بين ذراعي وأغمره بقبلائي . كنت ألوح وقد
تخلصت من الاضطراب الذي ألقينه في نفسي ، وانهزمت من مصيري السيء ،
وانقذت أخيراً على يد هذا الآخر الذي هو أنت نفسك ، لكن الذي كان لي
حقاً وفعللاً . ولم يعد هو اي يذهب بي الى أمام منزلك بكل تواضع إلا نادراً ،
نادراً جداً ، فكنت لا أصنع إلا شيئاً واحداً فقط ، ألا وهو أن أرسل ، في

عيد ميلادك من كل عام ، بصورة منتظمة ، باقة من الأزهار البيض ، الشبيهة تماماً بتلك الأزهار التي قدمتها لي بعد ليلة حبنا الأولى . هل سألت نفسك ، طوال هذه الأعوام العشرة ، هذه الأعوام الأحد عشر ، من هو الذي يرسلها لك ؟ هل تذكرت - ربما - تلك التي اعطيتها ، ذات يوم ، أزهاراً مائلة ؟ اني أجهل ذلك ، ولن اعرف قط جوابك . اما انا فقد كان يكفي ان اقدمها إليك بصورة خفية ، واجعل ذكرى تلك اللحظة تزدهر وتفتح مرة في كل عام .

« انك لم تعرفه قط ، صغيرنا المسكين . واني لا لوم نفسي اليوم ، لأنني اخفيتك عن عينيك ، ذلك انك كمنت تحبه بكل تأكيد . ابدأ لم تعرفه ، الطفل المسكين ، ابدأ لم تره يتسم ، عندما كان يرفع جفنيه رفعا ضئيلا ، فتلوي عيناه السوداوان الذكيتان - عيناك - نورها النقي المفرح عليّ ، على العالم بأسره . آه ! لقد كان كثير المرح ، عظيم الفتنة ، تتكرر فيه ، بصورة طفولية ، فتنة كينونتك بأسرها ، وينعكس فيه خيالك الحي الصاخب . لقد كان يستطيع ان يلهو بمجنون ، طوال ساعات عديدة ، بشيء ما مثلما تسرّ انت باللهو بالحياة ، ومن ثم كان يعود الى الرزاة ، فاذا هو جالس امام مكتبه ، مقطب الحاجبين ، مغضن الجبين . كان شبهه بك ينمو يوميا ، لا بل ان تلك الفنائية من الجدة والعبث الخاصة بك قد طفقت تتطور فيه ايضا ، فزداد حبي له بمقدار ما يعظم شبهه بك . كان يحفظ روعه جيدا ، ويثرثر بالفرنسية مثل عقق صغير . وكانت دقاته انظف دقات صفه اطلاقا ، ولشدّة ما كان لطيفاً ورشيقاً ، بالإضافة الى ذلك ، في ثوبه الخملي الأسود ، او في بزته البحرية البيضاء ! لقد كان يفوق الجميع وجاهة ايان ذهب ، فاذا مررت معه على بلاج غرادو ، توقفت السيدات ورحن يمسحن على شعره الاسقر الطويل ؛ وعندما كان

يتزحلق في سيمرنبغ ، كان الناس يستديرون دوماً نحوه في اعجاب عظيم !
لقد كان جميلاً جداً ، رقيق الحاشية كثيراً ، عظيم اللطف حتى درجة بعيدة !
وعندما اصبح ، في السنة الأخيرة ، طالباً داخلياً في مدرسة ماري - تيريز ،
كنت تقول اذا رأيت أنه أحد النبلاء الايطاليين في القرون الوسطى ، لطريقته
في ارتداء بزته وحمل سيفه الصغير . اما الآن ، فإنه لا يملك سوى قميصه الصغير ،
هذا الصبي المسكين ، وهو يتمدد هناك شاحب الشفتين ، متشابك اليدين
على صدره .

» ولكن لعلك تريد أن تعرف كيف استطعت تذهنته هكذا ، في الآهة ، كيف
تصرفت كي اسمح له ان يعيش هذه الحياة اللامعة الفرحية التي يعيشها ابنائه
الطبقة الراقية ؟ يا حي ، اني اتحدث اليك من احضان الظل ، واست اخجل من
اي شيء مطلقاً ، ولذا فسوف اروي لك كل شيء بدون تردد ، انما ارجوك الا
تخاف والا تفرق ؛ يا حي ، لقد بعت نفسي . لم اكن بالضبط ما يدعونه بنت
الشارع او العاهرة ، ولكني قد بعت نفسي . لقد عرفت اصدقاء اغنياء ،
وعشاقاً موسرين ، فتشت عنهم في البدء ، ثم كانوا هم الذين يفتشون عني ،
لأنني كنت - هل لاحظت ذلك ؟ - جميلة جداً . كان كل رجل اعطيته نفسي
يأخذ بالعطف علي ، فكانوا جميعاً ممتنين لي ، متعلقين بي ؛ لقد احبوني جميعاً
دون استثناء ... جميعاً ، ما عدالك ، بلي ، انت وحدك ، يا حي .

» هل تحتقرني حالياً وتزدريني اذ رفعت النقاب لك عن اني بعت نفسي ؟
كلا ، انك لا تحتقرني ، انا اعرف ذلك ؛ اني اعرف انك تفهم كل شيء ،
وتفهم أيضاً اني اذا تصرفت على هذا الغرار ، فذلك في سبيل انك الأخرى ،
طمالك ، من دون أي سبب آخر مطلقاً . لقد لمست يوماً ، في تلك القاعة
من دار التوليد ، الجانب الرهيب للفقر ، فأصبحت اعرف ان الفقير هو

الضحية دوماً في هذا العالم ، هو السكان الذي يحطون منه ، ويدوسونه
بالأقدام ، فلم أك أريد ، بأي ثمن كان ، ان ينمو طفلك ، طفلك الذي يشع
جمالاً ، في الحضيض ، وأن يفسد من جراء الاحتكاك اللفظ بأبناء الشارع ،
وان يذبل في الهواء الفاسد الذي يملأ قبو منزل كنت سأضطر الى سكناه .
يجب ألا يعرف فوه الرقيق طين الساقية ، وكذلك يجب ألا يعرف جسده ،
جسده الناصع البياض ، البريء من كل دنس ، ثياب الفقير العفنة الخشنة .
كان يجب ان يستفيد طفلك من كل شيء ، من سائر خيرات الارض
ومحاسنها ؛ كان يجب ان يرتفع ، بدوره ، الى مستوى
حياتك انت .

« ذلك هو السبب ، السبب الوحيد الذي حملني على بيع نفسي .
لم تك تلك تضحية مني ، لأن ما يدعونه عادة شرفاً وعاراً لم يكن له
وجود في نظري . لم اكن ابالي بما يمكن ان يصنعه جسدي ، مادام الذي
أخصه لا يحبني . ولم تك مداعبات الرجال ، لا بل حتى عاطفتهم الا عمق ،
التمس شغاف قلبي مطلقاً ، وان اضمرت احتراماً عظيماً لعدد كبير منهم ،
وهزتي الشفقة كثيراً امام حبهم الوحيد الجانب الذي يذكرني بمصري
الخاص . ان سائر الذين عرفتهم قد عاملوني بطيبة قلب عظيمة ، ودلوني
جميعاً ، واحترموني دون استثناء ، وبصورة خاصة كونت امبراطوري ، ارمل
ومتقدم في السن ، ذلك الذي كلت قدماه لكثرة ما طرق الابواب كي
يدخل الى مدرسة ماري - تيريز الطفل الذي لا أب له ، طفلك ... كان يحبني
بصورة أبوية ، وقد طلب مني الزواج ثلاث أو أربع مرات ، بحيث كنت
اكون اليوم كونيتماً ، وسيدة قصر اسطوري في القيروان ، لا أعرف الهموم
والتعاب ولا تخطر لي على بال ، لأن الطفل كان يلقي فيه اباً حنوناً يعبد ،

عصيدة
تسليم الدائم

وأنا زوجاً وجيهاً ، طيباً ورقيق الشمل . ولكني لم أقبل ، بالرغم من إصراره وتكراره العرض باستمرار ، وبالرغم من ان رفضي قد أساء كثيراً إليه . ولربما ارتكبت بهذا الرفض فعلاً جنونياً لا يفتقر ، لأنني كنت اذن اعيش رغبة البال في الوقت الراهن ، معترلة الناس في مكان ما ، يرافقني دوماً هذا الطفل ، هذا الطفل الحبيب . ولكن لم لا أعترف لك ؟ لم أك اريد ان أرتبط ، لأنني كنت اريد أن اكون ، في كل لحظة ، تحت تصرفك . في اعماق اعماق قلبي ، في كينونتي غير الواعية ، كان ذلك الحلم الطفولي يعيش دوماً ، الحلم بأنك ربما دعوتني مرة اخرى ، ولو لساعة واحدة ليس غيره . وفي سبيل امكانية هذه الساعة رفضت كل شيء . لأنني كنت أرغب أن أكون متأمة لندائك الأول . وهل كانت حياتي بأسرها ، منذ خرجت من طور الطفولة ، الا انتظاراً فقط ، انتظار ارادتك ؟

« ولقد جاءت تلك الساعة في الحقيقة ، ولكنك لا تعرف متى جاءت . انك لا تشك في ذلك ، يا حبي . وانك لم تعرفني ، حتى في تلك اللحظة — ابدأ ، ابدأ ، ابدأ ، لم تعرفني ا بلى ، لقد لقيتك كثيراً من قبل في المسارح ، والحفلات الموسيقية ، والطرق — وكان قلبي ينتفض في كل مرة ، ولكنك كنت تمر دون أن تراني . لقد كان مظهري الخارجي مختلفاً جداً بكل تأكيد : ان الطفلة الهيسة قد اصبحت امرأة ، امرأة جميلة فيما يقولون ، بهية الطلعة ، محاطة بالمعجبين والعباد . كيف كان يمكن أن ترناب في أني تلك الفتاة الحبيبة التي رأيتهما في الدور الليلي المتسرب في حياء الى مخدع نومك ! وكان احد الرجال الذين ارافقهم يحبك احياناً ، فتد علي تحيته ، وترفع عينيك نحوني ، لكن نظرتك تظل دوماً

غريبة بمقدار ما هي بشوشة ، تقدرني فقط ، لكن لا تعرفني أبداً ؛ لقد كانت بعيدة عني ، بعيدة بصورة مبرحة . وكان ذاك النسيان لشخصي ، الذي اعتمدت عليه تقريباً في تلك الاثناء ، عذاباً أليماً بالنسبة إليّ . وفي ذات يوم — إني ما برحت اذكر ذلك — كنت في مقصورة في الاوبرا برفقة أحد أصدقائي ، وكنت انت جالساً في المقصورة المجاورة . وانطفأت الانوار لدى بدء التمثيل ، فلم اعد استطيع ان أرى حياك ، ولكنني كنت احس أنفاسك قريبة جداً مني ، مثلما أحسستها في تلك الليلة من الهوى ، بينما كانت يدك ، يدك الرقيقة الرائعة ، ترتاح على حافة المقصورة المكسوة بالخمل . واجتاحني في تلك اللحظة رغبة لا متناهية ، الرغبة في ان انحي وأطبع بكل تواضع قبلة على هذه اليد الغريبة ، هذه اليد العزيزة التي احسست ذات يوم عناقها الحنون . وفيما حولي ، كانت الموسيقى تنشر امواجها الثاقبة ، فتزداد رغبتني عنفاً باستمرار . ولقد اضطررت ان ابذل جهداً عظيماً كي اسيطر على اعصابي ، لشدة ما كانت القوة التي تجتذب شفتي نحو يدك العزيزة آتية لاهبة . وطلبت من صديقي ، في نهاية الفصل الاول ، ان نذهب ، اذ لم اعد اطيق ان اجدك هناك ، الى جاني ، غريباً جداً وقريباً جداً في الظلمة الشاملة .

« ولكن الساعة المنتظرة بفراغ صبر قد جاءت أخيراً ، جاءت مرة اخرى ، جاءت تزورني مرة اخيرة في حياي التي اصبحت نهياً للقضاء وفريسة . كان ذلك قبل سنة واحدة بالضبط ، غداة عيد ميلادك . يا للامر الغريب ! اني لم اكف قط عن التفكير فيك ، لأنني كنت احثفل بذلك المولد كعيد عظيم دوماً . كنت قد خرجت منذ الصباح الباكر ، وابتعت الازهار البيضاء التي ارسلها لك كل عام تذكراً لحظة قد

نسيتها انت كل النسيان . ورافقت الصغير الى نزهته بعد الظهيرة ، وصحبته
الى معمل خلويات ديمل ، وفي المساء أخذته الى المسرح . كنت
اريد ان يعتبر هو أيضاً ، منذ فتوته ، ذلك اليوم كعيد صوفي ، حتى
دون أن يعرف معناه الحقيقي . ومن ثم قضيت الغداة برفقة ذلك
الصديق الذي كنت أعيش معه في تلك الاثناء ، وهو صناعي فتى
عظيم الثراء من مدينة برون ، يدلني ويعيدني عبادة منذ اتصلت به قبل سنتين .
ولقد كان يريد ، هو الآخر ، أن يتزوجني ، ولكني قابلته دوماً برفض
ليس ما يبرره في الظاهر ، بالرغم من أنه غمرنا بالهدايا ، الطفل وأنا ،
وبالرغم من أنه كان جديراً بالحـب من أجل طيبة قلبه ، الثقيلة نوعاً ما ،
والمشبعة بالعبودية . وذهبنا معاً الى إحدى الحفلات الموسيقية حيث
لقينا جماعة مريحة من الاصدقاء . . . فتناولنا عشاءنا جميعاً في أحد
مطاعم رينفستراس ، وهناك اقترحت ، في ملء الضحك والثرثرة ،
ان نذهب الى أحد المراقص في تاباران . لم يك هذا النوع من
المؤسسات ، بمرحها الكاذب والمشرّب سخراً ، يروق لي البتة ،
بحيث أن الرفض من قبلي كان نصيب سائر الذين كانوا يقترحون
تسليات على هذا القرار . واكـني احسست في تلك المرة ، على حين
غرة — كان يخيل إلي ان قوة سحرية لا يسبر غورها تجتاحني ،
وتدفعني بغتة الى إلقاء اقتراحي الذي ثنى عليه الجميع في هياج فرح
وحماسة لاهية — رغبة لا يمكن تفسيرها ، فكأن شيئاً خاصاً يمتظرني في
ذلك المكان بالذات . ونهض الجميع ، وقد اعتادوا ان يفعلوا دوماً
ما يرضيني ، وغدونا سوية الى تاباران حيث شربنا الشمبانيا ، فاذا فرح
مجنون تماماً يلتنا في بصورة مباغتة ، فرح يسـكاد ان يكون مؤملاً في

الوقت نفسه ، فرح لم اجره من قبل ابداً... رحت اشرب وأشرب ،
وانشد مثل الباقيين أغنيات بذينة مبعذلة ، واحس حاجة لا تقاوم تقريباً
إلى الرقص ، وإلى إطلاق صيحات الفرح ترى . وفجأة - كان يلوح
كأن شيئاً بارداً أو محرقاً قد استقر على قلبي - انتفضت بكل جسدي:
لقد كنت تجلس مع بعض الأصدقاء إلى المائدة المجاورة ، وكنت
تطلع إليّ بنظرة ملؤها الاعجاب والرغبة ، هذه النظرة التي هزني
دوماً حتى أعماق أعماقي . إن عينيك تعلقان بي من جديد ، للمرة
الاولى منذ عشرة أعوام ، بكل قوة كينونتك غير الواعية واللاهية .
وظفقت أرعش ، وكاد القدح الذي أحمله ان يسقط من يدي . ومن
حسن الحظ ان رفيق مائتي لم يلاحظوا اضطرابي الذي احمى في
ضوضاء الهتافات والموسيقى الصاخبة .

« وأصبحت نظرك محرقاً أكثر فأكثر ، نغمسني بكليتي في مجمرة
لاهية . لم أك أدري اذا كنت قد عرفتني أخيراً ، بعد طول انتظار ،
او اذا كنت تشهيني كامرأة لم تأخذها بعد بين ذراعيك ،
كأية امرأة أخرى ، كامرأة غريبة . وصعد الدم الى خدي ، فلم أعد أجيب
رفاقي الا في شرود وعدم انتباه . ومما لا ريب فيه أنك لاحظت مبلغ ما ألقت
نظرك في من الاضطراب ، فسألني بآشارة من رأسك لا يمكن أن يلحظها
الآخرون أن أتفضل بالخروج برهة الى الرواق ، ومن ثم دفعت ما استحق
عليك بصورة جهارية ، واستأذنت من أصدقائك ، وغادرت المكان ، ليس
دون ان أن تشير لي برأسك مرة أخرى معلناً إليّ انك في انتظار خارجاً .
ورحت أرعش ، فكأنني فريسة البرد أو الحمى ، ولم اعد استطيع ان أجيب
على الاسئلة التي تطرح عليّ ، ووجدتني عاجزة عن السيطرة على دمي الذي

يعلي ويفور . وأرادت الصدف أن يأخذ زنجيان ، في تلك اللحظة بالضبط ،
برقصة جديدة وغريبة ، وهما يضربان الأرض بأعقابها ، ويرسلان صيحات
حادة مرتفعة ، بحيث شخصت سائر الألبصار إليهما في اهتمام ، فاكتمت هذه
الفرصة ، وقلت لصديقي اني سأعود حالاً ، ولحقت بك .

« كنت تنتظري خارجاً في الرواق ، أمام المشلح ، فاستنارت نظرتك
عندما رأيته أقدم إليك ، وأسرعت للملاقاة . ورأيت في التوت واللحظة أنك لم تعرفني ، لم
تعرف طفلة الزمان الغابر وفنائه البريئة . لقد كنت تقدم يدك من جديد ،
عندما مددتها كي تمسك بي ، نحو امرأة تصادفها للمرة الأولى ، نحو امرأة
مجهولة منك . وسألتني في ألفة تامة : « أفلمت تستطيعين ذات يوم أن تمنجني ،
أنا الآخر ، ساعة من الزمان ؟ » كنت تحسبني واحدة من أولئك النساء اللاتي
يعن أنفسهن ليلة اثر ليلة ويلقن اجرهن لقاء ذلك . قلت : « بلى ! » كانت
تلك نفس « البلى » المرتجفة ، والراضخة بالرغم من ذلك ، التي أجابتك بها
في الطريق المظلمة ، قبل عشر سنوات ، الفتاة الذي كنت يومئذ .
وسألتني : « ومتى تستطيع ان تلتي ؟ » فقلت : « متى
تريد . » كنت لا أعرف الخجل أمامك مطلقاً ، فتطلعت إلي في شيء من
الدهشة ، فريضة لذات تلك الدهشة المجهولة من الريبة والفضول التي أبدتها
فيما مضى أيضاً تجاه قبولي السريع وسألتني في شيء من التردد : « أنكونين
حرة الآن ؟ » . فقلت : « نعم ، فلنذهب » .

« وأردت ان أغدو الى المشلح كي استرد معطفي .

« وفي هذه اللحظة تذكرت أن معطفي ومعطف صديقي مرتبطان بذات
البطاقة ، وأن هذه البطاقة في حوزته . كانت العودة اليه وسؤاله عنها ، دون
مبرر واضح ، مستحيلة تماماً ، كما أني لم أكن أريد ، من جهة أخرى ، أن

أفقت من قبضتي تلك الساعة التي استطيع ان اقضيها برفقتك ، هذه الساعة
المرجوة في حمية منذ زمن طويل . وهكذا فاني لم اردد ثانية واحدة ، بل
اكتفيت بالقاء وشاحي على ثوب السهرة الذي ارتديه ، وخرجت في الليل
المضب الرطب ، دون ان اهتم بمعطني ، ودون ان اعني بالسكانن الطيب
المطوف الذي كان يقوم بأودي منذ سنوات ، الرجل الذي ألحق السخريه
به تجاه اصدقائه ، إذ اهجره هكذا ، انا التي كنت عشيقته منذ سنوات ،
لدى اول طرفه عين يغمرني غريب بها . اواه ! لقد كنت اعني تماماً ،
في صميم نفسي ، مبلغ الغدالة ، ونكران الجميل ، والرجس التي ارتكبها
بحق صديق مخلص ؛ كنت ادرك اني أنصرف بصورة تحمل على
السخرية ، وأني اسيء الى الأبد ، بحنوني ، الى رجل يطفح طيبة نحوي
وأجرحه بصورة مميته ؛ كنت ارى بكل وضوح اني احطم حياتي .
ولكن ماذا يهمني من الصداقة ، ماذا يهمني من الوجود ، تجاه ذلك
الصبر الفارغ الذي يملكني كي احس مرة اخرى ملاسة شفتيك ، واسمع
كلمات حنانك تصعد نحوي ؟ هكذا قد احببتك ؛ اني استطيع ان اقول ذلك
حالياً بعد ان انقضى كل شيء ، بعد ان انتهى كل شيء الى الأبد . وإني
لأظن انك لو دعوتني وأنا ارقد على فراش الموت ، فلسوف أجد دوماً
القوة علي النهوض واللاحاق بك .

« كانت عربة تقف عند باب المرقص ، فأسرعنا الى بيتك . وهكذا سمعت
من جديد صوتك ، وتمنعت بقربك الحنون مرة أخرى ؛ لقد كنت سكرى ،
فريسة ذات السعادة الصببانية المضطربة ، مثلي في المرة الأولى بالضبط . بأية
حال من الاشراف لقد تسلمت ، من جديد ، السلام للمرة الأولى بعد عشرة
اعوام ... كلا ، كلا ، اني لا استطيع ان اصف لك ذلك ؛ لست استطيع

أن أصف لك كيف كانت عاطفة مضاعفة تمزج في باطني ، في تلك اللحظات ،
الماضي والحاضر بأسرها ، ولا كيف كنت لا أرى في كل هكذا . في كل هذا ، إلاك
وحدك دوماً . لم يطرأ على غرفتك الا تبدل طفيف ، فقد زاد عليها عدد من اللوحات ،
وبعض الكتب الجديدة ، وقطع غريبة من الاثاث هنا وهناك ، ولكن كل
شيء كان يوجه إلي ، بالرغم من ذلك ، تحية أليفة . وعلى منضدة العمل كان
الاناء ، وفيه الزهور ، زهوري ، تلك التي بعثت إليك بها في العشية بمناسبة
عيد ميلادك ، تذكر امرأة لم تعد تتذكرها بالرغم من ذلك ، لم تعد تعرفها
حتى وهي تقف حالياً الى جانبك ، تمسك يدك بيدها ، وتضغط شفتاك على
شفتيها . ولكني كنت سعيدة على أية حال إذ تحققت من أنك تعني بأزهارى ،
بحيث ان نفساً من حياتي ، عطراً من حبي ، يسبح هكذا ، بالرغم من كل
شيء ، فيما حولك ...

« أخذني بين ذراعيك ، وقضيت من جديد معك ليلة مفعمة باللذة .
ولكنك لم تعرفني ، حتى في عربي . استسلمت سعيدة لمداعباتك العليمة ،
ورأيت ان حبيبتك العاشقة لا تفرق أبداً بين الحبيبة وبين امرأة تباع نفسها ،
وانك تهب ذاتك بكليتك الى رغبتي ، بكل الخفة والاسراف اللذين يميزانك .
لقد كنت عذبا جداً ، حنوناً للغاية معي ، مع امرأة صادفتها في ملهى ليلي ؛
لقد كنت رقيق الشمل ، عطوفاً ، كثير العناية حتى الدرجة القصوى ،
ولكنك كنت تظهر في الوقت ذاته ، بالرغم من ذلك ، هوى عظيم في التمتع
بالمرأة ، هوى فريداً في نوعه . لقد أدركت مجدداً ، وانا سكرى بالسعادة
القديمية ، تلك الثنائية الفريدة في كائنك ؛ لقد لقيت مجدداً في شهواتيك ذلك
الهوى العقلي النير الذي جعل ، فيما مضى ، من الطفلة عبدة لك . ابدأ لم ألقَ عند
اي رجل ، في ملاطفاته ، ذلك النسيان المطلق للبرهة الراهنة ، ابدأ لم ألقَ

مثل ذلك الانصباب ، ومثل ذلك الاشعاع المنطلق من أعماق الكينونة
— هذا الاشعاع وذلك الانصباب اللذين سينطفقان في الحقيقة بعد ذلك ،
ويذوبان في نسيان لامتناه يكاد أن يكون لا إنسانياً .

« ولكني ، أنا الأخرى ، قد نسيت نفسي : أي شيء كنت عندئذ في
الظلمة ، الى جانبك ؟ الطفلة الملتهمبة التي كنت في الزمان الغابر ، أم ولدك ،
الغريبة ؟ أوام ! لقد كان كل شيء أليفاً إلي ، قريباً جداً مني ، ومع ذلك كان
كل شيء يرتعش بحياة جديدة ، في تلك الليلة الملتهمبة ! وكنت أضرع كي
لا تنتهي !

« ولكن الصباح جاء ، فنهضنا في ساعة متأخرة . دعوتني مرة أخرى
الى تناول طعام الافطار . فكحسبنا الشاي الذي حضره خادم غير منظور ،
بصورة خفية ، في غرفة الطعام ، وثرثرنا بعض الوقت . ولقد تحدثت الي من
جديد ، بكل تلك الألفة المصنوعة من الصراحة واللفظ ، والخاصة بك من
دون سائر الناس ، ومن جديد دون ان تطرح أية أسئلة لاموضع لها ، ودون
أن تظهر أي فضول تجاه شخصي بالذات . ولم تسألني اسمي ، ولا مسكني ، فأنا
لم أك بالنسبة اليك ، مرة أخرى ، سوى المغامرة ، المرأة المغمضة ، ساعة
الهرى الذي يتبخر في دخان النسيان دون أن يترك أثراً على الاطلاق . وأخبرتني
انك ستذهب الآن في رحلة الى افريقيا الشمالية تدوم شهرين أو ثلاثة أشهر ،
فرحت أرتجف في ملء سعادي ، لأن ضربات هذه السكبات قد شرعت تتردد
في اذني : « لقد انتهى كل شيء ، انتهى ، ولفك النسيان ! » . وكنت أرمي
بنفسي ، بكل طيبة خاطر ، على قدميك وأصيح : « خذني معك ، كي تعرفني
أخيراً ، أخيراً ، أخيراً ، بعد كل هذه السنوات » . ولكني كنت خجلي
جداً وجبانة حتى درجة بعيدة ، ضعيفة ومستعبدة أمام وجهك ، بحيث لم

أستطع أن أقول سوى هذه الكلمات : « يا للأسف ! » ، فاستقرت نظرتك عليّ وقد ابتسمت شفقتك ، وسألني : « أتشعرين حقاً بالعناء من أجل ذلك ؟ » .

« وفي هذه اللحظة تملكني اندفاع مباغت ، فتطلعت اليك طويلاً ، بثبات ، ومن ثم قلت : « ان الرجل الذي أحبه يسافر ، هو الآخر ، دوماً » ، ومن ثم شخصت اليك ، مثبتة أنظاري في حذقتيك مباشرة ، وقلت في وليجة نفسي ، وأوصالي جميعاً ترعش ، وكيونوني بأسرها متوترة بشدة : « الآن ، الآن سوف يعرفني . ولكنك لم تجبني بسوى ابتسامة ضئيلة ، ومن ثم قلت كي تعزيني : « بلى ، ولكن المره يعود دوماً » . فرددت عليك بهذه الكلمات : « بلى انه يعود ، ولكنه يكون قد نسي » .

« لاريب أن شيئاً غربياً ، شيئاً من عاطفة متأججة الأوار ، كان يمكن في طريقي بالتفوه بهذه الكلمات لانك نهضت تواء ، ورحلت تنظر الي في دهشة وكثير من الحنان . واخذتني من كعفيّ وقلت لي : « ان ما هو حسن لا يمكن ان ينسى ، وأنا لن أنساك » . وكانت نظرتك تغوص ، في الوقت ذاته ، حتى اعماقي ، تلوح كأنها تريد أن تأخذ انطباع صورتي . واذا أحسست بها تخترقني ، باحثة ، منقبعة ، ممتصة كل كيونوني ، فقد ظننت في تلك اللحظة أن السحر الذي كان يمنعك عن الرؤية قد انقطع . لسوف يعرفني ، لسوف يعرفني . كانت نفسي ترعش بكليتها لدى هذه الفكرة .

« ولكنك لم تعرفني . كلا ، انك لم تعرفني ، بله لم أك في أي وقت آخر غريبة عليك اكثر مني في تلك اللحظة ، وإلا لم تك تفعل أبداً ما فعلت بعد دقائق معدودات . لقد قبلتني ، قبلتني مرة أخرى في هوى جامع ، حتى اضطررت الى اصلاح الاضطراب الذي طرأ على زينتي . وبينما كنت أقف أمام

المرأة - آه ! لقد خيل اليّ انه يغمى عليّ خجلاً ورعباً ! - رأيك الى الوراء
مني تدفع في معطفي ، بصورة خفية ، بعض اوراق المقد الكبيرة . كيف
وجدت القوة العظيمة كي لا أصبح ، كي لا أصفحك في تلك اللحظة ، أنا التي
أحبك منذ طفولتي ، أنا أم طفلك . لقد كنت تمنقذني ثمن تلك الليلة ! اني لم
ألك ، في عينيك ، سوى عاهرة من تاباران ، ولا شيء اكثر من ذلك - وقد
نقذتني أجري ، بلى أجري ! لم يكن يكفي أن تنساني ، بل لم يكن بدّ
من ان تذاني أيضاً .

« جمعت أشيائي بسرعة . كنت أريد ان اذهب ، ان اذهب بأقصى السرعة .
كنت أنألم كثيراً . مددت يدي كي أتناول قبعتي ، وكانت على منضدة
الكتابة الى جانب الاناء الذي يحوي الزهور البيض ، زهوري ، فإذا حاجة
قوية ، حاجة طاغية لانقاوم ، تملكني في تلك اللحظة ، فجربت مرة أخرى
ان اوقظ ذكرياتك . قلت : « أفلمست تريد ان تعطيني واحدة من زهورك
البيضاء ؟ » . فأجبتني : « بكل طيبة خاطر » . وتناوات زهرة في الحال ، فقلت :
« ولكن ، لعل امرأة قد اعطتكم ايها ، امرأة تحبك ؟ » . وكان جوابك
كما يأتي : « ربما ، ولكنني اجهل ذلك . لقد اعطيت اليّ من شخص لا اعرفه ،
ولذا تأتي احبها » . فتطلعت اليك ، وقلت : « لعلها تأتي ايضاً من امرأة
قد نسيتمها ؟ » .

« فرفعت عينيك اليّ في دهشة ، بينما رحت بدوري انظر اليك في ثبات .
كانت نظرتي تهتم بك : « اعرفني ، اعرفني اخيراً ! » . ولكن عينيك كانتا
تبتسمان في ودّة دون ان تفهما . وقبلتني مرة أخرى ، ولكنك لم تعرفني .

« وتوجهت بسرعة نحو الباب ، لأنني احسست العبرات تصعد الى عيني ،
وهذه العبرات يجب ألا تراها . خرجت باندفاع عظيم ، حتى كدت

اصطدم في الرواق بجان ، خادمك . ولقد ذعر المسكين ، فقفز جانباً بسرعة كبيرة ، وفتح الباب بعنف كي يفسح لي مجال الخروج . واذ نظرت اليه ، خلال تلك البرهة - هل تسمع ؟ - خلال تلك الثانية الوحيدة ، إذ نظرت الى العجوز والدموع تترقرق في عيني ، رأيت لمعاناً مفاجئاً يعتلج في نظراته . خلال ثانية واحدة - هل تسمع ؟ - خلال تلك الثانية الوحيدة ، قد عرفني خادمك ، هو الذي لم يرتني منذ طفولتي .

« كنت أجنو امامه ، وكنت اقبل يديه ! انتزعت سريعاً من معطفي الأوراق النقدية التي جلدتني بها ، ودفعتها في يده . كان يرتجف ، وينظر اليّ في فرق . لعله قد فهمني ، في تلك الثانية ، افضل مما فهمتني أنت طوال وجودك . ان سائر الرجال ، جميعاً ، قد دلووني ، وكانوا جميعاً عطوفين عليّ ؛ وأنت ، أنت وحدك ، قد نسبتي ؛ أنت ، أنت وحدك ، لم تعرفني أبداً .

* * *

« إن ولدي قد مات . ولدنا ! ولم يعد لي حالياً أي انسان في العالم أحبه ، أي انسان إلاك . ولكن ماذا انت بالنسبة اليّ ، أنت الذي لم تعرفني أبداً ، انت الذي تمر الى جانبي مثلاً يمر المرء الى جانب الماء ، انت الذي تمشي عليّ وكأنك تمشي على حجر صلد ، انت الذي تذهب دوماً ، تتابع طريقك باستمرار ، وتتركني في الانتظار الأبدي ؟ لقد ظننت ذات يوم أني امسك بك ، أني امسك في هذا الصغير بالمكان الهارب الذي انت . ولكنه كان ابنك : لقد غادرني في الليل ، بقسوة ، كي يسافر ؛ لقد نسيتني ، وإن يرجع اليّ أبداً ! وهذا أنا وحيدة من جديد ، أكثر وحيدة مني في اي وقت مضى ، أنت أملك بعد اليوم شيئاً ، لا شيء مطلقاً ، سواك - لا ولد ، ولا سطر ، ولا كلمة ، ولا ذكرى . ولو أن إنساناً تفوه باسمي أمامك ، فإن هذا الاسم لن يعني إذن

شيئاً بالنسبة اليك . لم لا أموت اذن بكل طبيعة خاطر ، ما دمت لا اوجد
 بالنسبة اليك ؟ لم لا أغادر هذا العالم ، ما دمت قد غادرتني ؟ كلا ، يا حيي -
 إني اقول لك ذلك مرة أخرى - فأنا لا أهتمك ، ولست أريد ان تلي
 شكواي الاضطراب في مسكنك . لا تخش ان أضايقك كثيراً بعد الآن ،
 بل اصفح عني ، فقد كنت في أشد الحاجة الى الصياح ، ولو مرة واحدة ،
 بكل قوى نفسي ، في هذه الساعة حيث يتمدد ولدي هناك ، مهملاً لا حياة
 فيه . لم يكن بدء من ان أنحدث اليك مرة ، مرة واحدة ليس غير ، ومن ثم
 أعود الى دياجيري ، واصبح من جديد خرساء ، خرساء مثلما كنت دوماً
 الى جانبك . ولكن هذه الصبيحة لن تبلغ اليك ما حييت ، بل انك لن تعلق
 هذه الوصية الا عندما أصبح في عداد الأموات ، هذه الوصية التي تكتبها
 امرأة أحبتك اكثر من سائر النساء الأخريات ، ولم تعرفها أبداً ، امرأة لم
 تكف قط عن انتظارك ، ولم تنادها مطلقاً . لربما ، لربما ستناديني عندئذ ،
 ولكني سأكون ناكثاً لعمرك للمرة الأولى ، ما دمت لن أسمع نداءك في قبري .
 ولست أترك لك أية صورة ، ، او أي اثر عن هويتي مثلما لم تترك لي ، أنت ،
 شيئاً على الاطلاق ! أبداً لن تعرفني ، أبداً على مدى الحياة ! ذلك كان مصيري
 في الحياة ! فليكن اذن مصيري في الموت ايضاً ! اني لا أريد ان أناديك في
 ساعتي الأخيرة ، ولذلك أذهب دون ان تعرف اسمي ، أو تعرف وجهي .
 وإني لأموت دون أسف ، لأنك لا تحسن ، عن بعد ، أي ألم مبعثه موتي . لو
 كنت تقاوم لموتي ، لما استطعت اذن ان أموت !

« لم أعد استطيع الاستمرار في الكتابة ... إن رأسي لثقيل جداً ...
 وأعضائي توجهني ، والحمى تفتاني ... أظن اني سأضطر الى الاضطجاع ،
 حالاً ، في فراش الموت . ولربما سينتهي كل شيء قريباً ... لربما سيكون

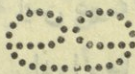
القدر رحيماً بي مرة ، فلا أرى الرجال السود يذهبون بولدي ... اني لم أعد
استطيع أن اكتب . وداعاً يا حي ، وداعاً ! اني اشكرك . لقد كان كل
شيء حسناً مثلما كان ، بالرغم من كل ما حدث ... ولسوف اشكرك عليه ،
حتى ألفظ نفسي الأخير ... اني لأشعر بالارتياح ، فقدرت لك كل شيء ، وأنت
تعرف حالياً - كلا ، انك تخمن فقط - كم احببتك ، ومع ذلك فإن هذا
الحب لا يترك على كاهلك أي عبء على الإطلاق . انك لن تفقدني - وهذا
يعزيني . ان أي تبدل لن يطرأ على حيواتك الرائعة النيرة ... وموتي لن يسبب
لك أية متاعب ابداً ... ان ذلك يعزيني ، يا حي !

« ولكن من ... من سيرسل لك حالياً ، في كل عام ، من أجل عيد ميلادك ،
ازهاراً أيضاً ؟ أواه ! ان الاناء سيكون فارغاً ، ولسوف يُقضى هكذا على
ذلك النفس الضعيف من حياتي ، تلك النفحة من كينونتي التي كانت تحوم
فيما حولك مرة في كل عام ! يا حي ، اصنع إلي ، أرجوك ... انه الرجاء الأول
والأخير الذي اتوجه به اليك ... حباً بي ، افعل ما أسألك إياه : في ذكرى
عيد ميلادك من كل عام - ذلك يوم يتذكره المرء بكل تأكيد - احصل على
بعض الازهار وضعها في ذلك الاناء . افعل ذلك ، افعل ذلك مثلما يطلب
آخرون ، مرة في السنة ، من الكاهن ان يتلو صلاة من أجل متوفية عزيزة .
إني لم أعهد أو من بالله ، ولست أطلب صلاة ؛ اني لا أو من الا بك .
ولست أحب سواك ، ولست اريد ان احيا الا فيك ...

« أواه ! يوم واحد في السنة ليس غير ، وفي سكون تام ، في سكون
مطلق ، مثلما حيت إلى جانبك ... اني انوسل اليك ، افعل ما أطلب منك ،
يا حي ... انه الرجاء الأول الذي اتوجه به اليك ، وهو الرجاء الأخير
ايضاً ... اني اشكرك ... اني احبك ... اني احبك ... وداعاً ... » .

* * *

أفلتت يدا الكاتب المرتجفتان الرسالة ، ومن ثم استغرق طويلاً في تفكير عميق . ان ذكرى طفلة بعيدة في الماضي ، طفلة كانت تسكن في جواره ، وذكرى فتاة ، ذكرى امرأة التقى بها في ملهى ليلى ، تصعد في ذهنه باضطراب وغموض . ولكن هذه الذكرى ظلت مهمة غير واضحة ، مثل حجر يلمع ويرتعش في قعر المياه دون ان يستطيع المرء سبيلاً الى تمييز شكله . ان اخيلة تتقدم في ذهنه وتراجع ، دون ان تشكل صورة جلية ابداً . انه يحرك في باطنه ذكريات حنوناً ، ولكن شيئاً لا يتضح وينجلي . كان يلوح له انه قد حلم بكل هذه الصور ، حلم بها كثيراً وفي عمق عظيم ، ولكنه لم يفعل سوى ان يحلم بها فقط . وعندئذ سقطت نظرتة على الاناء الأزرق الموضوع أمامه على منضدة العمل . . . لند كان فارغاً ، فارغاً للمرة الاولى في يوم عيد ميلاده . وانفض فرقا ، فكان باباً غير منظور قد فتح له على حين غرة ، وتياراً متجلداً من الهواء ، قادماً من العالم الآخر ، نفذ الى سكون غرفته . وأحس ان شخصاً ما قد توفي لنوه ؛ أحس ان حباً خالداً كان يكن هناك ؛ وازدهر شيء ما في أعماق أعماق نفسه ، ففكر في العاشقة غير المنظورة بصورة تسمو على المادة ، وبهوى جاحات ، مثلما يفكر المرء في لحن موسيقي مغرق في البعد . . .



في ضوء القمر

ستيفان زفانج

لم تستطع الباخرة ، وقد أعاقها العاصفة واعتزلت سبيلها ، أن ترمي مراسيها في المرفأ الفرنسي الصغير الا في ساعة متأخرة من الليل ، بحيث فأتنا القطار الذي كان يجب ان يعود بنا الى ألمانيا .

وهكذا لم يكن لي بدٌّ إذن ، بصورة لم تك في الحسبان ، من الانتظار طوال يوم كامل في مكان غريب عليّ ، وقضاء أمسية كاملة دون أية تسليمة أخرى سوى « ألحان السيدات » الحزينة ، في حفلة موسيقية تحييها إحدى الضواحي ، برفقة رفاق سفر جمعني بهم للصدفة وحدها .

وبدا لي جو قاعة طعام الفندق الصغيرة ، المملوكة بالزيت والمظلمة بالدخان ، ثقيلًا لا يطاق ، كما أن قذارتها العكرة قد بعثت النفور في نفسي ، هذا النفور الذي ضاعف منه كون شفتي ما برحتا تحتفظان بعد الرطوبة المالحمة التي تنشرها أنفاس البحر النقية الطاهرة . وهكذا فقد خرجت من الفندق ، متبعاً على غير هدى الطريق العريضة المنارة ، حتى بلغت مكاناً تعزف موسيقى البلدية فيه ، وألقيت بنفسي في ملء الموجة المتكاسلة التي ينشرها على طول الطريق متزهون يتزايد عددهم دون انقطاع .

ولقد أحسست الارتياح في البدء إذ رحت اندحرج على هذا الغرار ، بصورة آلية ، في تيار هؤلاء الناس الذين يرتدون ثياباً ريفية ، والذين كانوا

سواء لدي ، لا أبالي بهم ولا أعيرهم أي اهتمام . ولكن سرعان ما انقابني الضيق لكثرة ما شاهدت هذا المرور المستمر لقوم غرباء إلى جانبي ، بقمقماتهم التي لا مبرر لها ، وعيونهم التي تنفحصني في دهشة وعجب ، وبصورة مستغربة أو متضاحكة ؛ كنت متضايقاً من هذه الاحتكاكات التي تدفعني ، دون أن يبدو عليها أنها تفعل ذلك ، بعيداً دوماً ، متضايقاً من آلاف هذه الأنوار الصغيرة ، ومن قرع اقدام الجمهور غير المنقطع .

لقد كانت الرحلة متقلبة كثيرة الحركة ، فهي ما برحت تغلي في دمي بعد أشبه ما تكون بشعور من الدوار والنشوة العذبة ؛ كنت أحس دوماً ، تحت قدمي ، إنسلاال الباخرة وتأرجحها ، فتلوح التربة لي متحركة مثل صدر يتنفس ، والطريق كأنها تريد أن ترتفع حتى تبلغ السماء .

وفجأة ، انتابني الدوار تجاه كل هذه الضوضاء وهذا الدوران ، فأنحرفت كي أخلص بنفسي منها في درب جانبي لم انظر الى اسمه ، ومن ثم في درب أضيق تلاشت فيه تلك الضوضاء المجنونة شيئاً فشيئاً . وطفقت اتابع طريقي بعد ذلك في تيه هذه الأزقة التي تتشعب مثل الأوردة ، والتي تزداد إظلاماً بمقدار ما أبتعد فيها عن الساحة العامة . ان الأقبواس الكبرى للصمبائح الكهربائية - هذه الأقباس الخاصة بالجادات العريضة - لا تلهب ههنا ، والمرء يستطيع أخيراً ان يشاهد من جديد ، الى الأعلى من الضوء الضئيل ، النجوم وسماء مغمورة بالسواد من اقصاها الى اقصاها .

كنت قريباً من المرفأ بكل تأكيد ، في حي البحارة . أدركت ذلك من رائحة السمك المتعفن ، ومن ذلك العبيق الضارب إلى العذوبة ، المصنوع من النباتات البحرية والعفونة ، الفائح من الأشنيات المحمولة بالمد إلى الشاطئ ، ومن هذه الرائحة الخاصة المبحولة من عطور فاسدة ومن غرف فاسدة

الهواء ، التي تسود مرهقة في هذه الزوايا من المدينة ، حتى تأتي العاصفة الكبرى
بأنفاسها المطهرة .

كانت هذه العتمة المترددة تلذ لي ، وكذلك تلك الوحدة التي لم تك في
الحسبان . تماهلت في المسير قليلاً ، وقد شرعت الآن أمعن النظر في كل درب بعد درب ،
لأن كلاً من الأزقة يختلف عادة عن جاره ، فالهدوء يخيم ههنا ، والغزل
يطغى هناك . ولكن الأزقة كانت مظلمة جميعاً ، لا يتردد فيها الا ضجيج اصم
من الموسيقى والأصوات ، ينبعث من اللامنظور ، من أحضان أقيمتها بصورة
سرية وخفية حتى ليعجز المرء ، الا بصعوبة جمّة ، عن تخمين المنبع تحت الأرضي
الذي تصدر عنه . ذلك ان سائر هذه الدور مغلقة لا يطارف فيها الا نور ضئيل
أحمر أو أصفر ليس غير .

إني أحب هذه الأزقة في المدن الغربية ، هذه السوق غير البريئة لسائر
العواطف والهواء ، هذا التكموم السري لمختلف المغريات التي نفوي البحارة ،
هؤلاء الذين يأتون الى هنا ، وقد أعيتهم ليالي الوحدة التي قضوها في البحار
البعيدة الخطرة ، كي يرضوا في ساعة قصيرة شهوانية أحلامهم المتعددة .

يجب ان تختبئ هذه الأزقة الصغيرة في بقعة ما من حضيض المدينة
الكبرى ، لأنها تقول بكل وقاحة وصفاقة ما تخفيه الدور النيرة ذات الزجاج
البراق ، حيث يسكن أناس الطبقة الراقية ، تحت ألف قناع وقناع . ههنا
تتردد الموسيقى وتجذب الناس الى غرف صغيرة ؛ ههنا يعد السينمائيون ،
بإعلانهم الصاخبة ، بروائع لامثيل لها ؛ ههنا تختفي عن الأنظار مصابيح
صغيرة مربعة تحت الأبواب ، وتوجه اليك بالإشارات دعوة واضحة جليلة
مصحوبة بتحية خفية ؛ ههنا يلعب ، من خلال فرجة باب مسدود ، الجسد
العاري الذي ألتفت عليه أسماح مذهبة الخيطان .

وفي المقاهي تزقق أصوات السكّيرين ، وترتفع ضوضاء الخصومات بين
المقاصرين : ان البحارة يزجرون متضا حكين عندما يلتقون في هذه الأماكن ،
وتلهب انظارهم الكثبية بما لا يحصى من الوعود ؛ ذلك ان كل شيء يوجد
ههنا ، النساء والقمار ، السكر والمسرح ، المغامرة الدنيئة والمغامرة السامية
على حد سواء .

ولكن كل هذا يعتصم في الظل ، كل هذا قد أرتجت عليه ، خفية ،
مصاريح النوافذ المغلقة بصورة مرائية صفيقة ، كل هذا لا يجري الا في داخل
الدور ، بحيث أن ذلك الحذر الظاهري لمضاعف الاثارة بفتنة السر الذي
يحوطه ، وسهولة البلوغ اليه والتمتع به .

ان هذه الازقة متائلة في هامبورغ ، او كولمبو ، أو لاهافان ؛ إنها هي
ذاتها في كل مكان ، مثلما هي الشوارع الكبيرة حيث تسود الأبهة ، لأن قم
الحياة وأسافلها متشابهة الصورة في كل مكان . هذه الازقة الوقحة ، المثيرة
بما تكشف عنه اللثام ، الفاتنة بما تلقي عليه قناعاً وتخفيه ، هي البقايا الخيالية
الأخيرة من عالم اضطربت حواسه ، حيث تنطلق الغرائز من قيودها بقسوة
ليس ما يلجمها ، هي غابة مظلمة من الضواء ، أجمة تعج بالحيوانات المتوحشة .
ان الحلم لينطلق ههنا على هواء دون ما يعقله .

ولقد وجدتني أسيراً ، بصورة مباغتة ، في إحدى هذه الازقة .

كنت قد تبعته جنديين يتعرجر سيفاهما على بلاط الطريق المصقول
ويرسلان رنيناً مسعماً ، واذا بعض النساء ينادينها من أحد المقاصف ، وهن
يضحكن ، ويهتفن بها ببعض الملح الفظة ، فطرق أحدهما النافذة ، ولكن
صوتاً ساخطاً تقيماً من مكان ما بعض الشغائم الكبيرة ، فتابع الجنديان طريقهما
على أثرها . ونأت أصدااء الضحك عني شيئاً فشيئاً ، وسرعان ما غابت أصوات
الجنديين أيضاً عن سمعي .

أصبحت الطريق خرساء من جديد . وكانت بعض النوافذ تطرف
بغموض في الضياء الملقع الذي يرسله القمر الشاحب اللون ، فتوقفت عن المسير ،
ورحت أنتفس عميقاً هذا السكون الذي بدا لي غريباً جداً ، لأن اللذات
والأخطار تدوي ورائه ، بكل تأكيد ، مثل سرّ دفين .

أحسست بكل وضوح أن هذه الوحدة كاذبة ، وأن ريقاً من فساد هذا
العالم محضون تحت الانخرة العكرة التي تملأ هذه الطريق . ولكني بقيت
هناك ، جامداً ، انظر في الفراغ ، وقد فقدت كل شعور بأنني في هذه المدينة
أو هذه الطريق ، ولم أعد أعرف اسمها ولا اسمي ، بل أحس فقط أنني غريب
في هذا المكان ، ضائع بصورة رائعة في المجهول ، فاقد لكل غاية أو هدف ،
بعيد عن كل رسالة أو علاقة بهذا المحيط ، وإن كنت أشعر ، بالرغم من
ذلك ، بكل هذه الحياة المظلمة من حولي ، بمثل كمال شعوري بالدم الذي يسيل
في جلدي الخاص . كنت أجرب فقط الاحساس بأن شيئاً مما يجري هناك لم
يجعل لي ، وإن كل شيء ماك لي مع ذلك ، هذا الاحساس الطوباوي بأنني
أعيش الحياة الأعمق والأصح في وسط الأشياء الغريبة ، هذا الاحساس
الذي يؤلف جزءاً من ينابيع كينونتي الباطنة الأكثر حيوية ، والذي يعملكني
دوماً ، في المجهول ، أشبه ما يكون بلذة فائقة لامتيل لها .

وهذا أنا اسمع بغتة ، بينما كنت أقف هناك مرهفاً السمع ، في الطريق
المقفرة ، وكأنني أتوقع حدثاً ما ، شيئاً يخرجني من هذا التعامل في الفراغ
الذي يشبه حال الروبصمة الى حد بعيد ، أغنية ألمانية تنشد بصورة فظة ، وقد
خفف البعد أو جدار يعترض سبيلها من ارتفاعها .

كان صوت امرأة يعني ، بصورة سيئة جداً في الحقيقة ، ولكن الغناء كان
لحناً ألمانيا على أية حال بالنسبة إلي ، شيئاً ألمانياً في هذه الزاوية الغريبة من

العالم ، ولذا فقد وجدت في هذا الذئيد نبوة أخوية بصورة غريبة حقاً .
لقد كان تحية لي ، مها كان مصدره ، الكلمة الأولى ، منذ أسابيع عديدة ،
التي تبشرني بوطني .

وتساءلت بيني وبين نفسي : من يتكلم ، ههنا ، لغتي ؟
أي شخص يحس نفسه مجحولاً ، من جراء ذكرى باطنة ، على ترديد هذه
الأنغية البائسة خارج قلبه ، في هذه الدرب الضائعة المفسودة ؟
وسعيت لاكتشاف مصدر الصوت ، منقباً في مختلف الدور الغارقة هناك
في نصف رقاد ، بنوافذها المرتجة المصاريع التي يطرف وراءها ، بلؤم ، نور
ضئيل ، أو تهتز في بعض الأحيان إشارة مقنعة تلوح بها يد مجهولة .

كانت كتابات صارخة وإعلانات صاخبة معلقة في الخارج ،
والكلمات : « نبيذ ، ويسكي ، جعة » تدل هنا وهناك على مقصف محرم .
ولكن كل شيء كان مغلقاً ، يدفع المار عنه ويدعوه في وقت واحد .
بينما تتردد بضع خطوات بعيداً في الطريق ، كان الصوت يرتفع دوماً ، هذا
الصوت الذي يرسل الآن غناؤه طناناً أكثر من ذي قبل ، ويقترب مني بصورة
مستمرة في الوقت ذاته . وهذا أنا أكتشف الدار التي يصدر عنها الغناء ،
فترددت برهة ، ومن ثم تقدمت نحو الباب الداخلي الذي تقنعه ستارة بيضاء .
ولكن ما أن انحنيت في عزم أنوي الدخول حتى رأيت شيئاً حياً ينبثق
على حين غفر في ظل الرواق ، شبحاً يقف هناك بالمرصاد بكل تأكيد ،
ملتصقاً بالزجاج ، منتفضاً فرقاً ، قد شجب محياه المغمور بحمرة المصباح
المعلق فوقه . وهذا رجل يتأملني بعينين محمقتين ، ويهمس ببعض اعتذار
مبهم ، ومن ثم يتلاشى في عممة الطريق . كان ذلك الأسلوب في اللقاء التحية
غريباً حقاً ، فنظرت في اتجاهه ، فلاح أثره لي يتحرك بعد ، في ظل الزقاق

الممتد بعيداً ، لكن بصورة غامضة غير واضحة . وكان الصوت نفسه يتردد في الداخل دوماً ، لكن أصغى منه قبلاً فيما خيل إلي . ولقد اجتذبتني هذا الصوت بقوة ، فدفعت المزللاج ودلفت إلى الداخل .

سقطت الكلمة الأخيرة من الأغنية في السكون ، وكأن سكيناً قد اقتطعتها ؛ فأحسست ، في هيبة ، فراغاً أمامي ، أحسست الخرس والعداوة ، فكأنني قد حطمت شيئاً ما .

ولكن نظري اكتشف ، شيئاً فشيئاً ، ما في القاعة التي تكاد أن تكون فارغة : مقصفاً ومائدة ، وهما فيما يبدو بجلاء مقدمة غرف أخرى ، تقع إلى الورا منها ، وتكشف حالاً ، بابوابها المسددة ، وضياء مصابيحها المقلعة ، وأسرتها العريضة ، عن الغاية الحقيقية منها .

في المقدمة ، كانت فتاة متعبة ، مصبوغة الوجه بالالوان ، تعتمد بمرفقها إلى المائدة ؛ وإلى الورا ، عند المقصف ، كانت صاحبة المكان ، وهي امرأة بدينة يضرب لونها إلى الرمادي الوسخ ، تقف برفقة فتاة أخرى لم تلك قبمحة مطاقاً . ووقعت تحيتي في الفراغ ثقيلة مرهقة ردّ عليها بعد فترة صدى ضئيل ، فأحسست بالضييق لقدومي على هذا الغرار إلى تلك العزلة ، إلى هذا السكون المتوتر والكثيب للغاية ، حتى كدت أعود أراجي بكل طيبة خاطر . ولكنني لم أجد ، في ارتباك ، أية حجة تدعوني إلى الخروج ، بحيث اتخذت مكاني في خضوع إلى المائدة الأمامية .

وإذ تذكرت الفتاة واجبها الراهن ، فقد سألتني عما أريد أن أشرب ، فعرفت حالاً ، من قسوة لغتها الفرنسية وثقلها ، أنها ألمانية الأصل .

طلبت قدحاً من الجمعة ، فذهبت كي تأتني به ، وقفلت راجعة في اتجاهي بعكس المشية المقلعة التي تفصح الالمبالاة أكثر مما يفعل جفاء عينيها الناعستين

في تكاسل تحت أجفانها ، فكانها ضوءان في سبيل الانطفاء . ووضعت قدحا
آخر لها ، بصورة آلية تماماً ، الى جانب قدحي ، كما هي العادة في مثل
هذه الأماكن .

وعندما شربت نخب صحتي ، أمرت نظرتها الفارغة علي ، وهكذا
استطعت أن أتأملها . كان حياها جميلاً بعد في الحقيقة ، منتظم السماء ، لكنه
أصبح مبتذلاً وأشبه ما يكون بقناع جامد ، وذلك بفعل شيء من الاعياء
الباطن بكل تأكيد . كان خالياً من كل ما ينبض بالحياة ، ثقيل الأجفان ، مهمل
الشعر ، بينما الخدان الملطخان بمساحيق رديئة النوع ، فقد بدأ يتهدلان
ويغوران ، وطفقا يساقطان في غضون عريضة حتى الفم .

وكذلك كانت ترتدي ثوبها في اermal ؛ وكان صوتها أبح محروفاً
بتأثير التبغ والجمعة . ولقد خمنت في كل ذلك كأننا متعباً ، لا يعيش الالفعل
العادة وحدها ، وبصورة آلية خالصة . وطرحت عليها سؤالاً ، في تردد
كثير ممتزج بالرهبة ، فردت علي دون أن تتطلع إلي ، بنغمة لامكترثة بليدة ،
دون أن تحرك شفيتها تقريباً . فأدركت ان وجودي غير مرغوب فيه .

وتفاءبت صاحبة المكان الى الورا من المقصف ، بينما كانت الفتاة الاخرى تجلس في
إحدى الزوايا ، وتنظر الي كأنها تنتظر مني أن أدعوها . وددت ان اذهب ،
ولكن كل شيء في قد أصبح ثقيلاً ، فأنا أجلس هناك ، في هذا الجو العكر
الثقيل ، أترنخ خبلاً مثل البحارة تماماً ، مقيداً بالفضول والاشمئزاز معاً ، لأن
تلك اللامبالاة كانت تملك جانباً مثيراً يربطني ويقيديني .

وانتفضت علي حين غرة ، وقد ذعرت لقهقهة صاحبة ارتفعت الي جانبي .
وتذبذبت الشعلة في الوقت نفسه ، ففهمت من تيار الهواء الذي حدث أن
شخصاً ما قد فتح الباب الى الورا مني .

وهتف صوت المرأة الجالسة الى جاني بالالمانية ، يقول بلمجة
ساخرة مؤلمة :

— هذا أنت أيضاً ! إنك تزحف بعد حول المنزل ، أيها البخیل الميجوز ؟
هيا ، ادخل اذن ، فلن أفعل شيئاً بك .

ألتفت قبلاً نحو تلك التي زحرت بهذه التحية بحميا عظيمة فكأن النار
تشتعل في جسدها ، ومن ثم استدرت نحو الباب .

عرفت الشيخ المترنح ، وعرفت النظرة المفعمة ذلاً التي تفيض من عيني
الرجل الذي كان متعلقاً بالباب قبل برهة من الزمن . كان يمسك بقميصه في يده ،
مذعوراً ، مثل شحاذ ذليل ، ويرتعش بفعل قهقهات المرأة ، التي تهز جسدها
بأسره بصورة متلاحقة مثل نوبة من الصرع ، بينما طفت صاحبة المكان ، الى
الوراء ، تردد أصداها بوشوشات سريعة النبرات .

وعندما اقترب ذلك الشيطان المسكين بخطى هيابة متسللة ، أصدرت اليه
أمرها قائلة :

— اجلس هناك ، مع الفرنسية . إنك ترى جيداً أني اجلس برفقة سيد .
رمت هذه الكلمات بالالمانية ، فطفقت صاحبة المحل والفتاة الأخرى
تضحكان ملء شديهما ، وإن لم تكونا تستطيعان ان تفهما مما قالت الالمانية
شيئاً . لكن يبدو أنهما كانتا تعرفان جيداً القادم الجديد .

صاحت برفيقتهما ، وهي تضحك :

— اعطه شمبانيا ، يا فرنسواز ، زجاجة من النوع الاثمن .

ومن ثم توجهت اليه ، قائلة في سخرية لاذعة :

— اذا كنت تجد هذه الزجاجة ثمينة جداً ، فأبق خارجاً ، أيها البخیل
البائس ! إنك تريد ان تلتهمني مجاناً ، إني أعرف ذلك . إنك تريد كل
شيء مجاناً !

وبدا الشيخ الطويل كأنه ينقسم جزئين بفعل هذا الضحك القاسي ،
وتكوم ظهره على هيئة الكرة ، فكأنه يريد ان يتمثل بالكلب المتذلل ،
وارتعشت يده عندما أمسك بالزجاجة ، ودلق بعض محتوياتها على المائدة وهو
يصب منها في كأسه . لم تك نظراته تستطيع — وهي تريد دوماً ان ترتفع
الى محيا المرأة — أن تغادر الأرض ، فهي تثقل فوق بلاط الغرفة دون
انقطاع ، وكأنها تنامس شيئاً وتفتش عنه عبثاً .

وعندئذ رأيت للمرة الأولى بكل وضوح وجلاء ، تحت النور الذي ينثره
المصباح ، ذلك الوجه المتلف ، المهزول والشاحب ، والاشعار الندية النادرة المتبعثرة
على قحفه المتعظم ، والمفاصل المترخية فكأنها معكسرة ، رأيت رؤس انسان قد
غادرت كل قوة ، ولكنه لم يخلُ من بعض الشر رغمًا عن ذلك .

كان كل شيء فيه منحرفاً ، منهطفاً ، ذليلاً ؛ وكان بريق شرير يخرق
عينيه اللعين نبح أخيراً في رفقها مرة ، ولكنهما لم تلبثا ان تخفضتا من جديد ،
بأقصى السرعة ، في دغر وهلع .

هتفت بي الفتاة في سلطة ، معبرة عن نفسها بالفرنسية :

— لا تقلق له .

وامسكت بذراعي في عنف ، فكأنها تريد ان تقلبني ارضاً ، وأضافت :

— انها قهوة قديمة بيني وبينه ، لا يعود تاريخها الى اليوم مطلقاً ...

وصاحت به من جديد ، واستأنها تلمع بياضاً ناصعاً فكأنها على
أهبة أن تعضه :

— بلى ، اسمع ايها الخبيث العجوز . إنك تريد ان تعرف ما قلت . لقد

قلت إنني أربي بنفسه في البحر بالأحرى من اللحاق بك .

واخذت صاحبة الحانة والفتاة الأخرى تضحكان من جديد في صخب

وغباوة . كان يلوح ان تلك تسليمة معهودة عندهما ، دعابة يومية تتكرر دون انقطاع . ولكن القرف اجتاحني عندما رأيت كيف أسرعت الفتاة الأخرى اليه على حين غرة ، وطفقت تلاطفه بمحمان كاذب ، فارتعش هو لمداعباتها دون ان يجد الجرأة على صدها . وتملكني الرعب عندما رأيت نظرته المترددة تلاقي نظرتي ، نظرته المصنوعة من الخشمية ، والارتباك ، والغذل . وارتجفت أوصالي عندما رأيت المرأة الجالسة الى جانبي ترسل البروق من عينيها ، وقد خرجت أخيراً عن خمولها في خبث عظيم حتى لترتجف يداها . ألفت بعض المال على المنضدة وأزمعت الرحيل ، ولكنها رفضت ان تتناول المال الذي القيمت به اليها .

قالت :

— اذا كان يضايقك ، فاني ارمي به خارجاً ، هذا الكلب العجوز . إنه ههنا كي يطيع ! هيا اشرب قدحاً آخر معي .

واقتربت مني في نوع من الحنان المبالغ الموهوس الذي لم يك — لقد عرفت ذلك حالاً — إلا ادعاء خالصاً تريد منه أن تعذب الرجل الآخر . كانت تنطلع إليه بصورة منحرفة لدى كل من حركاتها ، فأحس ألماً مبرحاً إذ أرى كيف يأخذ الرجل المسكين بالارتعاش لدى كل حركة تقوم بها فكانت تياراً كهربائياً يخترق أوصاله . كنت أنطاع إليه وحده وأقشعر إذ أحس الآن غضباً محتاجاً ، مشوباً برغبة وهوى عظيمين ، يغلي في كينونيته ويفور ، كي يتلاشى سريعاً كلما أدارت رأسها نحوه . وهذه هي حالياً اقرببة كل القرب مني ، أسس جسدها الذي يرتجف بفرحة هذا اللهو الشريرة . كان يحياها اللفظ ، العابق برائحة المسحوق الرخيص ، وكذلك رائحة جسدها المعطن ، يرسلان الهلع في قلبي ، فتناولت سيجاراً كي احفظها بعيدة عن وجهي ، وبينما طففت

نظرتي تطوف أرجاء المائدة تفتش عن عود ثقاب عليها ، اصدرت المرأة امرها الى الرجل ، قائلة في قسوة وعنف ، :

— هاتِ ناراً !

وارتعت اكثر من الغريب لهذه النية الفظة في حمله على خدمتي ، فجهدت حالاً في الحصول على النار بنفسي .

ولكنه كان يتقدم نحوي اثناء ذلك ، وقد حنته هذه الكلمات التي وقعت عليه مثل لسع السياط ، منحرف الخطى ، مترخ الساقين ، ووضع قداحته سريعاً على المنضدة ، وكأنه يتعرض لخطر الاحتراق لدى الاحتمكك بها . والتقت نظرتي بنظرته طوال ثمانية واحدة ، فقرأت في عينيه خجلاً عظيماً ونقمة مزبدة . إن هذه النظرة المستعبدة قد لمست الكائن الانساني في ، لمست الأخ في شخصي ، فأحسست الانحطاط الذي تسببه المرأة ، وقاسمته خجله . قلت بالالمانية ، الأمر الذي جعله ينتفض :

— أشكرك كثيراً . كان يجب الاتزعج نفسك .

ومددت له يدي ، فتردد طويلاً في البدء ، ومن ثم أحسست احتكاك اصابع رطبة متعظمة ، وضغطاً مختلجاً مفاجئاً من الامتنان ، صدر عنه على حين غرة ، وبصورة لم تكن في الحسبان أبداً . ولمعت عيناها برهة وهو يتطلع الي ، ومن ثم اختفيماحت اجفانه المرتخية . وأردت ، تحدياً ، أن أدعوه الى الجلوس إلى مائدتنا ، ومما لاريب فيه ان اشارة الدعوة قد مرّت بيدي ، لأن المرأة أسرعت فأمرته بسلطان ، قائلة بلمجة تعودت أن تطاع :

— ارجع واجلس هناك ، ولا تزعجنا .

وتملكني الاشتزاز بغتة تجاه هذا الصوت العاض ، وتجاه هذه القسوة المعوحشة .

ما هذه الحانة الداخنة ، وهذه العاهرة المقرقة ، وذلك الأبله ، وذلك الجو
المشبع بالجمعة ، والتبغ ، والعطر الرديء ، بالنسبة إلي ؟
احسست الحاجة الى الهواء ، فمددت يدي بالمال الى المرأة ، ونهضت عن
مقعدي ، وشرعت أترجع في عزم في اتجاه الباب ، فإذا هي تقترب مني من
جديد مداعبة مغرية .

كنت خجلاً من الاشتراك في إذلال كائن إنساني ، فأفهمت المرأة بجلاء ،
بثبات تراجعني ، ضعف السلطان الذي تملكه على حواسي .

وعندئذ فارت دماؤها في خيث ، وارتسم غضن فظ حول فمها ، ولكنها
تماكنت نفسها عن التفوه بالكلمة التي خطرت لها . التفتت اليه في حقد لم
تجرب ان تخفيه ، فأسرع يضع يده في جيبه - متوقفاً منها أسوأ الأمور ،
مذعوراً بوعيدها - وتناولت أصابعه المرتعشة كيساً من النقود .

كان يخاف الآن ، فيما يبدو بكل وضوح ، من البقاء وحيداً معها ، فلم يستطع
ان يحل عقدة الكيس في اضطرابه . كان ذلك كيساً محاكاً ومزيناً بلا آلي
زجاجية ، كتلك الأوكياس التي يحملها الفلاحون والفقراء . وكان من السهل
ان يلاحظ المرء انه لم يعتد إعطاء المال بسرعة ، على تقيض البحارة الذين
يخرجونه من جيوبهم بحركة سريعة ، وبلقون به على المائدة بحيث يتردد
رنينه عالماً ، بل كان من البين انه اعتاد ان يعده بعناية فائقة ، وان يزن القطع
طويلاً بين أصابعه .

قالت في سخرية ، وهي تتقدم منه خطوة :

- اشد ما يرتجف من اجل قروش المذهبة ! ألم تنجح في إخراجه ؟
انتظر قليلاً !

فترجع القهقري مذعوراً ، اما هي فقالت إذ رأت ذعره ، وهي تهز

كتفها وتنطلع اليه في استنزاز يفوق الوصف .

— لن آخذ شيئاً منك ؛ إني ابصق على مالك . إني اعرف جيداً أنها معدودة ، قروشك الصغيرة الطيبة ، وأنه يجب ألا يضيع واحد زائد منها في هذا العالم . ولكن الحذر قمين قبل كل شيء . بهذه الأوراق الصغيرة التي خطتها هنا ، كي لا يسرقها إنسان قط !

وضربت على صدره بصورة مفاجئة ، وهي تنفوه بهذه الكلمات الأخيرة .

والواقع أنه رفع أصابعه ، شاحباً متردداً ، الى موضع ما من ثيابه ، مثل المقلوب الذي يشد بيده على صدره ، اثناء نوبة من الخناق ، وتلمست تلك الأصابع ، دون وعي منها ، العنق الخفي ، ومن ثم سقطت على جانبي الجسد مطمئنة البال .

قالت المرأة ، وهي تبصق على الأرض :

— أما البخيل !

ولكن هذا احمرار مباغت يمر على محيا المذهب المسكين ، فيرمي الكيس بعنف الى الفتاة الأخرى التي اطلقت صيحة مدعورة في البدء . ومن ثم انفجرت ضاحكة في صخب عظيم ، بينما مرّ هو من أمامها ، عدواً ، متجنباً نحو الباب ، مجتازاً عتبة وكأنه يفرّ من وجه حريق هائل .

ظلت الفتاة برهة أخرى واقفة في مكانها تنتمع عيناها فحة وخبثاً ، ومن ثم سقطت أجفانها متراخية ، وأفسح نور جسدها المكان للاعياء من جديد ، فبتت في دقيقة واحدة وقد شاخت وأثقلها التعب المرهق . إن شيئاً ما متردداً غاضباً قد خفف من حدة المظرة التي ألفتها علي ، وهي تقف هناك أشبه بامرأة سكرى تفيق من سكرها ، يجتاحها بصورة مبهمّة إحساس من الخجل والمذلة جميعاً .

قالت:

— لسوف يبكي الآن على ماله ، ولربما اسرع إلى الشرطة يشكو لها أننا سرقناه ... واسوف يكون ههنا غداً ، ولكنه لن يحصل علي . الجميع ، أما هو فلا ! ...

وتقدمت من المقصف ، وألقت بعض القطع المالية عليه ، ومن ثم ابتلعت قدحا آخر من الخمر دفعة واحدة ، فاشتعل حريق من الحب مجدداً في عينيها ، لاح كأنه مضطرب بدموع النقمة والحجل . لكن الاشتزاز الذي أحسسته تجاهها اعترض سبيل رثائي لها .

قلت بالألمانية :

— طاب مساؤكم !

وذهبت ...

فأجابني صاحبة الحانة بالفرنسية :

— طاب مساؤك !

ولم تلتفت ، بل اكتفت بأن ضحكت في ضوضاء واستهزاء .

كانت الطريق تهيج ، عندما خرجت ، بالأخيلة والظلال ، والسماء تموج بظلمة كثيفة مرهقة الثقل يتخللها ضياء القمر ، عن بعد ، من خلال السحب المتراكمة ورحلت أنفوس في نهم هذا الهواء الفاتر ، لكن القوي بالرغم من ذلك ، وأفكر باختلاف المصائر وتنوعها ، فتحلّ دهشة عظيمة مكان الرعب الذي كنت أحس به . وشعرت من جديد — وذلك احساس يجعّلي أبداً سعيداً حتى درجة البكاء — ان مصيراً يقف دوماً بالمرصاد خلف كل من الواح الزجاج ، وان كل باب يفتح أمام حدث انساني ما ، وان تنوع هذا العالم حاضر في كل مكان ، وان الزاوية الأدنى من هذه الأرض يمكن ان تحوي

حياة معتلجة عنيفة ، مثلما يتضوأ لمعان الخنافس على سطح العفونة والافذار .
كان الاشتيزان الذي بعثه في هذا اللقاء قد أضحي بهيداً عني ، والتوتر
الذي احسسته ينتهي بي حالياً إلى إعياء عذب سعيد ، يطمح إلى تحويل هذا
المشهد حلاًماً أسبغ عليه شيء كثير من المثالية .

وتلفت حولي دون ارادة مني ، تفتش نظرتي المتسائلة عن طريق العودة
خلال هذا التيه من الأزقة الملتوية . ولكن هذا خيال ينبثق قريباً مني على حين
غرة - مما لا ريب فيه أنه اقترب مني دون ضوضاء ، وبهدوء عظيم حتى
لم أشعر به .

قال ، وقد عرفت فيه حالاً ذلك الصوت الذليل :

- اعذرني ، ولكن أظن أنك لا تعرف طريق العودة ، هل تستطيع ...
أن ادلك على دربك ؟ إن السيد يسكن ...
فذكرت اسم فندقي .

فأضاف الرجل في الحال :

- إني أرافقك ... إذا سمحت بذلك .

ذعرت ، وتملكني خوف شديد . ان الخطوة المزلقة ، وكأنها شبحية ،
إلى جانبي ، غير المشهور بها تقريباً ، لكن القريبة جداً مني بالرغم من ذلك ،
وهذه الظلمة التي تكتنف شارع البحارة ، وذكري ما قد رأته انوي ، ان
هذه الأمور جميعاً قد أفسحت في نفسي المكان شيئاً فشيئاً لشعور مهم ناعس
لا يقاوم ، لكنه ليس على شيء من الجلاء أيضاً . كنت أحس كم تعميح
عيننا الرجل ذليلتين ، حتى دون أن أراهما ؛ وكنت لاحظ ارتعاش شفتيه ؛
وكنت أعرف انه يريد أن يجاذبي أطراف الحديث ، إنما لا أفعل شيئاً كي أساعده
على ذلك أو أمنعه عنه ، لشدة ما كانت الحال التي تملكني تقرب من الخبل ،

يختلط فيها فضول القلب وخمول الجسد ويتفوق كل منهما على الآخر بصورة متناوبة .

وسئل صاحبي مرات عديدة .

أدر كنت الجهد العديم النفع الذي يبذله كي يتكلم ، ولست أدري أية قسوة قد انتقلت بصورة عجيبة من تلك المرأة الي ، قسوة تغتبط برؤية الذل والبؤس الأخلاقي يتصارعان فيه على هذا الشكل . وتركت هذا السكون الأسود الثقيل يثقل فيما به : بدلاً من أن أسهل عليه الأمر ، فظلت خطواتنا نتردد طوبلاً على بلاط الشارع ، تنزلق خطاه بهدوء فكأنه عجزوهم ، بينما ترت خطواتي ، عن قصد ، عنيفة ثابتة ، فتختلط مع خطواته في صدى مبهم ، تريد جميعاً ان تفر بذلك من هذا العالم القذر المقرف .

كنت أحس بصورة متزايدة القوة ما بيننا من توتر . ان هذا السكون الصارخ والمفعم بالمصيحات الباطنة لأشبه بوتر الكمان المشدود حتى يكاد ان ينقطع . وأخيراً مزقت كلمته هذا السكون ، وهي ما برحت مترددة فرقاً في البدء ...

قال :

— لقد .. لقد ... رأيت هناك مشهداً غريباً ... ياسيدي ... اعذرني ... اعذرني ... اذا كنت اذكرك به ... ولكنه قد بدا لك غريباً بكل تأكيد ... هذه المرأة ... انها في الحقيقة ...

توقف ، وقد شدت شيئاً ما على حلقه حتى ليكاد أن يتنقده ، ومن ثم انخفض صوته للغاية ، وهمس بنبرات متسارعة :

— هذه المرأة ... انها في الحقيقة ، زوجتي .

ومما لا ريب فيه اني انفضت دهشة ، لأنه استرسل متعجلاً ، وكأنه

يريد أن يعتذر :

- يعني انها كانت زوجتي ... قبل خمسة أعوام ... قبل أربعة أعوام ...
 في جيراتريم ، هناك ، في مقاطعة الهيس حيث تقيم عائلتي ... است أريد ، ياسيدي ،
 أن تفكر سوءاً فيها ... املها خطيئتي اذا انتهت الى هذه الحال ... انها لم تك
 دوماً هكذا ... لقد عذبتها ... لقد أخذتها بالرغم من فقرها ، فلم تك تملك
 حتي الثياب ... لم تك تملك شيئاً أبداً ... مطلقاً ... أما أنا فغني ... يعني أنني
 ميسور الحال ... وليس غنياً ... او اني كنت هكذا فيما مضى على الأقل ...
 وهل تعلم ، ياسيدي ... لربما كنت - انها على حق - مقتصداً نوعاً ما ...
 ولكن ذلك قد كان فيما مضى ، ياسيدي ، قبل المفاجعة ، واني لا لعن نفسي من
 أجل ذلك ... ولكن أبي كان كذلك ، واخي أيضاً ؛ لقد كننا جميعاً هكذا ،
 بحيث كلفني كل فلس عشاء عظيمًا مرهقاً ... أما هي ، المرحمة ، فقد كانت
 تحب الأشياء الجميلة ، بالرغم من فقرها ... ولقد انتقدتها على ذلك دوماً ...
 الأمر الذي كان يجب ألا أعمد اليه - اني اعرف ذلك الآن - لأنها كانت
 عزيزة النفس ، ياسيدي ، عزيزة النفس جداً ... يجب ألا تظن انها فعلاً
 مثلها تحاول ان تبدو في أعين الآخرين ... ذلك كذب ، وهي تسيء الى
 نفسها بنفسها ... كي تسيء اليّ فقط ... بكل بساطة كي تعذبني ... و...
 لأن ... لأنها نخجل أيضاً . ربما إنها قد أصبحت شريرة حقاً ، ولكني
 لا أصدق ذلك ... لأنها كانت ، ياسيدي ، طيبة ، طيبة جداً ...
 وجفف عيشه ، وتوقف فريسة لانفصال عنيف جداً .

اطلعت اليه بصورة تخرج عن ارادتي ، واذا به يبدو لي ، بغتة ، بعيداً
 كل البعد عن ان يكون هزأة ، بل اني لم أعد أجد فيه مطلقاً ذلك التعبير
 الغريب والمفعم عبودية الذي يتصنعه ، وتلك الطريقة في النفوه بكلمتي «ياسيدي» ،
 الخاصة في المانيا بالطبقات الدنيا .

كان الجهد الباطن الذي يبذله كي يتكلم ينعكس على وجهه ، ونظرته

مثبتة في بلاط الشارع ، بعد أن عاود حالياً مشيته المترنحة ، فكأنه يفك في ذلك البلاط ، بعناء عظيم ، تحت النور المتأرجح ، رموزاً ينطلق من حلقة التشبيح على تلك الصورة الموجهة .

قال عندئذ ، متنفساً بعمق ، وبصوت قائم ، يختلف عنه قبلاً كل الاختلاف ، يلوح أنه يصدر عن منطقة أقل قساوة من كينونته الداخلية :
— بلي ، ياسيدي . لقد كانت ظيعة جـداً ، حتى فيما يتعلق بي ، وكانت عظيمة الامتنان لي ، لاني انتزعتهما من البؤس الذي كانت تعانيه . . . وكنت اعرف أيضاً امتنانها هذا ، ولكن كنت . . . أريد أن أسمعها تقوله لي . . . بصورة متجددة دوماً . . . باستمرار . . . كنت أشعر بالارتياح عندما أسمع اليها تشكرني . . . فإنه لا أمر حسن ، ياسيدي ، أمر حسن بصورة لامتناهية ، أن يعتقد المرء . . . أن يعتقد أنه أفضل عندما . . . عندما يعرف أنه أسوأ في الحقيقة . . . كنت أعطي كل مالي كي أسمعها تردد دون انقطاع هذه الآيات من الشكر . . . ولكنها كانت عزيزة النفس جـداً ، تريد دوماً ان تختصر من شكرها لي عندما لاحظت أنني أطلب ذلك ، أطلب هذا الشكر . . . ومن أجل هذا ، . . . من أجل هذا فقط . . . ياسيدي ، كنت أحملها دوماً على القوسل إلي . . . ولا أعطي شيئاً من تلقاء نفسي . . . كنت سعيداً إذ أجدها مجبرة على القدوم الي كي تسألني ، مثل شحاذة ذليلة ، من أجل كل ثوب ، من أجل كل شريط . . . ولقد عذبتها دوماً أكثر فأكثر ، على هذا الفرار ، طوال ثلاث سنوات . . . ولكن ذلك لم يكن ، ياسيدي ، إلا لأني كنت أحبها فقط . . . كانت كبرياءها تسرني ، ولكني كنت أريد ، بالرغم من ذلك ، أن أذلها دوماً ، أنا المجنون ! وعندما كانت ترغب في شيء ما ، فقد كنت أغضب ؛ أما في صميم قلبي ، ياسيدي ، فاني لم أكن أغضب فعلاً . . . كنت سعيداً بكل فرصة

منع لي كي أذلها ، لاني .. لأنني لم أكن ادري مقدار حبي لها ...
وتوقف من جديد .. ثم عاود المسير بمشية مترنحة . كان من البين انسه
قد نسييني ، فهو يتكلم بصورة آلية ، كما في حلم ، بصوت يزداد ارتفاعاً
باستمرار :

— هذا .. لقد عرفته فقط عندما منعت عنها عندئذ ، في ذلك اليوم
المشؤوم .. المال الذي طلبته من أجل امها ، القليل من المال ، القليل جداً ..
يعني اني قد حضرت المال سلفاً ، ولكنني كنت أريد ان تأتي من أجله مرة
أخرى .. مرة أخرى كي تنوسل الي .. بلى ، ماذا كنت أقول ؟ ..
« بلى ، لقد عرفت ذلك عندئذ ، عندما رجعت في المساء الى بيتي فإذا هي
قد رحلت ، وكانت هناك قطعة صغيرة من الورق على المائدة . « احتفظ بمالك
اللعين ، فليست أريد شيئاً منك بعد الآن » . هذا ما كان مكتوباً في الورقة ،
ولم يكن شيء آخر مطلقاً !

« ياسيدي ، لقد كنت أشبه بالمجنون طوال ثلاثة أيام وثلاث ليال .
لقد استأجرت قوماً كي ينقبوا النهر ، وكذلك الغابة .. لقد أعطيت مئات
الفرنكات لرجال الشرطة .. لقد ركضت الى سائر الجيران ، ولكنهم لم يفعلوا
الا الضحك والسخرية مني .. لا شيء ، اننا لم نجد شيئاً على الإطلاق ...
وأخيراً حمل لي بعضهم خبراً من القرية المجاورة .. لقد رآها .. في القطار
برفقة جندي .. لقد ذهبت الى برلين !

« وغدوت في اليوم ذاته أسعى وراها .. مهملاً أعمالي ، مضيقاً ألو
الفرنكات .. ولقد سرقوني ، خدمني ووكيل أعمالي ، الجميع دون تفريق ..
« ولكنني اقسم لك ، ياسيدي ، اني لم أبال بكل ذلك مطلقاً ..
« ولقد بقيت في برلين اسبوعاً كاملاً حتى اكتشفتها أخيراً في ذلك

الاعصار من البشر .. ولقد ذهبت اليها ..

وتنفس في ثقل :

— اني أقسم لك ، ياسيدي .. لم أقل لها اية كلمة قاسية .. لقد بكيت ..
وجثوت على ركبتي ، وعرضت عليها مالا .. كل ثروتي التي ستشرف هي
عاليها ، لأنني لم أكن أستطيع — كنت أعرف ذلك منذ تلك الاثناء — أن
أحيا من دونها . اني أحب أضال شعراتها .. وفها .. وجسدها .. كل
شيء ، كل شيء فيها .. واني أنا الذي ألقيت بها في الهاوية ، انا وحدي ..
» كانت صاحبة مثل الموت عندما دخلت عليها بغتة ..

» كنت قد رشوت صاحبة الدار التي تقيم فيها ، وهي امرأة شريرة
سافلة .. لقد كانت هناك ، عند الحائط ، يضاء كالكلس .. وكانت
تصغي الي .

» ياسيدي ، أظن انها كانت .. بلي .. فرحة تقرباً لرؤيتي .. ولكن
عندما تحدثت عن المال .. وأنا لم أفعل ذلك ، أقسم لك ، الا كي ابين لها
اني لم أعد افكر في المال مطلقاً .. فقد اخذت تبصق دون هوادة ، ومن
ثم .. . لأنني لم أشأ بعد ان اذهب ، دعت عاشقها ، وطقق كلاهما
يسخران مني ..

» ولكنني عدت ، ياسيدي ، يوماً بعد يوم . ولقد حدثني المسأجرون
بكل شيء .. فعرفت ان ذلك الوغد قد هجرها ، وأنها في حاجة الآن ،
فرجعت اليها عندئذ مرة أخرى .. مرة أخرى ، ياسيدي . ولكنها عنفتني ،
ومزقت ورقة مالية وضمتها في عجلة على المائدة ، وعندما رجعت بعد
ذلك ، كانت قد ذهبت ..

» أي شيء لم أفعله ، ياسيدي ، كي اعثر عليها ؟

« طوال سنة كاملة ، اني اقيم لك ، لم أعش ؛ لم أفعل سوى البحث ؛
ولقد دفعت مبالغ طائلة للوكالات حتى اللحظة التي علمت فيها انها هناك ، في
الأرجنتين .. في .. بيت للبعاء ... »

وتردد برهة ، فقد كانت الكلمة الأخيرة أشبه بالخرجة ، ومن ثم ازداد
صوته إظلاماً وهو يقول :

— يئست .. الوهلة الأولى ، ومن ثم فكرت اني انا الذي أقيمت بها في
ذلك المكان .. وفكرت كم تتألم ، تلك المسكينة ، من دون ريب هناك ...
ذلك انها عزيزة النفس قبل كل شيء .. وذهبت الى محامي الذي كتب الى
القنصل وأرسل مالا .. دون ان يقول له من معطي المال .. وكتب لها
أن تعود فقط .. »

« وابقوا الي ان كل شيء تكلل بالنجاح .. كنت أعرف اسم الباخرة
. وانتظرتها في امستردام . »

« كنت قد وصلت قبل الموعد بثلاثة أيام ، فكنت أتحرق انتظاراً ..
وأخيراً دقت الساعة . كنت أطفح فرحاً من مجرد رؤية دخان المركب عند
الأفق ، حتى لقد خيل الي اني لن أستطيع قط ان أنتظره حتى ياتي مراسيه
ويتصل بالشاطئ ... بكل هذا البطء ، بكل هذا البطء .. ومن ثم اجتاز الركب السلم ،
وأخيراً هي .. اني لم أعرفها في التو واللحظة .. لشدما تغيرت .. مبرجة .. ومنذ
ذلك الحين هكذا .. هكذا كما رأيتموها .. وعندما رأيتموها في انتظارها ، اصفر
وجهها .. واضطر بحاران الى سندها ، والا كانت وقعت عن السلم ...
وما وصلت الأرض حتى كنت الى جانبها .. لم أقل شيئاً .. فقد كان حلقي
مغلقاً .. وهي الأخرى لم تقل شيئاً .. ولم تكن تنظر الي .. كان الجمال
يسير بالامتعة الى الأمام منا ، ونحن نمشي ، نمشي .. وهذه هي توقف على

غرة ، وتقول . . . ياسيدي ، كيف تفوهت بهذه الكلمات ! . . . لقد آلمني ذلك بصورة قاسية ، لما كانت عليه رنة صوتهما من عميق الحزن . . . « أتريدني زوجة لك دوماً ، حتى في الوقت الراهن ؟ » . . . أمسكت بها من يدها . وارتعشت ، ولكنها لم تقل شيئاً .

« هكذا شعرت أن كل شيء قد أصلح الآن . . . كم كنت سعيداً اذن ، ياسيدي ! رخت ارقص حواليتها ، مثل طفل صغير ، عندما أصبحت في غرفتي ؛ وسقطت عند قدميها . . . وقلت لها ، من دون ريب ، أشياء مجنونة ، لأنها كانت تبسم من وراء عباتها ، وكانت تمسح علي . . . بحياء عظيم ، كما هو طبيعي . . .

« ولكن ، ياسيدي . . . لشد ما أسعدني ذلك ! لقد ذاب قلبي دموعاً . . . كنت أصعد السلام واهبطها عدواً ، أطلب غداء في المطعم . . . غداء عرسنا . . . وساعدتها على ارتداء ملابسها . . . ومن ثم نزلنا الى قاعة الطعام ، وأكلنا ، وكنا سعيدين . . . أواه ! لقد كانت مسرورة جداً ، مثل طفل صغير ، دافئة وطيبة ، وكانت تتكلم عن منزلنا . . . وعن كيف سنأخذ بالحياة من جديد . . . عندئذ ! . . .

وُجَّح صوته بفعلة ، وقام بإشارة من يده ، فكأنه يريد أن يحطم رأس إنسان ما .

— عندئذ . . . لقد كان هناك . . . إنسان شرير ، شقي . . . ظن إني سكران ، لأنني كنت مجنوناً ، وكنت أرقص وأضحك حتى أتلوى . . . بينا الواقع ان الفرح وحده كان يحملني على هذا السلوك . . . أواه ! لقد كنت مسروراً جداً ، ولكن هذا هو . . . عندما دفعت ، يرد الي حسابي ناقصاً مبلغ عشرين فرنكاً . عنفته ، وطالبتة بالبقية ، فارتبك ووضع القطعة الذهبية على المائدة . . .

وعندئذ .. شرعت هي تضحك ، على حين غرة ، بأعلى صوتهما .. تطلعت
إليها بثبات ، ولكن محياها كان قد تبدل .. لقد أضحت بغمة ساخرأ ،
قاسياً ، شريراً .

« قالت في برود شديد ، بملك اللهجة الحادة القاطعة ، وبشيء .. بشيء
كثير من الرثاء : « ما أشد تقثيرك .. حتى في يوم عرسنا » .

« انفضت ، ورحت ألحن خوفاً ذلك من الإفراط والاسراف . جهدت
أن اضحك من جديد ، ولكن مرحها قد تلاشى .. قد مات .. وطلبت غرفة
خاصة بها .. أية رغبة لم أكن ألبمها لها اذن ؟ وقضيت الليل وحيداً ، أفكر
فيما سأشتره في الغداة صباحاً .. هدية أقدمها إليها .. كي أبرهن لها اني
لست بخيلاً .. وأني لن أكون كذلك قط تجاهها بعد الآن . وفي الغداة
خرجت في ساعة مبكرة جداً ، وعندما دخلت غرفتها .. كانت .. كانت
فارغة .. مثلها في المرة الأولى . وكنت أعرف ان قطعة من الورق ستكون
على المائدة .. تقدمت راكضاً ، ضارعاً الى الله ألا تكون تلك الحقيقة ...
لكن .. لكن .. كانت تلك الورقة هناك مع ذلك .. وكان مكتوباً فيها ..
تردد برهة . كنت قد توقفت ، دون قصد مني ، ورحت أشخص اليه ،
فأطرق برأسه ، ومن ثم همس بصوت مبجوح :

— كان مكتوباً فيها : « دعني في سلام ، فأنك تثير الاشتزاز في نفسي » .
كنا قد بلغنا المرفأ ، فإذا تنفس البحر المزجر يتردد ، على حين غرة ، في
السكون ، قريباً منا .

وكانت السفن هناك ، قريبة جداً ، وعلى بعد متفاوت ، مثل حيوانات
كبيرة سود تتمضوا أعينها . وكان صوت غناء يتردد في مكان ما .
لم يك شيء واضحاً ، ولكن المرء يلمس بالرغم من ذلك أن هناك العديد

من الأشياء ، ان هناك ما يشبه رقاداً واسعاً ، ما يشبه حلاًماً مثقلاً يراد
ذهن مدينة عظيمة وكنت أميز بالقرب مني حضور خيال هذا الرجل
المرتجف بصورة غريبة عند قدمي ، متكسراً تارة ، متكوماً تارة
أخرى ، تحت النور المتبدل الذي تنشره المصابيح العكرة . ولم استطع ان
اقول شيئاً ، حتى ولا ادنى كلمة عزاء او اي سؤال عارض ، وان يكن صمته
يلتصق بي ، ثقيلاً مؤلماً . ولكن هذا هو يمسك بذراعي على حين غرة ،
ويقول مرتعش الاوصال :

- ولكني لن اذهب من هنا بدونها . لقد لقيتها بعد شهر طويل .
إنها تعذبني ، ولكن ان أكل قط . . استحلفك بالله ، ياسيدي ، ان تتحدث
إليها . . يجب ان تكون لي ، قل لها ذلك . . إنها لاتصغي إلي . . إني لا
استطيع بعد الآن ان اعيش هكذا . . اني لم أعمد استطيع ان ارى الرجال
يذهبون اليها . . وانا انتظر خارجاً عند الباب حتى يخرجوا . . سكارى
ضاحكين . . ان الشارع بأسره قد اصبغ يعرفني . وهم يضحكون عندها
يرون اني انتظر . . ان ذلك بصيبرني مجنوناً ، ومع ذلك فاني أعود . . في كل
مساء . . ياسيدي ، استحلفك بالله . . تحدث إليها . افعل ذلك بالرغم من
اني لا اعرفك ، افعله محبة بالله . . تحدث إليها . .

وسمعت ، دون وعي مني ، الى تخليص ذراعي من قبضته . وانتفضت ،
بينما سقط هو فجأة على ركبتيه في وسط الشارع ، شاعراً اني أحميد بوجهي
عن مصيبتيه ، وقبل قدمي .

قال :

- استحلفك بالله ، ياسيدي . . يجب ان تتحدث إليها . . ذلك واجب . .
وإلا . . وإلا سيحدث شيء رهيب . . لقد صرفت كل مالي كي أجد لها ،

ولن أتركها ههنا .. ههنا حية .. لقد اشترت سكيناً .. ان لدي سكيناً ،
ياسيدي .. لم أعد أريد ان تبقى ههنا .. حية .. اني لم أعد استطيع احتمال
هذا العذاب .. تحدث اليها ياسيدي ..

كان يقدحرج كالجنون أمامي . وفي هذه اللحظة ، تقدم شرطيان نحونا
عبر الشارع ، فرفعه عن الأرض بعنف . تطلع الي برهة كمن فقد صوابه ،
ومن ثم قال بصوت متبدل تماماً ، وبجفاء عظيم :

— انك تنعطف في هذه الطريق ، ومن ثم تكون في فندقك .

وشخص الي بثبات مرة أخرى ، بهمين تلوح حدقتها غارتين في بياض
خفيف وفراغ يبعث على الرهبة ، ومن ثم اختفى .

تدرت بمعطفي ، فقد كانت أوصالي ترتعش . كنت مرهقاً بالاعياء ، "بحتاجني
نشوة مبهمه ، بليدة سوداء ، يرافقها نعاس متردد ، لونة لون القرمز . كنت
أريد أن أفكر قليلاً ، أن تأمل في كل ما حدث ، ولكن تلك الموجه السوداء
من الاعياء كانت ترتفع في دوماً وتجرفني . ودخلت الفندق أنعاس طريقي لنعسا ،
وتهاويت على سريرتي ، واستغرقت في نوم ثقيل أشبه ما أكون بحيوان
اعجم .

* * *

لم أعد أدري ، في صباح الغداة ، مبلغ ما في مغامرة البارحة من الحلم
ومن الواقع . كان شيء ما في باطني يمنعني من التساؤل عن ذلك . لقد استيقظت
ضحى ، غريباً في مدينة غريبة ، فذهبت أزور كنيسة تضم فسيفساء
عظيمة الشهرة .

ولكن عيني ظلتا ضائعتين في الفراغ ، وذكرى الليلة المنصرمة تعود الي

ذهني بقوة متزايدة دوماً ، وتجبرني بصورة لاسبيل الى مقاومتها ، بحيث رحت
أفتش عن الشارع وعن الدار في حمية عظيمة . . ولكن هذه الاثقة الغريبة
لا تحيا الا في الليل ، اما في النهار ، فهي تحمل افنعة رمادية باردة لا يستطيع الا
المتدرب وحده ان يعرفها من ورائها . ولقد قدشت طويلاً عن ذلك الشارع ،
ولكن عبثاً ، فقد باهت سائر جهودي بالفشل الذريع ، حتى قفلت الى الفندق
أخيراً ، متعباً خائب الآمال ، تلاحقني تلك الصور التي يحركها في الانفعال
أو الذكري .

... كان قطاري يرحل في التاسعة مساءً ، فغادرت المدينة آسفاً . جاء حمال
كي بأخذ أمتعتي ، ومن ثم توجهنا معاً ، وهو يسبقني بخطوات ، نحو المحطة .
وفجأة شعرت بصدمة باطنة عند اتصال بعض الطرق ، فقد عرفت الزقاق
الجاني الذي يؤدي الى ذلك المنزل . قلت للجمال أن ينتظرنني ، وبينما طفق هذا
الجمال ، الذي دهش للوهلة الأولى ، يضحك فيما بعد في وقاحة وألفة ، ذهبت
ألقي نظرة اخيرة على ذلك الشارع الذي قادني المغامرة في الأمس اليه .

كان الشارع يستلقي هناك ، في الظلمة ، قائماً مثله في العشية ، فرأيت
ألواح زجاج باب تلك الدار تلمع في ضياء القمر الكامد . وأردت ان اقرب منه
مرة اخيرة ، عندما انزلق شبح انساني خارجاً من الظل ، عرفت فيه - مقشعر
الأوصال - رجل البارحة الذي التعصق هناك بالجدار ، عن العتبة تماماً ، وراح
يشير الي أن اقرب منه . ولكن ارتعاشاً قد انتابني بصورة مباغتة ، فوليت
الادبار بأقصى السرعة ، في جبن ، خشية أن أجدني مقحوماً فيالانحمد عقباه ،
فيفوتني القطار مرة اخرى .

ولكني تطلعت مع ذلك الى الورا ، مني ، قبل ان انعطف ، عندما بلغت
زاوية الشارع . وعندما وقعت نظري على الرجل ، شدت هذا الاخير من

جذعه ، ورأيتهُ يتكوم على نفسه في عجلة ، ومن ثم يقفز على الباب ويفتحه بعنف وقوة . وفي هذه اللحظة التمع ضياء مهدي في يده ، لم أستطع أن أميز ، عن البعد حيث كنت ، ان كان مصدره المال أو تلك السكين التي تتضوء بغدر ، في ضوء القمر ، بين أصابعه ...



مستمل الكتاب

صفحة

٣

مقدمة

١٧

لهو القدر : جوهان فون شيللر

٣٥

سندريللا : الأخوان جريم

٤٧

آلهة في المنفى : هنريخ هايني

٧٧

اعترافات رأس السنة الجديدة : هرمان سودرمان

٩٣

١١ الدرب إلى المقبرة : توماس مان

١١٣

٢٤ لاعب الشطرنج : ستيفان زفايج

١٨٩

١٦ رسالة من مجهولة : ستيفان زفايج

٢٤٩

١٤ في ضوء القمر : ستيفان زفايج



دار اليفطة العربية للنألف والترجمة والنشر بسورية

تقدم الى قرائها في الاقطار العربية

رومان رولان

الطأب الفرنسي الذي كان قبلة انظار الأوروبيين طوال مائة أجيل كأمدة

في

حب و حرب

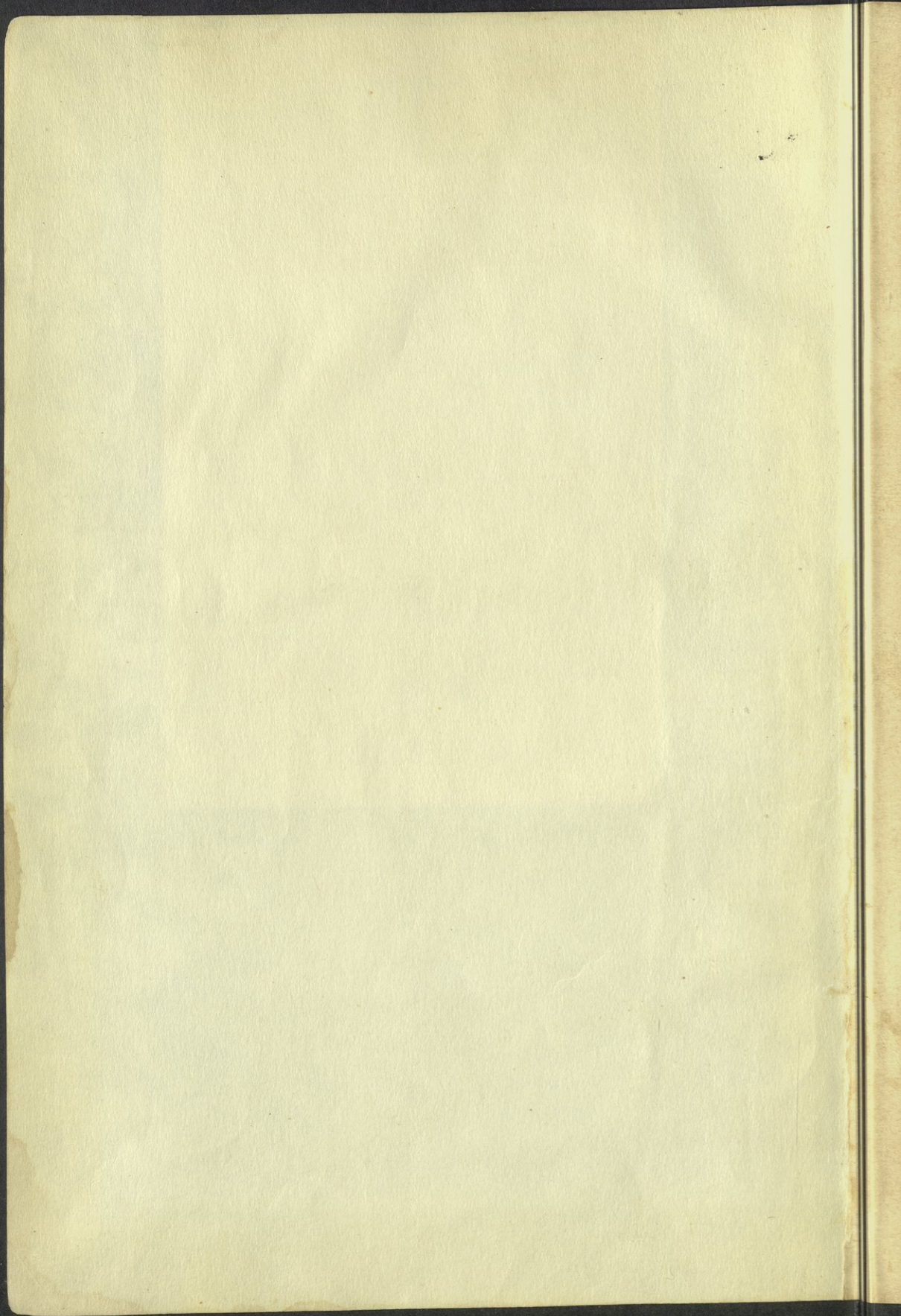
إحدى قمم الأءب الانساني المعاصر .

قصة الفتوة التي ترهقها وطأة الحرب في كل مكان وتضئها .

قصة الشباب الذي يحطم جنون البشر ومطامعهم طموحه وآماله ويذريها .

قصة الحب الذي يتفتح تحت انفجارات القنابل ويقضي تحت انقاض الفارات .

نقلت إلى العربية عن الطبعة الفرنسية الستين .



DATE DUE

833.08:A98rA:c.1

ايوب، فؤاد

روائع من الادب الالمانى

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01031552



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

2982
C.1